جِسْر على نهر الأُرْدُن

مكتبة كل شيء 2018

info@kul-shee.com www.kul-shee.com

تصميم ومونتاج: **شربل إلياس**

صورة الغلاف الأمامي بعدسة: **يوسف أبو طاعة**

بورتريه الغلاف الخلفي بريشة: **رمزي أبو صوي**

الطبعة الأولى 2018

*** حقوق الطبع والنَّشر محفوظة للناشر.**
يُمنع طبع، أو تصوير، أو نقل أيّ مادَّة من الكتاب،
دون موافقة خَطيَّة مسبقة من الناشر.

ISBN 978-965-7753-19-4

أُسَامَة العَيَسَة

جِسْر على نهر الأُرْدُن

(تَباريح جُنديّ لم يحارب)

إلى يُوسُف سند (أَبو خالد)
إنسان من هذا الزمان

فأرنا الشَّوكيّ الذَّهبيّ العزيز..!

تعرفتُ على يوسف الرطاسيّ، سارد الصفحات التالية، في قريته إرطاس، وجلستُ معه مرارًا على قمة جبل (أبو زيد)، قبالة منازل القرية على الضفة الشمالية لوادي إرطاس.

لم تكتمل أبدًا حكاياته التي أصغيت إليها بشوقٍ، حتّى اختفى فجأة، وعندما سألت عنه، علمت أنّه يقبع في زنزانة ما في سجنٍ ما، وهو ما يتسق مع سيرته التي سمعت منه نتفًا منها، وأخفى عني الكثير منها.

لم تنقطع زياراتي لإرطاس، في سنوات محتليها الجدد الأولى، بعد اختفاء يوسف المفاجىء، وصعدتُ إلى الجبل، وجلستُ في دار الرّاهِب المهجورة، وزرت الدَّيْر، مقتفيًا نتف حكايات يوسف، وكأنني أبحث عن شيء تركه يوسف لي، لأكتشف أنّه كان يبحث عنيّ أيضًا، مرسلاً رسولاً.

وأنا جالس على بئر الماء في دار الرّاهِب، أتى، شعرت بجسده يحك قدمي، ثم صعد إلى حضني، قائلاً:

-انتظرتك طويلاً..!

طلبت منه بأدبٍ أن يقدم نفسه:

-أنا رسول يوسف إليك، فأره الشَّوكيّ الذَّهبيّ، جئتك

بسلاماته، وسأجيئك بكتاباته..!

وعلى مدار السنوات اللاحقة، التزم الفأر الشَّوكيّ الذَّهبيّ، فأر يوسف وفأري، بما وعد به، فكان يأتيني مُخفيًا ورقة ملفوفة جيدًا، تلك التي يسميها السجناء الكبسولة، في ثنايا جسده، ولكنّه كان يغيب أحيانًا لأسابيع، لا أراه فيها، ويقتلني الانتظار والجزع على صديقي يوسف، وشوقا لأوراقه، وفي هذه الحالات، أرتحلُ إلى الأماكن المذكورة في أوراق يوسف، لكي أفهم أكثر الوقائع التي حرص صديقي على خطها.

في الصفحات التالية، تباريح يوسف؛ الشدائد واللواعج، ما خطَّه بخطٍّ صغيرٍ جدًا، ولأنني توقعت أن يكون هدفه نشرها، دون أن يطلب منّي فعل ذلك، ها أنا أفعلها، دون أن يكون لدي أي علم، عن مكانه أو مصيره، فمصائر بلادنا القدرية، جعلتني أفقد الصلة الوحيدة معه، مع انقطاع فأرنا عن المجيء إلى مواعيدنا في دار الرّاهِب.

الفئران الشوكية الذهبية تحديدًا، تختفي مع اختفاء أصحابها، وهو ما حدث مع فأرنا الشَّوكيّ الذَّهبيّ، الذي جهد لإطالة فترة انتظاره قبل اختفائه، لينهي مهمة إيصال كبسولات الأوراق لي.

لن أعرف إذا كان فأرنا الشَّوكيّ الذَّهبيّ، تمكن من إيصال كل ما أراد يوسف كتابته أم لا؟ وربما من المفيد ألا أعرف، فالحكايات تحافظ على ألقها عندما تغلف بالغموض، ونحن الكُتّاب علينا أن نجرب، حيرة القراء وشغفهم وفضولهم لمعرفة كنه الحكايات.

لم أغيّر أو أضف فيما كتبه يوسف، سوى كلمات اعتقدت أنّها مُحيت، أو الأصح قُرضت، ورجحت أن تكون عائلة الفئران التي يعيش بينها فأرنا الشَّوكيّ الذَّهبيّ، هي من تسببت بذلك، قبل أن ينتبه صديقنا فَيُخَلِّص سبيكته التي هربها من زنزانة يوسف، ليأتيني بها خالصة لوجه الحقيقة والوفاء لصديق طفولته، وهو يتأسى على واقع الفئران، التي اعتقدت أن ذهب الأحرف الذي يحمله، ليس إلّا صَلِيْقَة خفيفة، يمكن أن تقرضها وهي تتسامر في مساءات الصيف الطويلة، وهو ما يقرضه فئران الكتب من القراء في كل الأوقات، آملاً ألّا يكون القرض متعباً سواء نُظر للصفحات التالية، كسبائك أو كصَلائِق.

غرب الجِسْر (1)

مُعَسْكَر 88

أخيرًا، أنا هنا في مُعَسْكَر 88. المُجَنَّدون من منطقة الجنوب هذا مكانهم، في العُوجا، ليس بعيدًا كثيرًا عن الشَّرِيعة، أمَّا المُجَنَّدون من منطقة الشمال، فمكانهم مُعَسْكَر 99 في فصايل، أَيضًا ليس بعيدًا كثيرًا عن نهر الشَّرِيعة.

ما هو الجنوب وما هو الشمال في بلادنا؟ كيف تتغيّر الجهات في بلاد الجهات والجبهات بهذه السُّرْعَة؟ الجنوب الَّذي قصدته هو جنوب الهَضْبَة الفلسطينيّة الوسطى، والشمال أَيضًا هو شمالها مَن أصبحت تُعرف باسم الضَّفَّة الغربيّة، ضَفَّة وغربية بالنسبةِ لمن؟ بالنسبة لنهر الأُرْدُن الَّذي يسميه أهلنا الشَّرِيعة الَّذي توحدت ضَفَّتاه في مملكةٍ واحدة، بعد أن أخذ الإسرائيليّون ثُلثي فِلَسْطِين، وما تبقى أصبح ضَفَّة وغربيةً. بايعت نُخب بلادي التقليدية والعشائرية وخادمة الأنظمة التي تتغير على هذه الأَرْض، بالسرعة التي يقصف بها عزرائيل الأعمار، الْمَلِك عبد الله، ملك الأُرْدُن، ملكًا عليها وعلينا.

في العُوجا شبه الصحراويّة، الهابطة تحت سطح البَحْر،

يتفجر الينبوع، ويسير في نهرٍ صغير، ترتفع الشجيرات على جانبيه، مُشكلة غابة صغيرة، لا تخفي الجبال والأجراف الوردية الشاهقة حوله، يروي الأَرْض وهو ينهر للماء متغلبًا على مصاعب الطبيعة، ويهبُ الحياةَ للبشرِ، وللشجرِ، والحيوانات البَرِّيَّة، للغزلانِ كما للضباعِ والثعالب، وتتفرع منه القنوات التي يتراكض فيها الماء بسرعةٍ كبيرة.

معسكرنا ليس بعيدًا عن قنوات المياه العتيقة التي كانت تُشَغِّل طواحين القَمْح، وتنقل المياه إلى المَزارع الرومانيّة القديمة، وليس بعيدًا أَيضًا عن القنوات الجديدة التي تنقل المياه للمزارع والبيارات الجديدة.

كنت أعتقد، بأن اسم العُوجا مأخوذًا من صعود الماء في القَنَاة الحديثة التي تبدو فيها المياه، وكأنّها في هذه المِنْطَقَة الوحيدة من العالم فقط، التي تتحدى قانون الجاذبيَّة فتصعد بتدرج إلى الأعلى، في دربٍ أعوج مخالفة دروب الماء في دنيا اللّٰه الواسعة. هذه الفكرة ترسخت في ذهني من الرحلات المدرسية إلى العُوجا، وشرح المعلمين الذين يحاولون إدهاش طفولتنا بالمياه العوجاء التي تصعد إلى الأعلى، واستمرت معي وأنا هنا في مُعَسْكَر 88، ويعتقدها أَيضًا زملائي من المُجَنَّدين.

لا نعدم فرص الوصول إلى هذه القَنَاة فنتأملها، لنؤكد لأنفسنا بأن المياه تصعد..نعم إنّها تصعد، إننا نراها تصعد إلى الأعلى.

هذا الكلام كان يثير سخرية صديقي يُوسُف السُرْيانيّ، من بَيْت لحم، المجاورة لقريتي إرطاس. يضع يُوسُف قدميه في القَنَاة، ويخاطبني ساخرًا:

-يا يُوسُف يا نَبيّ الله وعبده، يا مبعوث السَّماء لهذه الواحة، يا بطل الحَرْب المقبلة، هل رأيت في كلّ حياتك ماءً يصعد..! وأنت ابن قَرية الينابيع والبِرَك التي حملت المياه إلى القُدْس في قنواتٍ طويلة منذ ألفي عام..! كيف ستنتصرون على العَدُوّ الواقف على الأبواب، وأنتم تعتقدون أن المياه تتحدى الجاذبيَّة، إذا كان هذا التحدي الوَهْميّ أحد مصادر تحديكم للعَدُوّ المتربص، فمعنى هذا أننا في مشكلة..!

وأخذ يُوسُف حائز المرتبة الأُولَى في رياضة كمال الأجسام على الضَفَّتين، يتقافز في الماء، ويقول:

-ها أنا أتحدى الجاذبيَّة ولكنني لَا أستطيع..!

ومشى في القَنَاة، ونحن خلفه. سِرتُ في الماء المخادع، الَّذي يبدو وكأنَّه يصعد، بعد أن رفعت بنطالي حتَّى وصلنا الشلال في نهاية القَنَاة، جلس يُوسُف على رأسها، ونزل

سريعًا مدفوعًا بالماء، على المنزلقة، ونزلت خلفه، نضحك ونتندر وننكت على أنفسنا.

في يومٍ آخر أخذني يُوسُف، إلى رأس النبع، لنقابل رجلاً مسنًا من أهل العُوجا، سرنا معه حتَّى أطلال كَنيسة بيزنطيّة قديمة، ليؤكد لنا بأنه ليس فقط النبع هو ما يُميز القَرْيَة، وإنما أَيضًا المعالم والخِرَب الأثرية والقنوات والطواحين لها حِصَّة. يذكرها بفخر، ويحاول المبالغة ليضمن أكبر قدر من الانتباه لدى مَن يُحدثهم، فيقول مثلاً هل تعلمون أن ما يسميه أهل العُوجا الخَرِبةَ التحتا، ليس إلّا (ارخيلايوس) المدينة التي بناها ارخيلاوس، خليفة والده هيرودس الكبير العظيم، أنقاض المدينة ما زالت موجودة، بآبارها، وقنواتها، وخزانات المياه، وفيها مقام الشَّيْخ إبراهيم، رجل صالح لا نعرف أصله، ولا يهمنا، المهم أنّه كان من الصُلَّاح ليصبح واحدًا من أولياء الله الصالحين، فاستوجب على أهلنا بناء مقام له للتقرب إلى الله أكثر، فالله يحب عباده الصالحين، ويُقدرهم، ويستجيب لهم ولمن يحبهم، وليتذكروا دائمًا أنَّ الشَّيْخ إبراهيم بشرٌ مثلهم، وأنَّ أي منهم، بتقواه، وسعيه، وزهده يمكن أن يصل مرتبته لدى خالق السموات والأَرْض.

وهكذا يتحدَّث عن مواقعٍ أخرى، يبدو أنّها ما تزال تثير

خيال البَدْو بغموضها، وتثير خيالي أنا أَيضًا، ابن قَرية الآثار والآبار والينابيع التي أثارت خيال العَرَب والعجم، وتشربت كلّ ذلك منذ الصغر، وغذته حكايات غرباء قريتنا. قبل سنوات استوقفتني لينا الآتية من خلف البحار إلى قريتنا، وسألتني عن اسمي، وعندما أجبتها فرحًا بفضول هذه الشقراء الغريبة، نظرت إلى سجلها وصححت لي سلسلة الأسماء التي أحملها وزادت عليها مما لا أعرف، وأنا في غاية الدَهْشَة، وذكرت لي سلسلة أخرى من أسماء النِّسَاء اللواتي لا أعرفهن، وعلاقتهن بي، ما جعلني أكثر التزامًا بما يرويه دائمًا الأستاذ شَرِيف عن تاريخ قريتنا والغرباء الذين سكنوها وعشقوها وساهموا في أسطرتها. جاءت لينا تقتفي آثار من سبقوها إلى قريتنا، لتكتب عن الجَانّ، وعلاقته بالإنسان في هذه البقعة مما عمَّر الله وعباده، وليس مثل ذلك موضوعًا سيحلق بخيالي الصغير آنذاك.

أخبرنا أَبو متعب، الَّذي سيصبح صديقًا لنا طوال فترة مكوثنا في المُعَسْكَر، عن سِرّ اسم العُوجا، الَّذي ليس له علاقة بالماء الأعوج: «اسم قريتنا كان عَيْن غزالة، يمكنكما تأمل سحر الاسم، وجَمَاله، ولُطفه، الَّذي يناسب طبيعتها وغزلانها الناجية من أذى البشر، التي تسرح حول الماء وفي البَرِّيَّة الممتدة حولنا، غربًا إلى عَيْن سامية، وشرقًا حتَّى

الشَّرِيعة، وفي زمنٍ ما لن نعرف زمنه أبدًا، اختلف أميران، لن نعرف أبدًا من هما، على عُوجتنا هذه، وكما يحدث في مثل هذه الظروف، أرادا حسم الأمر، فدفعا بعشيرة كلّ منهما لأتون القتال، وانتصرت العشيرة التي تُقاتل بسيوف عوجاء، لماذا اختارت السُّيُوف العوجاء؟ لن نعرف أبدًا، فتم تسميتها نسبة إلى السُّيُوف العوجاء بعين العُوجا، وقال الشاعر، الَّذي لن نعرف اسمه أبدًا في تلك المناسبة التَّاريخيَّة التي حسمت اسم قريتنا ومحت اسمها القديم الشاعري من التاريخ ومن الذاكرة، وما زلنا نردد ما قاله:

نحن الذين حموا العُوجا بسيوف حَدبة وعُوجا».

أردنا معرفة أمور أكثر عن الواقعة، ولكن أبا متعب، لم يشفِ فضولنا، وفضل الحديث عن الحَرْب الواقفة على الأبواب، ونبهنا ضاحكًا:

-المهم ألَّا تكون سيوفكم، عفوًا، بواريدكم، عوجاء..!

تنطحت له متحمسًا:

-عوجاء أو صحيحة، فسيلاقي العَدُوّ منّا، كلّ بأسٍ، وببساطة سنسحقه، لن يفوز هذه المرّة، أؤكد لك يا أبا متعب، الرجال هم الذين سيحاربون، والفرس بخيّالها...!

أمَّا يُوسُف السُرْيانيّ فقال متفكهًا:

-يبدو أن الأسلحة العوجاء هي التي تجلب النَّصْر في هذه البلاد..!

كان أَبو متعب مثل عموم أبناء شعبنا، يميل إلى تصديق ما أقوله ويقوله غيري من المُتَعَطِّشين لنصرٍ ساحقٍ ماحق على العَدُوّ، ولا يعتبره فقط حماسة شاب، ولكنّه أراد إضفاء مناخ من الانبساط على لقائنا، وهو ما فعله أَيضًا، خلال لقاءاتنا العديدة طوال فترة التَّدْرِيب، فقال:

-عليكم محاربة العَوَج، عَوجنا، وعَوج أنظمتنا، بسيوفٍ صحيحة، حتَّى نقضي على العَدُوّ الأعوج..!

قد يكون من الصعب تتبع الحقيقة من الأُسطورة في قِصّة السُّيُوف العوجاء وتلك غير العوجاء، كما قال لي يُوسُف ونحن عائدان للمعسكر، ولكن بالنسبةِ لي أصبحت العُوجا تظهر لي وكأنّها غزالة شاردة، على حافة نهر الأُرْدُن، لَا تعلم ماذا ينتظرها.

هذا الإحساس لازمني خلال الفترة المقبلة، ولم أعرف لماذا؟

في الواقع كنّا جميعًا، مثل الغِزْلان الشاردة، المتوثبة وهي تتحسس مواطن وقوفها المؤقت، قبل أن تعيد الهروب، والعودة مرات إلى الماء المتفجر بقُوَّة، ليلاً ونهارًا، ولا

يتركه النّاس، ليصب في الشَّرِيعة، بل يحولونه ليروي عطش الأَرْض شبه الصحراوية، وفي دورة حياتها هذه، تخسر بعضًا منها برصاص الصيادين الذين لا يحبون الغِزْلان، إلّا إذا كانت مَيْتَة.

مشينا مرات عديدة من نبع العُوجا إلى نهر الشَّرِيعة، ورأينا المزارع والقرى والتلال على الضَّفَّة الشرقيّة، ومشينا من نبع العُوجا، في وادي اللصم، إلى عَيْن سامية، في أوقات فراغنا، كنّا نستكشف، ونبحث، ونقتل وقت الانتظار.

ولكن ذهابنا إلى عَيْن سامية في المرّة الأخيرة لم يكن بإرادتنا، ولكن بأوامرٍ قيادية..!

السَّمُّوع

من الصعب القول أبدًا، أن الأمور انتهت مع قيام دَوْلَة اليهود على ما احتلوا من أرضنا، ووقَّعَوا اتفاقيات هُدْنة مع الدُّول العربيّة التي جاءت إلى بلادنا لتنقذها، وتبقيها لأهلها جَوْهَرَة مصونة، كما أعلن الْمَلِك عبد الله، ولكنَّها سلمتها للعَدُوّ، جَوْهَرَة مجروحة مكنونة، هكذا قال لنا آباؤنا الذين ذاقوا علقم الهزيمة المدمرة، التي سُميت نَكْبة، ووجدوا وقتًا وهم يتجرعون هوانهم، ليهجوا الحُكَّام العَرَب مرددين غضب الشَّيْخ علي الأحمد:

قسمًا لو أن المومسات مكانكم
لتركـن ماخور الفجــور عيانا
ولبِسْنَ مْسَح الـراهبات تقشّـفًا
هرباً من العـار الَّذي أخـــزانا

وبكى الحطيني وأبكاهم:

حيفا وعكا وصفد والناصرة وبيسان
وبلاد أخرى ما بنحصى أساميها

مش عيب هيك يا قادة العَرَب في عمَّان
علَم الهاغاناة يلوح فوق علاليها
وعبَّر الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) عما يجيش في صدورهم من حقدٍ على قادة الجيوش العربيّة:
وجيوش غفر الله لها
سلّمَت أوطانكم من غير حرب
انتشرت في بلادنا الأحزاب القوميَّة، والاشتراكيَّة، والإسلاميَّة، ولم تهدأ الضَّفَّة الغربيّة؛ اغتيل الْمَلِك عبد الله، لاتهامه بالخيانة. أطلق عليه مصطفى عشّو النَّار في الْمَسْجِد الأَقْصَى، وخلفه ابنه طلال صاحب الشعبيّة بين النّاس، الَّذي سرعان ما نُحي عن العرش لمرضه النفسيّ، فلم يقتنع النّاس بذلك، وخلفه ابنه الفتى حُسين، الَّذي أصبح الْمَلِك حُسين الَّذي يقود البلاد الآن، وكان شاهدًا على مقتل جده.

لم تتوقف اعتداءات دَوْلَة إسرائيل الفتية، التي سميناها الكيان المزعوم، عن اقتحام ما تبقى من أرضنا غير الْمُحْتَلَّة، تقتل وتهدم المنازل، وتشكلت فرقة سموها 101 بقيادة شارون، اقتحمت قبية، وشرفات، وحوسان، ونحالين، وخربة أُمْ الريحان في جنين وغيرها، وخلفت القتل والدمار

واليأس والغضب. كنّا صغارًا نسمع أخبار عمليات القتل في قرانا التي أصبحت بسبب النَّكْبَة، قرىً حدودية بين وطننا ووطننا.

أشهر المجازر هي تلك التي أودت بسبعة وسبعين شهيدًا، وهدم ستة وخمسين منزلاً في قبية في خَريف 1953م. أُبيدت أسر في قبية مثل عائلة عبد المنعم فارس وعددها 12 فردًا، وقُتل شَرِيف أَبو زيد وأربعة من أفراد عائلته، وزوجة محمود إبراهيم وأطفالها الثلاثة، وفقد مُحَمَّد المسلول أربعة من أبنائه.

احتج النوّاب على تقصير الحكومة في حماية شعبها، وغضبت الحكومة على الجَيْش الَّذي لم يحمِ شعبه، وشُكلت اللجان للتحقيق في موقف الجَيْش الَّذي يقوده أَبو حنيك البريطانيّ (جلوب باشا)، الَّذي عُزل بعد ثلاثة أعوام من وقوع المجزرة.

روى لنا القَائِد زلّوم، كيف استنفر الجَيْش، بعد مَجْزَرة قبية، وتحركت قُوّات من الجَيْش من الضَّفَّة الشرقيّة نحو القرى الحدودية في منطقة رام الله، واتخذ الجنود مواقعهم، بحيث تغطي بَطَّارِيَّة المدفعية قوس رمي من اللطرون جنوبًا حتَّى شمال قبية، وأمضوا ثلاثين يومًا، استعدادًا

للثأر، ولكن القيادة لم تصدر أيَّة أوامر، وقررت أخيرًا الانسحاب، ويمكن تقدير تأثير ذلك على نفسيات الجنود، الذين خبروا كيف تتدرب قُوّات العَدُوّ على قتلهم، ونصب كمائن، وتمارس الاقتحام والقتل وتهديم المنازل. جُنديّ اسمه حتمل لم يحتمل كلّ هذا الهوان، لم ينم منذ عدة ليالي مستنفرًا مستعدًا للثأر، ولكن القرارات لم تأتِ من الأعلى، فقرر أن ينفذ ثأره بنفسه، ورغم إعيائه وأعصابه المشدودة، وربّما بسبب ذلك، رمى قذيفة على المواقع الإسرائيليّة، وكان يستعد لوضع القَذيفَة الثانية في المدفع، عندما تنبه مسؤوله زلّوم، فأوقفه، وتَدَخَّلَ لاحقًا كي لا تعقد له مَحكَمة عسكريَّة يمكن أن تعدمه، وتم الاكتفاء بتنزيل رتبته من رقيب أوَّل إلى جُنديّ.

أمَّا أكثر المجازر تأثيرًا بالنسبة لي فهو ما حدث في حوسان ونحالين القريبتين من قريتي، ولي فيهما أقارب ومعارف؛ في المجزرة التي ارتكبتها قُوّات شارون في حوسان، فقدت امرأة من عرب العبيدية متزوجة في قريتنا، شقيقها وابن عمها، كانا من منتسبي الحرس الوطنيّ، وأتذكر كيف انطلقت نساء قريتنا، في موكبٍ حزين نحو منزلها، بعد أن عادت إلى قريتنا عقب تلقيها العزاء في العبيدية، وتجمعن في باحة المَنْزِل، وعلى الأرجح، فإن وجود كلّ هذا العدد من

النِّسَاء المتشحات بالسواد، أعاد دم فقيديها أخضرَ، فوقفت وسط الباحة الصغيرة، وأخذت تلطم، وتدور، ثُمَّ خلعت خِرقتها البيضاء عن رأسها، كاشفة شعرها واستعرت في النواح وهي ترقص «كمذبوحٍ من الألمِ»، وهي عبارة قرأتها في كتاب مدرسيٍّ في الصفوف الابتدائية، أجدها مناسبة لوصف حالة تلك المرأة.

وفجأة مزقت ثوبها لتكشف عن ثدييها، فبدت لوهلةٍ كتماثيل الآلهة عشتار التي نعثر عليها في خربة الخوْخ، وهي ترنو إلى السَّماء وتعاتب الله بمناجاة تقطع القلوب، فأسرعت النِّسَاء إليها ليغطين ما كشفت، وسيقول لي الأستاذ شَرِيف لاحقًا: عشتار تظهر من جديد في قريتنا، لم تتغير تقاليد الفلّاحين الفلسطينيّين منذ أجدادنا الكنعانيين..!

همست النِّسَاء عن التقصير الحكومي في حماية ناسنا، ولكنّه لم يتجاوز الهمس، النّاس كانوا يخشون الحديث عن أيّ شيء سلبي تجاه الحكومة، وأكثر نصيحة كانت متداولة من النِّسَاء لأبنائهن: «كونوا على ثقة بأن للجدران آذانًا، لَا تُخربطوا بالكلام، فيصل المخابرات، فيصلوكم، ويصْلوكمْ «.

نحالين عام 1954م، تسلل جنود الاحتلال إلى القَرْيَة وقتلوا ثمانية وجرحوا أربعة عشر، من بين الشهداء والد زميل لي،

أصابت رصاصة والده فقتلته، بينما مرت رصاصة أخرى من جانبه، وهو ممدد بجانب والده نائمين، فأخطأته، فعاش ألم رصاصتين واحدة أخطأته، وأخرى قتلت والده، صُدف تحدد المصير، وتُورث الألم.

عاشت نحالين، وعشنا ذل القتل، وعار عدم الثأر، والنار لم تتوقف عن الاستعار في صدور النّاس، تنتظر ثقبا لتنفث حممها.

الغضب كان يتراكم لدى ناسنا، حتَّى مَعْرَكة السَّمُّوع عام 1966م، دخل الإسرائيليّون كعادتهم، إلى قَرية السَّمُّوع جنوب الخليل، وهدموا المنازل بالديناميت وقتلوا واحدًا وعشرين مواطنًا، وأسقطوا طائرة للجيش الأُرْدُنِيّ، فتحرك النّاس، خرجوا إلى الشوارع متظاهرين، مطالبين الحكومة بالرد، ولكنَّها لم ترد، فاضت شوارع مدننا بالنَّاس، الذين حثَّوا الحكومة على تسليحهم وتدريبهم، ولكن الجَيْش تدخل لقمعهم فسقط شهداء من الفتية المكبوتين الذين يريدون ثأرًا يبرد نارهم، وبدا للجميع أن الأمرَ هذه المرّة سيكون مختلفًا، وأن الجماهير لن تسكت.

الدُّول العربيّة في معظمها، تعلن غضبها على الْمَلِك حُسين ورئيس وزرائه وصفي التل، لعدم السماح لرجال منظمة

التَّحرير بتجاوز الحدود، لمحاربة إسرائيل.

شاركتُ في المظاهرات التي انطلقت في شوارع بَيْت لحم، ووصلنا مَرْكَز الشُّرْطَة في ساحة المَهْد، التي تشهد دائمًا تظاهرات واحتجاجات، وفيها استشهد الطالب عبد الله تايه، ورفاقه في الخمسينات احتجاجًا على نية الأُرْدُن الانضمام للأحلاف الاستعماريَّة، وتحوّلوا إلى رموزٍ بالنسبة لجيلنا.

عندما اقتربنا من السَّاحة، كان جنود الْبَادِيَة، وقد طَلَوا وجوههم باللون الأسود مستعدين، للقمع والاعتقال وإطلاق النَّار، لم نهبهم وهتفنا:

يا شُقيري... بِدنا سلاح

يا شُقيري... بِدنا نجدد الكفاح

الشُقيري أسس منظمة التَّحرير الفلسطينيّة بالتعاون مع مصر عبد النَّاصِر، التي كانت على عداءٍ مع ملك الأُرْدُن، وأصبح هذا الفلسطينيّ، الَّذي سعى لبعث الْهُوِيَّة الفلسطينيّة من جديد، أملنا.

كنّا نُعزز طلب الشُقيري من الْمَلِك حُسين، بتجنيد شبابنا لمعركة التَّحرير، ولكن الْمَلِك خائف على مملكته من الشُقيري ومن عبد النَّاصِر ومِنا.

تدخل جنود الْبَادِيَة، وضربونا بالهُرِيّ، واعتقلوا عددًا منّا،

ولكنا كنّا نعرف، كما كانت الحكومة تعرف، بأن الأمرَ هذه المرّة لن يوقفه قمع أو اعتقالات، وأنها لن تتمكن من اعتقال كلّ هذه الحشود من الشَّباب، الذين يتحركون هنا وقلوبهم مع آسر القلوب والعقول عبد النَّاصِر رافع شعار: «ما أُخذ بالقوة لن يُسترد بغيرها».

غضب الْمَلِك منّا ومِن عبد النَّاصِر ومِن الشُقيري، ووصف منظمته بأنها الأَدَاة المستخدمة لتدمير الأُرْدُن، ونحن زاد غضبنا من الجَيْش الَّذي بدلاً من أن يحارب العَدُوّ، أو يوقف اعتداءاته علينا، يقمعنا ويجرح ويعتقل ويقتل ويفرق المتظاهرين.

وتباهى رئيس الوزراء وصفي التل متعجرفًا، بعد إخماد المظاهرات في نابلس، بعد قتل ثلاثة من المتظاهرين، بأنه عالج مسألة نابلس للسنوات العشر المقبلة.

قررت الحكومة التي لن تتمكن من اعتقالنا كلنا وقتلنا كلنا، تجنيدنا للمعركة المقبلة الحاسمة مع العَدُوّ، واستدعت مواليد أعوام 45-1948م، للتدريب الإلزامي العَسْكَريّ.

عممت الحكومة من خلال الإذاعة، والمخاتير، على إلزام المكلفين بالاستجابة فورًا، ودَّعتُ امرأتي التي تزوجتها قبل ثلاثة شهور وفي بطنها تنمو الآن بذرتي، وجَدَّتي التي لم تُظهر،

هذه المرّة، كعادتها، عواطفَ جَيَّاشة، كما تفعل لدى دخولي أو خروجي أو غيابي. تصرفت كحكيمة، أوصتني بالصبر، وتحمل التَّدْرِيب، والانتباه، وأكدت ثقتها بي، وبنتائج تربيتها في امتحان الرجولة بين الرجال.

جمعونا في القَشْلِة في القُدْس، وجدتُ أمامي يُوسُف السُرْيانيّ، وتعرفنا على آخرين، وسيصبح أحدهما: ربحي مُهاجِر، ثالثنا، ثالث من سيصبح اسمها شلة الأُنس، ولكن أي أنس في حياة غاضبين قلقين يبحثون لحياتهم عن معنى، ووطنهم يفقد المعاني.

الدورة الأُولَى لتدريب الشَّباب المُحْتَجّ الغاضب بدأت في شهر تشرين ثاني 1966م، وتخرج المُحْتَجّون متدربين في شباط 1967م، وكانوا على أُهْبة الاستعداد لاستدعائهم لمحق اليهود مرّة واحدةً وللأبد، وإرجاع الحقّ لأصحاب الحقّ.

عَيْن الأميرة

أصبحتُ من منتسبي الدورة الثَّانية في شهر آذار 1967م، نقلونا إلى مُعَسْكَر 88 في العُوجا، جمعوا المكلفين من بَيْت لحم، والقُدْس، والخليل، ورام الله في هذا المُعَسْكَر. تدربنا على حمل السلاح، والضرب بالبندقية، وعلى استخدام مدفع الروك لانشر (الروكيت لانشر).

نستيقظ في الخامسة صباحًا، ونركض رهوان وصولاً إلى الميدان الَّذي يبعد نحو كيلو متر، لنتلقى التَّدْرِيب الرَّئيس؛ الوقوف، والمشي، والسلام، ويستمر التَّدْرِيب حتَّى السَّاعَة الحادية عشرة قبل الظهر، حيث توقد شمس الأغوار، الأَرْض حُمَمًا، ويزفر الهواءُ كُراتٍ ناريّة.

بعد شهرين، سُمح لنا بالتدرب على الرِّماية، ولطالما تخيلت جنود العَدُوّ في مرماي، وأنا أرديهم واحدًا عقب آخر، يا لحربٍ تشفي الغليل، غليل شعب مظلوم مشرد.

ومع اقتراب موعد تخرجنا، تدربنا على البروتوكولات المعمول بها في مثل هذه المناسبات، كيف ننتظم، ونصطف، ونحيّ العلم، على وقع السّلام الملكيّ.

كثيرون منّا، لا يثقون بالدولةِ والحكومةِ والملك، مثل ربحي، ولطالما همسوا لنا، بأن الحكومة جمعتنا فقط لكي يفرغوا الشوارع من المتظاهرين، وأنَّ الأمرَ لا يعدو كونه مؤامرة جديدة على شعبنا المسكين. كان ربحي أكثرنا دراية بالأمورِ السياسيّة، وعلى علاقة بنشطاء الأحزاب، ولديه قدرة على صوغ الأفكار في جملٍ واضحة ومباشرة، ولا يكف عن تحريضنا، وتشكيكنا.

وفجأة اختفى ربحي، حدستُ أنا ويُوسُف، بأن صاحبنا الثَّالِث هرب، لم يرغب أن يكون جنديًّا في هذا الجَيْش، استدعانا القَائِد زلّوم، وقال لنا بلهجة آمرة:

-ربحي هرب، والهروب من الخدمة عقوبته الإعدام، ولأنني أعرف ما يجيش في صدره، فإنّني سأجعل باب عودته مواربًا، وعليكما أن تنطلقا بحثًا عنه، وتعيداه بالسرعة الممكنة، وإلّا فسأكون مضطراً للحفاظ على الهيبة العسكريَّة، لاعتقاله وعقابه، وجعله عبرةً في هذه الأيَّام المعتبرة..!

وأضاف بنبرة ساخرة:

-نحن جَيْش، ولسنا في لُعبة بين الحارات..!

انطلقنا عبر وادي اللصم إلى عَيْن سامية، قيل لنا إنَّ المياهَ تغمره في الشِّتَاء، وتلتقي مع عَيْن العُوجا وما يفيض منها

عن حاجة المزارعين ينتهي في نهر الأُرْدُن، كنّا نسير في الوادي من نهايته إلى بدايته، ونتأمل في الأودية الجافة التي تصبُ فيه، علمنا من أَبي متعب أن هذا الوادي لم يعدم الأسماء الكثيرة، فهو يُسمى أَيضًا وادي الحمر، ووادي الحبس، ووادي الجناب، والسمنية، ولعلها أسماء لمقاطع منه، هذا الَّذي يبدأ من السَّفْح الشمالي الشرقي لتل عاصور مرتفعًا 1016م عن سطح البَحْر، ويمضي راسمًا أكواعًا وانعطافات تتلوى ضمن فضاء ضيق، حتَّى يصب في الشَّرِيعة على انخفاض نحو 400 م تحت سطح البَحْر، يا لهول الانحدار، يا لعظمة الهبوط، ماذا تريد الطبيعة، طبيعة بلادنا أن تخبرنا؟

بالنسبة ليوسف السُرْيانيّ، فإن الإنسانَ يتضاءل أمام عظمة الطبيعة، الجبال المرتفعة التي تحيط بالوادي، الَّذي تختفي فيه الحيوانات ما أن تسمع دبيبنا، واضعة الإنسان سيّدًا عليها، ولكنّه لم يفهم هذا الاختيار، فيقتل منها ما يستطيع، ويدوس على أنواعٍ مختلفة من النباتات، ويقتلع منها لحاجته أو بدونها، ولكنَّها تتحايل عليه، قُوَّة حياتها أقوى من قُوَّة مواتها، بعض النباتات تنتشر في البَرِّيَّة بلصق بذورها في أحذية المشاة التي تدوسها، وأخرى تبتعد بأكبر قدرٍ عن الأنقاب والمسارات المطروقة، فتجدد حياتها وتعطي

للوادي ومحيطه ريعانه في الربيع.

تحدثنا عن حيوانات الوادي، وخوف النّاس منها، وخصوصًا من النمر العربيّ، الَّذي شوهد في المكان، ولكنّه سريع التواري. قلتُ ليوسف:

-انظر إلى التلال على جانبي الوادي، يسكنها ثديي عزيز على قلبي، اسمه الفأر الشَّوكيّ الذَّهبيّ..!

*فأر يا يُوسُف؟! وهل فئران بلادنا ذهبية وشَوكيّة؟!

-نعم يا يُوسُف، بخلاف فأر المنازل القذر في منازلنا التعسة، يعيش في الطبيعة الفأر الشَّوكيّ الذَّهبيّ، خرجنا يومًا مع الأستاذ شريف إلى البَرِّيَّة، ووضعنا صيادات الفئران، على بعض الجحور ورششنا أمامها ما تستطيبه الفئران، وفي طريق عودتنا كان أحدها يدخل في الصيادة، أعجبني بلونه وأشواكه، فسمح لي الأستاذ بأن آخذه معي لعل جَدَّتي توافق على احتفاظي به، حنان جَدَّتي علي أنا اللطيم، لا يعرف حدودًا، فسمحت لي بتربية الفأر في المَنْزِل، فأخذت أعود من المدرسة مسرعًا كي أطعمه، وأعتني به، وأخرج به، غير آبه باستخفاف النّاس بالولد الَّذي يربي فأرًا، لأنزهه وأتنزه، فيشم رائحة الطبيعة، وأتجرأ على الدخول إلى حرم دير راهبات الجنة المقفلة، وأريه لهن، وشاركتني

الاهتمام به راهبة هنديّة صغيرة. كبر الفأر وتغير شكله من وفرة الطعام، سمن وكبرت عيناه وتدلت بطنه، ولم نكن ندري ونحن نغذيه، أننا نفعل ذلك من أجل قط متوحش، سيسرقه وهو في قفصه، ليختفي، تاركًا أثرًا فيَّ حتَّى الآن، لقد كان أنيسًا للولد الوحيد الَّذي كنته.

ضحك يُوسُف قائلاً:

*حتَّى الآن يا يُوسُف لم تنسَ الفأر؟!

-والغريب أنّه بدا يلح عليَّ في هذه الأيَّام، ويأتي حاملاً أحلام اليقظة..!

تصنع يُوسُف لهجة خطابية أرادها ساخرة:

*أحلام اليقظة، إشباع تعويضيّ لرغبات مكبوتة أو محبَطة عن طريق الانغماس في الخيالات، وتنشأ نتيجة لنقص انتباه الشّخص للحياة فينسى الحاضرَ ويفقد صلته بالواقع، أيها الجندي المنغمس عليك الخروج من انغماسك، والدخول في انغماسنا الوطنيّ الجمعي..!

-أنا منغمس معكم يا صديقي، ولكن ماذا أفعل؟ تبًا للرغبات المكبوتة والمحبطة والخيالات..!

من عَيْن سامية تشرب رام الله وقرى كثيرة، وإلى الغرب منها ينتصب تَلّ العاصور المهيب، الَّذي يحتضن عدة قرى.

وكلّ ما اقتربنا من العَيْن نعاين الهبوط العظيم من التلِ إلى العَيْن. عندما وصلنا مشتل زراعي قرب العَيْن، سألنا عن ربحي، رحب بنا شاب، وأجلسنا تحت شجرة وارفة، وذهب لإحضار الشَّاي.

يبدو أن ربحي معروف هنا بأكثر مما توقعنا. طال غياب الشَّابّ، وعندما عاد كان برفقته رجل مسن يضع على كتفيه عباءة، ذو وجه أسمر يُبرز عينين حادتين، وعندما اقترب منّا رحب بحرارة بضيفيه وضيفي ابنه ربحي.

قال محاولاً قطع أي حديث، بأننا سنتغدى معه، وقَرَّرَ بأن هذه الدَّعْوَة التي تجعل الضَّيْف أسيرًا للمُضيف في العُرْف الفلسطينيّ، تمنحه الحقّ في تأجيل الحديث عن ربحي، وقد حدس مهمتنا.

قال أَبو ربحي متأففًا، بأن العَيْن لم تعد كما كانت قبل أن تُسحب مياهها لمصلحة سُلْطَة مياه محافظة القُدْس، فهي تظل الآن شبه جافة، إلّا في أشهر الشّتَاء، وحكى لنا عن الأُسطورة التي يتداولها النّاس لاسم العَيْن، وهي أنّها تعود لسامية ابنة الخليفة الأمويّ سُلَيْمان بن عبد الْمَلِك، ويقال بأنها كانت تعاني من مرضٍ وشُفيت بالاستحمام في مياه هذه العَيْن، التي تدعى أَيضًا عَيْن الأميرة سامية، وأحيانًا

يستبدل نسب الأميرة سامية هذه، فتصبح ابنة الخليفة هشام بن عبد الْمَلِك، ويشجع على ذلك وجود قناة يقال بأنها حملت المياه من هنا إلى قصر هشام الأمويّ في أريحا، وإذا تأكد علماء الآثار بأن القَصْر يعود للخليفة الوليد، ربَّما سيجيء جيل يجعل سامية ابنته.

ابتسم أَبو ربحي وهو يروي لنا عن عظمة العَيْن عندما كانت تحمل اسم أميرة وحالها الآن، مشيرًا بيده لقنوات قديمة ومواقع قال إنّها تعود لحضارات قديمة، قديمة جدًا.

وبدأ يروي: «جاء علماء الآثار إلى هنا وعمل معهم آباؤنا وعملنا نحن الأبناء أَيضًا، وأخبرونا، بأن عمر العَيْن لا يقل عن سبعة آلاف عام، ومرت عليها أمم: الكنعانيون، والآراميون، والحثيون، والعبرانيون، والرومانيون، والبيزنطيون، والمسلمون، وتل العاصور يشهد، هذا التل اسمه أصلاً بعل حاصور، قد يكون موقع لعبادة الإله بعل، إله الأمطار، الَّذي يُحي الأراضي ويمنحنا ثمار النباتات البعلية».

بعد أن شربنا الشَّاي الَّذي أعده الشَّابّ، حاولنا السؤال عن ربحي، ولكن والده صدنا:

-بعد الغداء..!

وطلب منّا السير نحو رأس العِدّ، أي المكان الَّذي تنبع منه

العَيْن، وقال بأن شجرة بُطْم كبيرة، كانت تنتصب بجوار العَيْن، يجلس في ظلها الأهالي ويسهرون، ويعتبرونها حارسة للعَيْن لا تغفل عنها لحظة واحدة، ويُضرب بها المثل لمن يعاني من الأَرَق، فيقول المسهد: «إذا عَيْن سامية نامت، عيني نامت تلك اللَّيْلَة».

ولكن تَغَيَّرَ كلّ شيء، بعد سحب مياه العَيْن، وصعد المؤذن الشَّيْخ (أَبو يُوسُف) على سطح الْمَسْجِد لينعي للناس موت البُطْمة بسبب قلة الماء، وقلد أَبو ربحي صوت الشَّيْخ الناعي: «سبحان الله العظيم، سبحان مالك الملك والملكوت، سبحان الحيّ الَّذي لا يموت ..يا سامعين الصَّوْت، صلوا على النَّبِيّ، اليَوْم سقطت البُطْمة، اليَوْم سقطت البُطمة، اليَوْم سقطت البُطْمة ..إنا لله وإنا إليه راجعون..».

تم حفر بئر عَيْن سامية بالأيدي، كما ذكر أَبو ربحي، لتزويد رام الله وقرى أخرى بالمياه، وافتتح البئر الْمَلِك حُسين، وأحدث ذلك نقلة حضارية كبرى في حياة أهالي مدينتي رام الله والبيرة الذين كانوا يعتمدون بصورة كاملة تقريبا في تأمين مياه الشرب على جمع مياه الأمطار وتخزينها في الآبار، إلى جانب اعتمادهم على بعض الينابيع المحليّة.

دار بنا أَبو ربحي على معالم المِنْطَقَة المحيطة بالعَيْن، مِن التي

سمّاها الكنيسة البيزنطيّة، والقناة الرومانيّة، والتي نُقلت المياه عبرها إلى ما يطلق عليه الطاحونة، وتتبعنا مسار القَنَاة التي تتخذ أكثر من شكل وصولاً إلى الطاحونة، وبقايا النظام المائي الَّذي شغلها.

وإلى الشمالِ من العَيْن، شاهدنا في إحدى المغر الكبيرة، حجري رحا كبيرين، استخدما على الأرجح كمعصرةٍ للزَّيْتُون ، في النظام الَّذي عُرف في فِلَسْطِين باسم البَدّ.

وإلى الشرقِ من العَيْن، يوجد بقايا بناء، يطلق عليه الأهالي دار القاضي، نسبة إلى قاضٍ مجهول كان يحكم في فترةٍ ما، ويوجد أسفل المَنْزِل غرفة أو أكثر اعتبرها أَبو ربحي سجنًا كانت تنفذ فيه أحكام هذا القاضي.

تمتم أَبو ربحي: «يا قاضي احكم بالعدل، ولكن أين هو العدل؟ لو نطقت الأَرْض، لقالت الكثير عن جَوْر من حكموها، وتجبروا بناسها».

حدثنا أَبو ربحي عن معاناة الفلّاحين مع ضرائب الحكومات الباهظة، ورجالها الظالمين، وكيف كانوا يخفرون الفلّاحين غير القادرين على تسديد متطلبات الحكومة إلى القُدْس مقيدين بعروق البِطّيخ اللَّيْنَة، لمزيد من الإهانة والإذلال، ومن يجرؤ على فك رباطه في الطَّريق مشيًا إلى القُدْس،

يعرف ما ينتظره.

اعتقدنا بأننا انتهينا من هذه الجولة السياحيّة الإجباريّة، ولكننا عجزنا على قول لا لأبي ربحي، احترامًا لسنه، ولصديقنا، ولأنه بدا أنّه أملنا الوحيد في إتمام مهمتنا.

قال أَبو ربحي:

-أنتما لم تريا شيئًا بعد..!

واصطحبنا إلى ما سمّاها منطقة القبور الكنعانيّة والإسرائيلية المنتشرة بشكل كبير، وأذهلتنا التقنية المستخدمة في حفرها كما شرحها أَبو ربحي الَّذي بدا لنا وكأنَّه يهدف إلى تأخير مهمتنا.

قال لنا بأنه يوجد أكثر من 150 قبرًا حُفرت في الصخور، لكل قبر فتحة عمودية، تشبه فتحة البئر، عمقها ما بين 1.2 إلى 3 متر، ثُمَّ له مدخل ضيق، يؤدي إلى غرفة أو مجموعة غرف، ومجموعة من اللحود أو النَوَاوِيس.

قال أَبو ربحي:

- تبدو القبور مرتبطة مع بعضها وكأنّها مدينة تحت الأَرْض، لقد خرب الباحثون عن الكنوز الكثير.

وعندما استفسرت منه عن ماهية الكنوز، قال:

-عندما كان أحد أجدادنا الكنعانيين يُدفن، يرسلون

معه متعلقات، ومرفقات جنائزية مثل الأسلحة، والخرز والفخار، والسُرج، والأقداح.

تمنيتُ لو أن الأستاذ شَرِيف معنا، لشغف بما رأى وسمع، ولقال الكثير عنها. أتذكر حماسة الأستاذ عندما كان يقرّر إعطائنا الحصة على خربة الخوْخ المرتفعة والمطلة على القَرْيَة، ويطلقنا على التلّة نستكشف القبور والآبار والأحواض، ونعود لنقدم تقريرًا مبسطًا شفويًا عمّا شاهدنا وشهدنا، ويتدخل الأستاذ ليكون الكلام منظمًا، ولكن برفق ومراعاة لشهية الكلام التي نكتشفها في أنفسنا، ويختتم الدرس، بإخراج الكمان من جرابه، ووضع نهايته على صدغه، وحمل القَوْس، ليرتطم بحسابٍ على الأوتار، بينما نحن نتحلق حول الأستاذ بحماسة التلاميذ اتجاه هذا الأستاذ المختلف.

انتبهت لأبي ربحي وهو يتحدَّث:

-يتطابق حفر هذه القبور المعقدة، مع طرق الدفن المعروفة لدى الكنعانيين، ثُمَّ لدى الإسرائيليّين الذين طوروا عقيدة دينية عن الكنعانيّة، هكذا فهمنا من العلماء الحفّارين هنا، ويظهر الاختلاف بين قبور الفترتين من خلال أنواع الفَخَّار التي يُعثر عليه داخل القبور، ويعثر المنقبون غير الشرعيين على

لُقًى أخرى من بينها تماثيل للآلهة الأم، وتماثيل لشخصيات من الرِجال، والحيوانات، وجميعها تجد طريقها إلى تجار يهربونها إلى الخارج.

مع تقدم الوَقْت، كان لا بد أن نحسم الأمر مع أبي ربحي، وتركت الحديث ليوسف السُرْيانيّ:

*يا والدي، أنت تعرف بأننا مأمورون، وعلينا لقاء ربحي بسرعة، نريد أن نتحدث معه وسيكون ذلك أفضل بوجودك..!

ردّ أَبو ربحي وكأنَّه كان متوقعًا السؤال:

-لا تستعجل قدرك يا ولدي، كلّ شيء بوقته جيد..!

ومشى أمامنا بضعة أمتار ووقف بالقرب من فتحة قبر، وتحدث بكلمات لم نفهمها وكأنّها رموز للتخاطب، وسمعنا صوتًا مخنوقًا يأتي من أسفل، قدرت أنا ويُوسُف من خلال التخاطب بلغة العيون، بأنه قد يكون صوت ربحي، أو هكذا آملنا.

ثُمَّ اصطحبنا أَبو ربحي لمنزله لتناول الغداء قائلاً:

-سيكون ربحي في انتظارنا..!

الكَأْس الفِضَّية

عندما وصلنا المَنْزِل، أصرّ أَبو ربحي علينا أن ندخل قبله من الباب، متحليًا بلياقة الضيافة المحليّة، ثُمَّ تقدمنا ليدلنا على الغُرْفة التي سنجلس فيها، وعندما دخلنا رأينا ربحي يجلس مُبتسمًا مُرحبًا:

-لقد تأخرتما، أنتظركما منذ فترة..!

نظرتُ إلى يُوسُف، ويبدو أنّه كان لديه نفس شعوري، بأن ربحي يكذب، لأننا خلنا بأننا تركناه خلفنا في مدينة القبور تحت الأَرْض تلك.

قلتُ:

-أنت تعلم يا ربحي بأنك شقيقنا الثَّالِث، وتعلم كم نحبك ونقدرك، وعليك أن تعود معنا..!

قال يُوسُف السُرْيانيّ:

-لدينا رسالة لك من القَائِد زلّوم، سيتغاضى عن هروبك، إذا عُدتَ معنا، وكأنك يا دار ما دخلك شرّ..!

لم نتوقع أن يلين ربحي بسهولة:

-اسمعا أنا لا أثق بهذا الجَيْش، من باعنا مرّة، سيبيع ما تبقى من فِلَسْطِين مرّات، سأعود معكما لنكون معًا، لنبحث عن حلولٍ أخرى، لم يجندونا لنقاتل، وإنما ليغلوا أيدينا..!

وأضاف بينما ترتسم على وجهه ابتسامة:

-لدي شرط أرجو أن تستجيب له يا يُوسُف..!

*شرط؟ اشرط وسأستجيب..!

-كيف وأنت وحيد والديك تمكَّنت من دخول الجَيْش، المعروف أن الوحيد يعفى من الخدمة..!

ضحكت وأنا أبوح بسري:

*أنا لست مثلك يا ربحي أهرب من الجَيْش، حماستي وإيماني بما نحن مقبلون عليه، جعلني أرشي شيخ المسجد في قريتنا، لكي يتأكد من خلال علاقاته مع قادة الجَيْش المحليين، من وضع اسمي ضمن المطلوبين للخدمة، وفعل ذلك وهو يشيد بي كمجاهدٍ مقبل غير مدبر في سبيل الله..! وعندما علمت جَدَّتي استفزت وقالت لي بأن أسلافي أُعفوا من الخدمة العسكرية أيَّام العثمانيين، لحراستهم للقنوات التي تحمل المياه إلى القدس، وفي زمنٍ لاحق عندما خسروا هذا الامتياز، بحثوا عن مبررات لعدم الذهاب إلى العسكرية فتزوج كثير منهم نساءً من خارج القرية، ليستفيدوا من قانون

جديد يعفي الذي يتزوج من غريبة من الخدمة العسكرية، ووصفتني بالمجنون، الذي يذهب إلى النار طائعًا..!

*ولمن ترك رجال إرطاس نساء إرطاس عندما تزوجوا من غريبات؟

-من الغريب أن رجال قريتنا كانوا أكثر من النساء، ورأوا في أنفسهم الوسامة والقوة، وأعادوا ذلك إلى شربهم من عَيْن إرطاس، وحسب جَدَّتي فإنها سبب كثرة الرجال وحسنهم وقوتهم، فهي ماء ذكوري، وهناك عيون ماء في قرى أخرى تكون أنثوية، تعطي حُسنا للنساء، في إرطاس أخذ الرجال حُسن النساء، ومدّوا أعناقهم إلى نساء عيون الماء الأنثوية..!

ضحكنا، وسألني والد ربحي:

-وماذا قدمت للشيخ الدجّال؟

*ليس بالشيء المهم، الرجل طيب..هههههه، وقدَّر وطنيّتي، ولم يكن معي سوى ثلاثة دنانير هي ما توفر لي حينها، قبلها برضى، بل إنّه قبلها وهو يتمتم بأنها رزق أتاه من الله الَّذي يستحق الشكر دائما، إضافة إلى ثواب تيسير الجهاد لشخصي المتواضع..!

ضحك الجميع، بينما وقف ربحي ليعلن وكأنه يخاطب جمعًا:

-سأعود معكما إلى جيشنا العظيم المظفر، هيا يا قوم افرحوا..!

ارتحنا لسماع قرار ربحي، وأشدنا به بنفس طريقته الحماسية، ولكنّه بدا أكثر اهتمامًا بشيء آخر، أخرج من جيبه شيئًا وناوله لي وطلب أن أمرره ليوسف السُرْيانيّ:

-انظرا..! كأس فِضيَّة، فريدة مِن نوعها، تعود لأجدادنا الكنعانيين، عثر عليها صائد كنوز قبل عامين، وعندما مرّ بالقرب من عَيْن سامية، وكنت هناك، فتى متيمًا بالعَيْن، أراها لي نشوانا بنصر العثور عليها، مشيرًا إلى أنّها ستدر عليه الكثير من النقود، وسيتسابق تجار الآثار لشرائها، لتستقر في النهاية في أحد متاحف العالم، تصديتُ له، وخلصت الكَأْس منه، وسددت له ضربة في وجهه، وأمرته بالهروب دون أن ينظر خلفه، وأنا أرشقه بالحجارة..!

علق يُوسُف السُرْيانيّ:

-داود آخر يهزم جوليات..!!

روى ربحي، أنّه رغم عمره الصغير مقارنة بالرجل الكبير، إلّا أنَّ مرأى الكَأْس مدَّه بقُوَّةٍ جعلته يهزم ما سماه السارق، وأصبح هَمّ ربحي، في كيفية حماية الكَأْس حتَّى لا تضيع مرّة أخرى، وقبل التحاقه بالجيش، قرّر أنَّ أفضل مكان لتخبئتها، إعادتها إلى القبور، وحفظها هناك في مكانٍ لن

يصل إليه إلّا هو، وعندما علم بقدومنا، نزل إلى القبور ليسترجعها، وليجعلها معه في الأيَّام المقبلة التي لا يعرف كنهها إلّا رَبّ العالمين، حتَّى لا تضيع وتنتهي قطعة فسيفساء أخرى من تاريخنا.

بدا لنا الأمر غريبًا علينا، ونحن نرى ربحي يستعيد الكَأْس من أيدينا ويقول:

-انظرا إنّها كأس من الفِضَّة الخالصة المبهرة النَّقيَّة، واحدة من المتعلقات الجنائزية لأحد أجدادنا، وُجدت مع أكواب الفَخَّار وحَبَّات العقيق، والأسلحة، التي نهبها السارق. جزءٌ من الكَأْس مكسور، وإذا أُودعت كذلك في المقبرة، أي بعد كسرها، فإنها تختلف عن باقي الأدوات الأخرى، التي ربَّما خُصصت للاستخدام مِن قِبَل المتوفي في العالم الآخر، لا شك أنّها حظيت بمكانةٍ لديه فوضعت معه. اُنظرا للنقوش الأسطوريّة عليها، الجزء السفلي من الكَأْس يحوي التصميمات الهندسيّة التي تُشكل خَطّ الأساس للمشهدين المنقوشين في الأعلى، أحدهما يُصور شخصية لها وجهين ذات جسم بشري، بذراعين ممدودتين إلى الشمال واليمين. أمَّا الرِجلين فهما لاثنين من الحيوانات، وعلى الأغلب الثيران، بشكل يذكر بتماثيل الثيران البابلية ذات الوجوه البَشَرِيَّة، وبين الرِجلين دائرة فيها سِتّ تشكيلات هندسيّة تحيط بدائرة

صغيرة في وسطها نقطة، ويحمل هذا المخلوق الأسطوريّ في كلِّ يدٍ باقة مِن النبات تنتهي بمثلث مدبب مما يشير إلى كونه حربة، ويقرّب ما يحمله في يده اليُسْرَى من رأس تِنّين يقف على ذيله، وله رأس ضخمة تشبه رأس أفعى، ولا شك لدي بوجود نقش لِتنّين آخر مقابله على الجهة اليُسْرَى ولكنّه مفقود بسبب الكسر.

والمشهد الثَّانِي يمثل شخصين، يمسك كلّ منهما بطرف هلال محمولاً عليه دائرة تمثل الشَّمْس، مكونة من اثني عشرة تشكيلاً هندسيًا تحيط بوجه إنساني عابس، وتحت الهلال، ثعبان ضخم أو تِنّين جعله الفنان الكنعانيّ يقف ويمدد نفسه مقتربًا من نتوء في الشَّخص الثَّانِي صعب تحديده.

تمكَّن ربحي من أسرنا بحديثه، واقترحت أن نعرض الكَأْس على الأستاذ شَرِيف في قريتنا، وأنا كلي ثقة بأنه سيقول الكثير عنها، وهذا ما اتفقنا عليه، ونحن نستعد للعودة إلى المُعَسْكَر ومعنا ثالثنا ربحي، الذي سميناه بعد اكتشافنا ولعه بتاريخ الشرق القديم، جلجامش..!

بدا القَائد زلّوم راضيًا عن نجاح مهمتنا، بإعادة ربحي إلى المُعَسْكَر، وعندما استقبلنا في مكتبه، تَحَدَّث بشكلٍ وُدّي، ولكنّه قال بأنه سيرى ربحي لاحقًا وسيكون له

معه حديث، مؤكّدًا على ألّا نتحدث أبدًا عن هروب ربحي وعودته لأي أحد.

وبعد أيَّام، كنّا ثلاثتنا في طريقنا إلى إرطاس للقاء الأستاذ شَرِيف، تغدينا في منزلي، مما أعدته لنا جَدَّتي وزوجتي، واعتذر الأستاذ شَرِيف عن تناول الغداء معنا، واتفقنا أن نلتقيه عصرًا على عَيْن إرطاس، وهو ما حدث. قدمت له يُوسُف وربحي ممهدًا الحديث عن الكَأْس، فتلهف لرؤيتها عندما علم بأن ربحي يحملها، تمعن الأستاذ شَرِيف كما توقعت في الكَأْس وقلبها بحبٍ ودهشة، وهو يتمتم بعبارات حماسية كما كان يفعل وهو ينتقل بنا من الغُرْفة الصفيّة إلى العَيْن أو الوادي، يحدثنا عن تاريخ قريتنا، الَّذي يعرفه الأجانب الذين سكنوا فيها أكثر منّا، وهذا ما لا يجب، كما يرى الأستاذ، وأنه علينا نحن أن نعرف على الأقل ما يعرفونه.

طلب الأستاذ شَرِيف من ربحي أن يترك الكَأْس لديه حتَّى يتمكّن من إعادة رسم الرموز، ولكن ربحي اعتذر بأدبٍ، ووافق على اقتراح الأستاذ بتصويرها، فانتقلنا إلى صومعة الأستاذ شَرِيف كما يسميها، فوق العَيْن، وهي عبارة عن غرفة مبنية من الحجر عاشت فيها لويزة بالدنسبرغر، التي عُرفت في قريتنا بالسِّتّ لويزة، وعاشت بين الأهالي، مَحبوبة، مُقدرة.

السِتّ لويزة هي ابنة رجل ألزاسي يدعى هنري بالدنسبرغر، جاء إلى القُدْس كمبشرٍ للدين المسيحيّ خصوصًا بين اليهود، مع مجموعة أخرى من الأوروبيين الذين ألهمتهم التقاليد التي تعود إلى عهد الإنجيل في بلادنا كما اكتشفوها وأحبوها. اشترى أرضًا في إرطاس في عام 1848م، وبدأ يعمل في الأَرْض مشبعًا بالروح الإيمانية المسيحيَّة، وبعد عامين انضمت زوجته إليه، وكان أمله أن يصبح أولاده مزارعين في الأَرْض المُقَدَّسَة، يا له من أمل وإيمان. لويزة التي ولدت في القُدْس سنة 1862م، استقرت نهائياً في إرطاس، وعاشت فيها لأكثر من ثلاثين سنة في هذا البيت، تحلم بقصص الكتاب المُقَدَّس، وتعيش الثقافة الفلسطينيّة، وتهتم بحضارة شعب فِلَسْطِين مثل جميع أفراد عائلتها. شقيقها فيليب، كتب عن ناس قريتنا والفلاحين الفلسطينيّين في كتابه (الشرق الراسخ) الَّذي صدر في عام 1913م، وتوصل إلى نتيجة أن شرقنا لا يتزحزح، والتقاليد فيه لا تتغير، كما هي حياة الفلّاح الصعبة والقاسية، أمَّا شقيقها الآخر إميل، فلقد أصبح مربي نحل متجول في فِلَسْطِين وجمع الأمثال والتراث الشعبيّ، وفي الواقع هو أوَّل من أدخل هذا النوع من تربية النحل في بلادنا؛ الخلايا المتنقلة. كان يفتش عن نباتات لإنتاج العسل، فينقل خلاياه من مكانٍ إلى

آخر. مِن يافا بعد انطفاء أزهار البرتقال، إلى الرملة لتتذوق النحلات طعم زهور الصبّار، وإلى باب الواد جريًا خلف النعنع، ثُمَّ يطير بخلاته إلى غزة باحثًا عن السَّنْط البَرّيّ.

كانت السِتّ لويزة تحصل على لُقْمَة عيشها بصنع مجموعات من البطاقات تلصق عليها زهورًا بَرّيّة مجففة من أرضنا المُقَدَّسَة، ذُكرت في الكتاب الْمُقَدَّس، تُسوقها للأجانب والسياح والحجاج الذين يأتون إلى بَيْت لحم والقُدْس، وعاشت حياة بسيطة في إرطاس قريبة من ناسنا الذين أحبوها واحترموها، تحضر أفراحهم وأعراسهم، وتشاركهم أحزانهم. لقد قدروا ظرفها وخفة دمها، وكان وجودها دائمًا مصدرًا للمرح وروح المداعبة، وشاركت النّاس في قريتنا ما سمّاها الأستاذ شَرِيف عمليات التبادل الاقتصادية، وكانت تعطي العسل الَّذي يرسله لها أخوها إميل، إلى ناسنا لتقوية مرضاهم وللأطفال حديثي الولادة.

وإذا كان لدى ناسنا الاستعداد للخلاف والاختلاف وافتعال المشاكل والطوش بينهم، فإنها كانت بالنسبة لهم فوق ذلك كلّه، نوعًا من الألق الَّذي حرصوا على بقائه مشعًا، خارج دوائر تناقضاتهم ومعضلاتهم.

جمعت السِتّ لويزة حكايات قريتنا، وأصدرتها في كتاب،

وعندما زارتها في يومٍ جريس كروفت، صادف دخول جَدَّتي الطفلة إلى السِتّ لويزة مسرعة وهي تحمل باقة من المرمية، وقدمتها للسِّتّ لويزة وهي تتمتم عن مباركة سِتّنا مريم للنبتة العطرية النفاذة، فسماها ناسنا مرمية، وأوحى ذلك للغريبتين بجمع ما يمكنهن جمعه من فلكلور النبات في قريتنا وفي فِلَسْطِين، وصدر كتابهما من (الأرز إلى الزوفا) عام 1931م.

وعندما وصلت الطالبة الفنلندية هيلما غرانفكست، التي سيسميها ناسنا السِتّ حَلِيمَة، إلى إرطاس، سكنت عند السِتّ لويزة في هذا المَنْزِل الَّذي تشمخ أمامه شجرة الفُلْفُل الغريبة الضخمة النادرة، التي لا تعرف جَدَّتي بالضبط من التي زرعتها لويزة أَمْ حَلِيمَة أَمْ الأجيال الأُولَى من الْغُرَبَاء الذين استقروا في قريتنا. أُحضرت الشجرة، على الأرجح، كشتلة من الخارج، وكان من حظ هذه الشجرة أن جذورها تمتد إلى أكثر من عشرة أمتار وصولاً إلى عَيْن القَرْيَة، وهذا ما ساعدها على البقاء، والنمو والتعالي.

والآن يعيش الأستاذ شَرِيف هنا يتشمم روائح لويزة وحليمة ومن مكث معهن أو زارهن، وهو يعيش كدرويشٍ متيم بإرطاس وتاريخها، منذ أن عاد من بيروت بعد إنهائه لدراسته في الجامعة الأميركيّة، وعمل مدرسًا للتاريخ في

عدة مدارس حتَّى استقر في مدرسة القَرْيَة، ويكاد يكون الرَّجُل الوحيد في قريتنا الَّذي ينطبق عليه وصف من فاته قطار الزواج، ويقال بأنه عاش قِصّة حُبّ في بيروت لم تكتمل لأسبابٍ مجهولة، ومن يؤكد على هذه الفرضية، شُبَّان من القَرْيَة رأوا فتاته المفترضة تأتي إلى إرطاس في عيد العَذْرَاء، وتسأل عنه، وشوهدا معًا يتحدثان في يوم الاحتفال، ويضحكان، حتَّى غادرت مع الحافلة التي أتت من لبنان للمشاركة في الاحتفال الَّذي تنظمه راهبات دير الجَنَّة المقفلة، المقام على سفح جبل (أَبو زيد)، مقابل منازل قريتنا، ولم تعد بعد ذلك.

الأستاذ شَرِيف يتجنّب الحديث عن عدم زواجه، رغم علمه بالفضول الَّذي يكاد يقتل ناسّ القَرْيَة، وغرق في بحوثه حول إرطاس، وشغل نفسه بعزفه على الكمان، ولم يكن يمانع العزف في الأعراس، أو مشاركة من يأتون إلى قريتنا متنزهين فرحين بالعزف لهم بالقرب من العَيْن أو بِرك سُلَيْمان، أو عند أي من عيون القَرْيَة.

تناول الأستاذ كاميرا معلقة على أحد جدران الغُرْفة، وخرجنا خلفه إلى تحت شجرة الفُلْفُل، والتقط بكامل الفيلم في كاميرته صورًا للكأس، واعدًا بأنه سيخبرنا بنتائج بحثه، وأنا ويوسف فرحان لفرح جلجامش عصرنا الحديث.

طلب منّي الأستاذ أن آتيه بآلة الكمان من داخل الغرفة، وعندما بدأ العزف، حلق بنا إلى عوالم كادت تنسينا عوالمنا التي تنتظرنا.

لم نستطع أن نتأخر على الجَيْش، فغادرنا ثلاثتنا، بعد أن اختلست وقتًا لتوديع زوجتي وجدتي، على أملٍ أن نلتقي الأستاذ شَرِيف بعد النَّصْر المؤزر.

النُّور الْمُقَدَّس

في ظل أجواء البلاد الملبدة بغيوم الحرب، منحنا القَائِد زلّوم أنا ويوسف السرياني إجازة لمدة يومين، بمناسبة عيد الفصح، في إماءة تقدير لنجاحنا بإعادة ربحي إلى الجَيْش. اتفقت مع يُوسُف على اللقاء في بداية شارع النَّجْمَة، عند مفرق العمل الكاثوليك عصر سبت النُّور، سيكون هو مع جزء من كشَّافة السُريان في كَنيسة القيامة بالقُدْس، سيجلبون النُّور الْمُقَدَّس حال بزوغه، ويسرعون إلى بَيْت لحم، مثلما يسرع آخرون بنور القُدْس إلى بلدان أخرى كاليونان وقبرص، ليبدأوا ما يصفونه بالهجمة.

قال لي يُوسُف:

-سأريك الهَجْمَة على أصولها، هَجْمَة ناسنا وانفعالاتهم وفرحنا، ليت جيشنا يتمتع بهجمات مثل هجمتنا..!

عندما وصلتُ المفرق، وجدتُ جمهورًا كبيرًا ينتظر، بينما تتعالى أصوات إيقاعات الدُّفوف والطُبُول، أخبرني يُوسُف خلال خدمتنا في الجَيْش، عن دور كشَّافة السُريان المهم في الاحتفالات الشعبيّة بالنُّورِ الْمُقَدَّس، والتي تتحول إلى

كرنفال شرقيّ، بالسيّد المسيح الَّذي وطأ الموتَ بالموتِ.
تبينت الأستاذ شَرِيف بين الجموع، يحمل كاميرا، ويوثق الأغاني والأهازيج، اقتربت منه وصافحته، وخرجنا من بين النّاس لنراقبهم، واستمعت لتحليلات الأستاذ حول رموز الأعياد الدينية الفلسطينيّة التي تعبر عن مواسم الزِّراعة، وبرأيه أن هذا الاحتفال هو امتداد لاحتفال الأسلاف بانبعاث أدونيس، وقال لي:
-انظر كيف يكون الانبعاث؛ الوجوه المشرقة، التخفف من الملابس، رفع الأطفال على الأكتاف، الرَّقْص، والتمايل، يا له من انبعاث وفرح بالربيع.
حاول المنتظرون للنُّور الْمُقَدَّس، نافذوا الصبر إشغال أنفسهم، بما تقدمه فرق الكشّافة التي تدور حول تمثال كبير للعذراء يتوسط ساحة المفرق، ولكن ذلك لم يخفف من شُعلَة الحماس المتقدة لديهم. خصوصًا وأن أعضاء الكشّافة هم أَيضًا متحمسين لوصول النُّور، وأرادوا فقط تبديد توتر الانتظار. ينتبه الجميع لشباب يحملون الصُلْبان والسيوف محمولين على الأكتاف يهتفون بحماسةٍ كبيرة:

هييهييهييه

شبيبة مسيحيّة

ديه ديه ديه
شبيبة مسيحيّة
يُعتبر سبت النُّور بالنسبة للمسيحيين الشرقيين، الَّذي يسبق الفصح المجيد، المناسبة الأهم، لذا فإنهم ينفردون بعمل زَفَّة له، يستحضرون فيها كل الإرث الشعبي، وتقاليد الاحتفال بالربيع في الشرق القديم.
امتدت أعداد المؤمنين المنتظرين على طول شارع النَّجْمَة، إلى ساحة كَنيسة المَهْد، وما إن وصلت الحافلة التي تقل الآتين من القُدْس، ومعهم النُّور، حتَّى انطلقت الزغاريد وسط الجمع المحتشد، وتوجهت الأنظار خصوصًا للنساءِ اللواتي ما زلن يحافظن على الطابع الشعبيِّ لسبت النُّور:
واحنا شباب مسيحيّة
والواحد يسوى مِيّة
انتظمت فرقة الكشّافة التابعة للرّوم الأرثوذكس وأمامها كشَّافة السُريان، وخلفهما مركبة مزينة بسعف النخل، فسيّارة ثانية مفتوح صندوقها الخلفي ويطل منه صليب مُزين بالورود، ولكن هذا لم يكن هو ما يثير الجمهور الَّذي يعلم ما ينتظره في مثل هذه المناسبة.
وما إن ظهر شُبَّان يحملون السُّيُوف، والصُلبان، يعتلون

أكتاف زملاء آخرين، حتَّى بدأت الزَّفَّة الحقيقية للنُّور، لقد بدأت الهَجْمَة، تبينت يُوسُف بلباسه الكشفي بينهم، ولا أعرف كيف ظهر فجأة، وأخذ الجمع يرددون خلفه وهو يلوح بسيفٍ، ومعه رفاقه مستذكرين المسيح، والعذراء مريم، والخضر الأخضر:

يا عذرا عليك السّلام
في أي ساعة من الزمان
يلعن أبو اللي ما بصيح
عيدنا.. عيد المسيح

**

ليكي ليكي ليكي
وهذا النُّور جايٍّ عليكي

**

كرمال البتولية
بالطول بالعرض
مسيحيِّة تهد الأَرْض

**

دقوا الرمح بعود الزين

وانتوا يا شباب منين
واحنا شباب مسيحيّة
كل واحد بسوى مِيّة
**
ملعون اللي ما بصيح
دينا دين المسيح
وهذه العادة عادتنا
وما بنغير عادتنا

وكما يحدث في الأعراس الشعبيّة، فإن مخزون الغناء التراثي الَّذي يتميز بالتمجيد، والمفاخرة، والتهديد لإظهار القوة، كان حاضرًا:

شرقيّة ..شرقيّة..شرقيّة
لا يهودي ولا غيره
مسيحي قالع عينه
**
شبيبة مسيحيّة
كل واحد بسوى ألف ومِيّة
**

بالطول بالعرض
مسيحيّة بنهز الأَرْض

**

يا عذرا يا ام العذارى
بوجودك نوّرَت الحارة
وحارتك حارة النصارى

وعندما تعب المحمولون، ظهر آخرون مكانهم، وصلتُ إلى يُوسُف وسلمت عليه، وهنأته بالعيد، واستفسرت منه عن أجواء العيد في القُدْس. توقف الركب بعد مسيرة أمتار، وظَلَّ المحمولون على الأكتاف يلوحون بالشموعِ والصُلبانِ والسُّيُوف، وتوسعت الحلقة أسفلهم، يتراكض فيها اثنان من حملة السُّيُوف وهما يلوحان ويفتخران بالمسيح، والعذراء، ويستذكران، ما فعله اليهود بالمسيح:

ديه ديه ديه
كِرمال العذرا البتولية

**

والمسيح فدانا
بينهم ثلاث صلبان

واحد منهم للمسيح

**

يا يهود ويا يهود

عيدكم عيد القرود

وعيدنا عيد المسيح

**

هييه هييه هييه

شبيبة مسيحيّة

**

وسبت النُّور وعيّدنا

عيّدنا عند سيّدنا

وسيّدنا عيسى المسيح

**

يا عذرا يا ام النُّور

ظوّوا الشمع والبخور

وعلى طول الطَّريق، يقف رجال ونساء على الشبابيك، يرشون الملح، والماء المعطر على المسيرة التي يزداد عددها. توقفت المسيرة، بكثير من الحماس تحت قوس الزرارة،

وهو أقدم بوابات بَيْت لحم القديمة الباقية حتَّى الآن، وكان ذلك مدعاة ليرفع المحمولون على الأكتاف أصواتهم، ويبالغون بالتلويح بالسُّيوفِ، وسط الزغاريد التي تنطلق من حناجر نساء يرتدين أجمل الثياب الإفرنجية، وتنطق أفواههن بأهازيج تراثية محلية.

وعند نافورة المنارة، توقفت المسيرة، ليختبر آخرون قدرتهم على التلويح بالسُّيوفِ، وحفظهم للأهازيج الشعبيّة:

هانا مربط باب الدَّيْر..!!

وهذي العادة عادتنا

وما بنغير عادتنا

واللي ما بعرف عادتنا

واللي ما يصدقنا

ينزل ع المَهْد ويشوف

سحب شباري وضرب سيوف

وخلال ذلك لم يكف النّاس على إشعال المزيد من الشموع، بينما تولى بعضهم توزيع الورود على المحتفلين، وباب الدَّيْر الَّذي تهتف له الحناجر، هو ساحة المَهْد أمام واحدة من أقدم كنائس العالم، وقبل ذلك كانت معبدًا لأدونيس. شعبنا، كما لاحظ الأستاذ شريف، وعلى مدار آلاف

الأعوام، احتفل بموت أدونيس في الشتاء، كما يحتفل كل عام بعيد الميلاد، ويحتفل بانبعاث أدونيس الَّذي تغلب على الموتِ في كل ربيع، والآن يحتفل بمن وطأ الموتَ بالموتِ.. تراث مستمر، مهما اختلفت التسميات.

يا مار جريس
ع الخضر صلينا
والشمع في ايدينا

**

دير الميّة ع الصفصاف
واحنا مسيحيّة ما بنخاف

**

ديه ..ديه..ديه

**

ليكي ليكي ليكي
وهذا النُّور غالي عليك

**

ردوا ردوا يا إخوان
دقوا الرمح بعود الزين

وانتو يا نشامى منين
واحنا شباب مسيحيّة
كل واحد بسوى مِيّة

واستمرت المسيرة في زخمها حتَّى بلاط كَنيسة المَهْد، حيث رجال الدين استقبلوا النُّور الْمُقَدَّس، ومع اقتراب الزَّفَّة من نهايتها، فتح يُوسُف الَّذي ظهر محمولاً على الأكتاف زجاجة شمبانيا، ما أدى إلى إشعال المزيد من الحماس وسط النّاس، بينما كان بعض الحجاج الأقباط الجالسين على الحجارة القديمة المتناثرة على أطراف السَّاحة، يرقصون بالعصي، وآخرون منهم يذرفون الدُّمُوع تأثرًا، وواحد منهم يلف على النّاس بزيه الصعيدي وهو يشتم بصوت أراده جهوريًا عاليًا، البنطي الَّذي حكم على المسيح بالموت، ولكن صوته يتبدد وسط الأهازيج المستمرة:

علّي صوتك للمسيح
ويا عذرا ويا أم النُّور
ظوّي الشمع والبخور

**

يلعن أبو اللي ما بصيح
ع نورك يا مسيح

يا شباب انضموا انضموا

**

يا محلا ضرب السُّيُوف

ع العدا والعين تشوف

**

ملعون أمه اللي ما بصيح

ودينا دين المسيح

يا محلا ضرب الشباري

ع العدا والدم ساري

بعد انتهاء المسيرة، عدتُ أنا والأستاذ شَرِيف مع يُوسُف إلى منزل عائلته في حارة السُريان، لنعيِّد على العائلة. حضر العرق الَّذي صُب في كؤوس معدنية، وعندما قدم لي والد يُوسُف كأسًا اعتذرت، فعلق الأستاذ شَرِيف:

*إنّه لا يشرب المنكر..إنّه غر ينكر المنكر بعكسنا..!

وكؤوس العرق تدور، تحولت المناسبة إلى نقاشٍ سياسيٍّ حول ما ينتظر البلاد، وقال والد يُوسُف، الفرّان:

-أخشى من هذا الفرح الَّذي بدا استثنائيًا هذا العام، أدعو الرَّبّ أن لا يُخيب الآمال، وإن أحيانًا سنلتقي مرةً أخرى،

وسندرق العرق على عتبات المنازل..!

قال الأستاذ شَرِيف:

*علينا التسلح بالتفاؤل..!

وافقه أبو يُوسُف، ولكنّه بدا متشككا، مذكرا بالحملة الحكومية على القوى الوطنية التي بدأت قبل عام تقريبًا، والتي أعادت اعتقال العديد من كوادر الأحزاب، الذين أُطلق سراحهم بعد سنوات قضوها في المعتقل الصحراوي الجفر، وإجبارهم على استنكار مبادئهم وتاريخهم عبر الصُّحُف والإذاعة.

وروى حكاية الوزير الَّذي يسكن في الحارة، مثالاً على الشكل الَّذي تدار فيه الأمور في الدَّوْلة، فعندما هلَّ في يومٍ وجد أهالي الحارة ينتظرونه ليباركوا له، فبدا مندهشًا عندما علم بأن أهالي الحارة سمعوا بتعيينه وزيرًا من الراديو، وبعد فترة، دُهش عندما هلَّ ووجد الأهالي في انتظاره ليستفسروا منه عن سبب استقالته التي أُذيعت من الراديو، لأنه لم يقدم استقالته، وفي الحالتين كان هناك مَن يُعيّن ومَن يُقيل، والوزراء مجرد بيادق، والنَّاس أوراق لعب في أيدي ولاة الأمر.

قال الأستاذ شَرِيف بألمٍ:

*كلنا بيادق يا أبا يُوسُف، ولكن علينا أن نأمل، ولا نكف عن الأَمَل، لأننا به فقط سننتصر..!

ضحك أبو يوسف وهو يتمتم، متلمظا العرق: بشيتو، بشيتو..!، وقال:

-شعوبنا، شعوب بسيطة، وكما نقول نحن السُريان بشيتو..! لنشرب في صحة البشيتو..!

في الطَّريق إلى فَصّ الجَمَل

تبقى لنا أقلّ من عشرة أيَّام حتَّى نتخرَّج، ونصبح جاهزين لمواجهة العَدُوّ، مع اقتراب نُذُر الحَرْب. كلّ النّاس كانت تعلم أن الحَرْب مُقبلة، والهزيمة مُدبرة إلا ربحي المتشائم، بدأت الصدامات بين الإسرائيليّين والسوريين منذ نَيْسان، وأسقط الإسرائيليّون سِتّ طائرات ميج سوريّة فوق جبل الشَّيْخ. الأجواء السياسيّة مُلبَّدة، والتحركات مكثفة، أغلق عبد النَّاصِر مضائق تيران على البَحْر الأحمر، ليظهر جديته، وسحب قُوّات الطوارىء الدوليّة مِن جزيرة سَيْناء ليعلن شجاعته وعدم اختباء قواته خلف القُوّات الأمميّة، وقال: «إذا أرادت إسرائيل الحَرْب فنحن نقول لها أهلاً وسهلاً، ونحن مستعدون»، وعاش النّاس حالة طوارىء في بيوتهم ومدنهم وقراهم ومخيماتهم، وانطلقت مدافع الضخّ الإعلاميّ، وطار المَلِك حُسين إلى القَاهِرَة، في رحلة سرِّيَّة يقود طائرة كارافيلي بنفسه، مرتديًا بدلته العسكريَّة وعلى جانبه الأيسر يظهر مُسَدّسه من نوع بيرتا 357 الأميركيّ، لإظهار الاستعداد للمعركة، في مفاجأة ستحَيِّر النّاس،

وتصالح مع عبد النَّاصر، فالعدو واحد والمصير واحد وتحرير الأَرْض العربيّة همٌّ واحد، ووقَّع على معاهدة الدفاع المشترك مع مصر وسوريا، وفتحا، الرَّئيس والملك، خطًا هاتفيًا مع الرَّئيس الْعِرَاقِيّ، وأبلغه الْمَلِك استعداد الأُرْدُن لاستقبال قُوّات عراقيّة، وعاد إلى عَمَّان ومعه الشُقيري دليلاً على إغلاق صفحة الانشقاق والشقاق والجفاء بين الأخوة، وقيل بأن الرَّئيس تبسط مع الْمَلِك وأظهر ما لديه من خفة ظِلّ قائلاً له لدى وصوله:

*لو اعتقلناك الآن لن يدري أحد..!

وطالت الأجواء الرطبة، الشُقيري، فقال الرَّئيس للملك:

*استلمه لقد زهقت منه، وإذا أزعجك بإمكانك أن تقذف به من أعلى برج من أبراجك..!

وفي عمَّان، خص الْمَلِك، صحيفة لبنانيّة، بتصريحات قويّة، وصف فيها توقيعه على اتفاقية الدفاع المشترك، بالتاريخيّ، داعيًا الدُّول العربيّة كافة للتوقيع، ليكون لها الشَّرَف، في رد الشَّرَف ومحو العار وتحرير فِلَسْطِين.

وكان الاتفاق أن الجيوش العربيّة ستلتقي في تَلّ أبيب، وانطلق ماراثون التحليلات السياسيّة، وأصبح كلّ واحد من ناسنا مُحللاً ومُحرمًا، أمَّا مذيع راديو صوت العَرَب أحمد

سعيد، فارتفعت نجوميته، ولم يعد النّاس في الضَفَّتين يلقون بالاً لحظر سماع الإذاعة، التي كانوا يستمعون إليها سرًا خلال الصراع الناصريّ-الملكيّ. الأمر اختلف، والحرب المقبلة تَجُبُّ ما سبقها من خلافات بين الإخوة.

كان من المقرر أن يتمّ تخريجنا في القُدْس يوم 25 أيّار 1967م، في احتفال انتظرناه طويلاً، وتصورناه مهيبًا، وتخيلنا أنفسنا وكل منّا يتقدم بمشيةٍ عسكريَّة أمام الأهل والنَّاس ليستلم شهادة، هي غير كلّ الشهادات، ولكن ومع تَلَبُّد غيوم الشَّرْق الأَوْسَط، وزعونا على الوحدات العسكريَّة يوم السابع عشر، وأُلغي احتفال التخرج، فلا احتفالات في وقت الحَرْب، والنَّصْر سيكون الاحتفال الأكبر، وهكذا أصبحتُ جنديًا في لواء القادسيّة/ كتيبة عمر بن الخطاب/ السَّرِيّة الثَّانِية، وخندقوني في الأغوار الشَّمالية مقابل عَيْن البيضا، في منطقة يُطلق عليها شويعر، أمَّا قيادة الكتيبة فمقرها في جبل قريب اسمه فصّ الجَمَل.

انطلقنا من معسكرنا في العُوجا، شمالاً نحو الأَرْض التي احتلت عام النَّكْبَة، مررنا بمحاذاة الأراضي الزراعية التي تصل إلى الشَّرِيعة، جِنان تفوح منها روائح عِطْرِيّة إلى يميننا. توقفنا قرب الطَّريق المؤدية إلى جِسْر دَامْيَة، لا أعرف لماذا؟ ربَّما لأسبابٍ إدارية، أو لوجستية، أو تجميعية، لم

أرتح لهذا التوقف عند الجِسْر، الَّذي يبعد نحو 35 كلم، شمال مدينة أريحا المحررة، و45 كلم جنوب مدينة بيْسان الْمُحْتَلَّة، هو في منطقة وسطى الآن، وبعد الحَرْب، سيصبح مجرد معبر على الشَّرِيعة بين الضَفَّتين، مثل جُسُور ومعابر وطرق أخرى في بلادٍ ستكون مراحًا و براحًا لناسها، سأُلفها مرات ومرات، ولعليَ أتوقف هنا مرّة أخرى، لأتذكر وقفتنا هذه قرب هذا الجِسْر.

في عام النَّكْبَة، وقبل أن تنكبنا، تقدم الجيشان الأُرْدُنِيّ والعراقي إلى فِلَسْطِين عبر هذا الجِسْر باتجاه نابلس، وجنين، وطولكرم، ومن جِسْر اللنبي تقدمت القُوّات باتجاه القُدْس، والخليل ورام الله، نُكبنا وتقهقرنا وما زال الجِسْر حاضرًا وشاهدًا.

بنى المماليك الجِسْر بالحجارة، وأظهروا مهارتهم الهندسيّة، تاركين المياه تنساب من خلال القناطر المقوسة. صمد ليستخدمه العثمانيون، وأضاف إليه البريطانيون، ووصلت الجِسْر التاريخي، الَّذي عبره فاتحون، وغزاة، ورحالة، النيران التي اشتعلت في أرضنا المُقَدَّسَة، فنسفته العصابات الصِّهْيَوْنيّة، فيما يعرف، في أدبياتها، بليلة الجسور، وكان ذلك لَيْلَة 16-17 حزيران 1946م. بزرع ألغام دمرته في اليَوْم التالي، وقُتل في العَمَلِيَّة ضابط بريطاني.

بنى البريطانيون، جسرًا جديدًا، في الموقع الحيوي. نتف المعلومات هذه أعرفها عن الجِسْر، وأخرى عن غَوْر دَامْيَة، والمزارعين عندما جئت إلى الغَوْر مع جَدَّتي صغيرًا. قررت الجَدَّة ضمان قطعة أرض لزراعتها، هي تقدم جهدها، ومالك الأَرْض يأخذ حِصّته، دون أيّ جهد، وكانت أيامًا لا تنسى في الغَوْر، بطقسه، وقمره، وسمائه، ونهره، وينابيعه، وناسه، وأفاعيه، وعقاربه، وشقائه، وروائحه، وطيوره ولسعات بعوضه.

حدث ذلك عندما أصاب وادي إرطاس الساحر الجفاف، وجفت أشجاره، وهجره فلاحوه، ولم يعد ينتج المُشْمُش الأميركي الَّذي أدخل زراعته الْغُرَبَاء الذين سكنوا القَرْيَة، ولا حتَّى الخسّ الَّذي تشتهر به قريتنا، ويُضرب به المثل «خسّ إرطاس» مثلما يُضرب المثل بباذنجان بتير، وسِلك سلوان، و برتقال يافا.

لم تعد مياه عَيْن إرطاس تسير في القنوات، نتيجة سنوات من وضع الجَيْش الأُرْدُنِيّ يده على العَيْن ما بين عامي 1959-1963م. ركَّب الجَيْش في محافظة بَيْت لحم وقيادته في البَصّة وهي اسم المِنْطَقَة التي بنى الاحتلال البريطانيّ عليها مقرًا لقُوّاته أسوة بباقي المحافظات الفلسطينيّة وورثها الجَيْش الأُرْدُنِيّ، مِضخَّة على العَيْن لتعبئة الصهاريج بالمياه ونقلها

ليستفيد منها الجَيْش، وعيَّن حارسًا على المِضَخَّة كنيته (أَبو عمّار)، ولم يكن من النادر أن تنشب خناقات بين أَبي عمّار ونساء من مُخَيَّم الدهيشة الَّذي أُقيم في أوائل الخمسينات للاجئي النَّكْبَة المشردين من جبلي الخليل والقُدْس، وكانت عَيْن إرطاس مصدرًا رئيسًا لحاجات اللاجئين المائية، حيث تنزل النِّسَاء جبلين لتعبئة المياه والصعود وعلى رؤوسهن تنكات الماء تتمايل وتنز المياه منها، فتفقد من مخزونها. ولم يكن ذلك ليحصل بسهولة، كن يغافلن أَبا عمّار، عندما لا تكون هناك صهاريج، ويقصدن العَيْن، وعندما ينتبه، يحاول نهرهن، ولكنهن يهجمن عليه، ولا يستطيع الدفاع عن مضخته، إلّا إذا صادف خلال ذلك وجود جنود من الجَيْش.

أحيانًا وأنا طفل أراقب مهارة نسوة الدهيشة في تعبئة تنكات الماء وحملها على رؤوسهن بخفة، لم أكن أصدق كيف يمكن أن تصمد تنكة المياه على رأس اللاجئة، وهي تصعد فيها إلى المُخَيَّم، كم من المياه سوف تتناثر على الرؤوس؟ وكم سيبقى للعائلة للشُرب، والطبيخ، والاغتسال، وغير ذلك؟ أيَّة حياة عاشها اللاجئون؟ وأية حياة عشناها نحن الذين لم نغادر منازلنا، ولم نستطع تقدير بؤس تلك الحياة؟

تظاهر أهل قريتنا، مطالبين بماء العَيْن، ووصلت مجموعات من جند البادية، تتذكر جَدَّتي، بأنها كانت أوَّل من قدرت الخطر المحدق، فهربت إلى دير الجنة المقفلة، واختبأت، ومن لم يختبىء ضرب بأعقاب البنادق، وجرَّ إلى السجن، وسيتداول ناسنا حكايات المضروبين والمسجونين بكثير من الدفء والحذر وشذى البطولة الناقصة، وستظل جَدَّتي دائما تحذرني من قسوة العَرَب على العَرَب.

ولكن أهلنا لم يتوقفوا عن الأنين، وفي الواقع كانوا مضطرين لطرق كل الأبواب، علموا بمرور موكب الْمَلِك حُسين على شارع القدس-الخليل، جاء الْمَلِك من القدس إلى الخليل، واصطف النّاس على جانبي الشارع ملوحين له، وبالقرب من بوابة الخضر، تجمع أهلنا لاعتراض الموكب، وإبلاغ الْمَلِك الشَّابّ مشكلتهم، وعندما تنبه رجال الأمن لهم، حاولوا تفريقهم، رغم تأكيد أهلنا على نواياهم الطيبة التي لا علاقة لها بالشغب السياسي، إلّا أن تنبه الْمَلِك الذكي حال دون وقوع ما لا يحمد، فطلب من مرافقيه جلب من يتحدَّث باسم أهلنا، فأخبره المجلوب بسرعةٍ عن مشكلة العَيْن، وهز الْمَلِك رأسه دلالة الفهم وطلب منه تنظيم وفد للقاء الْمَلِك في عمّان.

سافر وفد من مخاتير القَرْيَة ووجهائها إلى عمَّان لمقابلة الْمَلِك

حُسين، وعرض المشكلة عليه، وعندما عادوا أكدوا لأهالي القَرْيَة المتشككين بأنهم قابلوا الْمَلِك فعلاً، ووعدهم بالحل.
سرَّب الوفد ما دار بينه وبين الْمَلِك الشَّابّ، الَّذي رحب بكبار قريتنا:
-أهلاً بكم يا آبائي وأشقائي، ما أنا إلّا خادم لكم، واحد من الهاشميين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الأُمَّة.
سعد الوفد بتواضع الْمَلِك المفوه الفصيح، والَّذي لم يمل من العرض المطول لمن انتخبوه ليتحدث باسمهم، عن تاريخ القَرْيَة وأهميتها التاريخية والحضارية والإقليمية والعالمية إذا أُخذ بالاعتبار أهمية مدينة القُدْس التي أسرت قلوب العالم، حتَّى انتهى إلى القول:
-نحن مَن تشرب القُدْس مِن عندنا، لا نجد ما نشربه..!
وقيل بأن الْمَلِك تأثر، واستمع للمتحدث حتَّى انتهى، فعقب:
-لن يحصل إلّا الخير، لكم ولنا، يا وجوه الخير..!
وزيادة في التقدير، اصطحب الْمَلِك الوفدَ إلى شُرْفة القَصْر، وأراهم أضواء القُدْس تتلألأ من بعيد، ثُمَّ عاد إلى الصالون ليشرب الشَّاي معهم، وبعد دقائق نهض، إيذانًا بانتهاء اللقاء، الَّذي خرج منه الوفد جذلاً مسرورًا، وعاد أفراده إلى القَرْيَة ليبشروا النّاس بالحل المرتقب لمعاناتهم، وقيل بأن

الْمَلِك شوهد يقود مروحيته فوق وادي إرطاس، ليقف على طبيعة معاناة النّاس، ولكن المعاناة استمرت فترة طويلة أخرى حتَّى رفع الجَيْش يده عن العَيْن.

علاقة ناس قريتي وعينهم بالحكومات، قديمة، وأقربها حكاية العَيْن مع بريطانيا العُظْمى التي جاءت منتدبة علينا لتؤهلنا لنصبح شعباً يستحق دَوْلَة، مثل باقي الشعوب، ولكنَّها كانت تخطط لإزاحتنا لإحلال شعباً آخر مكاننا.

شتاء القُدْس وبناتها

في سنة 1925م، حضر الشِّتَاء، ولم يحضر، جاء بدلاً منه شبيهه، بمطرٍ قليل، فمن أين يأتي الخير للأرض المُقَدَّسَة وهي تشهد ما يُزرع فيها من ظلمٍ وحقد؟

كانت سنة محل وجفاف، فقرر المندوب السامي هربرت صموئيل، اليهودي الصهيونيّ، في أيّار من تلك السنة، سحب مياه عَيْن إرطاس إلى القُدْس التي تتوسع بالمستوطنات اليهوديّة، والتي تحتاج بشدةٍ إلى المياه، وشهدت تلك السنة أكبر نسبة للهجرة اليهوديّة إلى بلادنا وصلت إلى 35 ألف مُهاجِر مستوطن، وكله ببركة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشَّمْس، وافتتحت أَيضًا الجامعة العبرية على جبل المشارف، واستخدام اليهود الذين أتوا إلى بلادنا ليعيشوا حياة أوروبية، للمياه، يفوق بمقادير استخدام ناسنا.

في تلك الفترة التي امتلأت فيها القُدْس باليهود، لفتت اليهوديات بملابسهن وتحررهن، شباب تلك الأيَّام، وضربن عقولهم، وسلبن أحلام اليقظة منهم. من بين شباب تلك الأيَّام الشاعر اسكندر الخُورِي البيتجالي، الَّذي كنت التقيه

في غرفة السِتّ لويزة أو أمامها عندما يأتي الأستاذ شَرِيف زائرًا، وأكون معهما مستمعًا وجاهزًا لتلبية طلباتهما. كان الحُورِي ينشد لنا من أشعاره في يهوديات القُدْس، ويحاول الأستاذ شَرِيف، وهو ممسك بالكمان، أن يلحن الكلمات:

بارزات النهود حُمر الخدود
عاريات الصدور ضمر القدود
يتخطرن في الشوارع تيهًا
بحلي من أساورٍ وعُقود
وبرود شفافة من حرير
شفّ عما اختفى وراء البرود
عابثات بالركبتين قصار
عرت الساعدين حتَّى الزنود

ويروي لنا كيف أنَّ بنات العَرَب أصبحن يقلدن بنات اليهود، فينشد بصوته المتأثر بتقدمه بالسن، بهدوء لتخرج الكلمات واضحة مؤثرة:

من بنات اليهود جئن إلينا
من أوربّا بكل زيٍّ جديد
وبنات قلدهن من الأعراب

حتَّى غلبن غيد اليهود
مشهد من مشاهد القُدْس هذا
في غنى عن دلائل وشهود
كلّ يوم نراه بالعَيْن عصرًا
بين باب الخليل والعامود
يتدخل الأستاذ شَرِيف ويبدأ يدندن بينما قوسه تتحرك بهدوء على الأوتار:
بجيل العشرين يا رَبّ تعين
حوا رجعت تلبس ورق تين
حوا تصنّعتي عقلك ضيعتي
باللبس ارجعتي لورق التين
أظهرتي خفي وحمرتي الشفه
وين راح تصفي بجيل العشرين
قصرتي ثيابك لفوق إركابك
شفوك اصحابك صاروا مجانين
صفقنا بعفوية وحرارة ونحن نضحك، بينما تولى الأستاذ شَرِيف الشرح:
ـهذه أغنية أو أهزوجة كتبها اسكندر معلوف السوري،

انتشرت في العشرينات، وسجلتها من ذاكرة جوليا دبدوب (أُمْ عبد الله)، الناشطة في الاتحاد النسائي في بيْت لحم، وهذه أبيات من أغنية ثانية من ذلك الزمن سمعتها أَيضًا من أُمْ عبد الله:

ياللي قصيتي الشاليش
نسيتي أكل الدرابيش
نسيتي الحمص والترمس
والكسبة وضرب الشاويش
حلوة ياللي تحب الرَّقْص
تعالي معي على الدانس
شفتها قاعدة عالبلكون
قاعدة بتقرأ كوزيتا
اليَوْم لبسنا كابات
بكرة بنلبس برنيطة
حلوة ياللي تحب الرَّقْص
تعالي معي على الدانس

وأتذكر الآن اسكندر الخُورِي وهو يطوح رأسه ويرتشف العرق مع الأستاذ شَرِيف، الَّذي يحرص على إخفاء بطحة

العرق في كيس ورقي، لتكون مخفية عن أي فضولي يمر ويقرر مجالستنا. يرتشف الخُورِي كأسه دفعة واحدة ثُمَّ ينشد من قصيدته مساء السبت في القُدْس:

ما بين أبيض وأحمر
وأصفر ثُمَّ أخضر
وناعم من حرير
ما بين أسمر أشقر
في كلّ سبت مساء
هذي الملابس تنظر
على متون الغواني
مزوجّات وبكر
في القُدْس باريس باتت
على طريق شنلر
في كلّ سبت مساء
طريق يافا كمطهر

ثُمَّ يتنهد مبتسمًا:

-كنّا نفكر في بناتهم، وهم يفكرون في مياهنا..!

العَيْن في مواجهة المِخْرَز

المياه هي الحياة، والقُدْس تشرب من بِرك سُلَيْمان بجوارنا التي تصب فيها القنوات التي تحمل مياه الينابيع، وتتجه مرّة أخرى للقُدْس، فقرر صموئيل أن يزيد مخزون البِرك من عيننا، التي اعتبرها غرباء قريتنا النبع المختوم، واعتبروا قريتنا حدائق الْمَلِك سُلَيْمان الَّذي كتب نشيد إنشاده فيها وتغنى: «أُخْتِي الْعَرُوسُ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ، عَيْن مُقْفَلَةٌ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ»، وحفظت جَدَّتي هذه الجُمل غيبًا لكثر ما سمعتها وهي صغيرة في منزل السِتّ لويزة.

اعترض مؤمنون دائمًا على اعتبار النَّشِيد جزءًا من الكتاب الْمُقَدَّس، ليس فقط لجرأته وغزله، ولكن لخلوه من إعلان اسم الله، ولكن النَّشِيد صمد كقصيدةِ عشقٍ شرقية، بخلفية مناظر فِلَسْطِين الموحية والمؤثرة، أنشدها سُلَيْمان متعدد النِّسَاء، لحبيبته التي قد يكون اسمها شلوميت، التي أعلى حُبها على حُبّ عشرات أو مئات من نسائه، وهي أعلته على الدُّنْيَا: أنا لحبيبي وحبيبي لي.

أيّة كلمات خطها سُلَيْمان الْمَلِك، سُلَيْمان النَّبِيّ في قريتنا،

أي خلود لأشهر وأقدم قصيدة عشق..!

وعلى دربه سار مربي الأجيال خليل السكاكينيّ، الَّذي تتلمذنا في المدارس على كُتبه في اللُّغة العربيّة: دار دور، وراس روس، ولكنّهم لم يدرجوا في المناهج ما كتبه لحبيبته سلطانة عبده التي كان يصطحبها إلى عَيْن إرطاس:

«أتذكّر حين ذهبنا إلى إرطاس حيث كانت فراديس سُلَيْمان صاحب نشيد الإنشاد، نخلت روحه ترفّ علينا مع حفيف الأشجار، وتنشدنا تلك الأناشيد المملوءة حبّاً، ولما وقعت نظارتي فتكسرت احتفظت بها تذكارًا لذلك اليَوْم الجميل.

أتذكّر ذهابنا من وقتٍ إلى آخر إلى العَيْن لنشرب ونتداعب.

أتذكّر ذينك الفلّاحين اللذين جلسا بالقرب منّا مندهشين من جمالك الفتّان، فقلت في نفسي: لو بعث الله سُلَيْمان فرأى محياك الجميل لما تمالك أن يسجد لك.

أتذكّر كيف كان الهواء يعبث بشعركِ الجميل ونحن راجعون، وكيف كان وجهك يلمع، وثغرك يبتسم، وعيناك تنظران إليّ نظرات الحنوّ واللطف والمحبّة».

ربط الْغُرَبَاء إرطاس بتقاليد عهود العهدين القديم والجديد الأسطوريّة الأخاذة. البِرك الثلاث الضخمة الواقعة في الطرف الغربي لوادينا، أحالوها إلى الْمَلِك سُلَيْمان، مع أنّها

هي والقنوات أحالها الآثاريون إلى عهد الْمَلِك هيرودس، واعتبروا خربة الخوْخ القابعة على تَلّة إلى الشمال الغربي من إرطاس عيطام التوراتية.

فتنوا بالمساحات الخَضْرَاء في وادي إرطاس، والتي تتناقض بشدة مع أراضي البَرِّيَّة شبه القاحلة الواقعة إلى الشرق، ولم يجدوا موقعًا أكثر مناسبة من قريتنا ليكون المرعى الَّذي كان يرعى فيه الْمَلِك داود، والد الْمَلِك سُلَيْمان، أغنامه عندما كان ولدًا في بَيْت لحم.

في زمنٍ مضى جاء صموئيل ليسترد حدائق سُلَيْمان، وفي زمنٍ قريب جاء صموئيل البريطانيّ لاغتصاب العَيْن، نبع العُشَّاق المختوم، فغضب فلاحو قريتنا الذين يعانون في الصَّيف وفي الشِّتَاء، ويعتمدون على ما ينتجه واديهم في معيشتهم وخططهم الحياتية.

سيّج البريطانيون نبع إرطاس، ووضعوا مِضخّات لسرقة المياه، ولم يعد لأهلنا البالغ عددهم أربعمائة نسمة آنذاك سبيلاً للوصول إلى نبعهم، وعرفوا حينها ماذا يعني وصف (النبع المختوم) فهو النبع المحرم عليهم، وكان عليهم أن يقاوموا ويرفعوا صوتهم إلى الحاج أمين الحسينيّ، فهم يُعتبرون من عزوته ورجاله ومشايعيه، وتحسروا على زمنٍ لم يخبروه،

ولكن سمعوا عنه، ففي الماضي البعيد، اعتاد أسلافهم حماية القنوات ومصادر المياه التي تضخ إلى القُدْس، مقابل إعفائهم من دفع الضرائب، وامتيازات أخرى وصلت إلى حد تكليفهم جباية الضرائب من القرى والمناطق التي حولها، وعرفت إرطاس حينها برأس العرقوب، وهي مجموعة من القرى تضم أربع وعشرين قَرية في عُرْقُوب القُدْس.

وقبل ذلك يوجد لدى الأستاذ شَرِيف، ما يؤكد بأن إرطاس، وصلت أوج قوتها في عهد سلاطين المماليك، حيث شكلت مركزًا تجاريًا وقضائيًا، وانتشرت فيها طواحين الغلال التي تعمل بقُوَّة مياه إرطاس، ويوجد من هذه الفترة بقايا لقاعة مَحكَمة وسجن معروف باسم (الحبس)، يمر شارع القَرْيَة الرَّئيس فوقه، لطالما دخلته مع أترابي مستكشفين أماكن للعب والاختباء.

خلال هذه الفترة اضطلع زعماء إرطاس بدور من يقيمون العدل في القُرى التابعة لهم، ولكن لا يعرف إلى أي مدى يمكن اختبار عدلهم، خصوصًا وأن القَرْيَة تعرضت لمذبحة، من قبل أهالي القُرى الأخرى، خلال هذه الفترة، التي شهدت أَيضًا ترميم وبناء القنوات المائية التي تزود القُدْس بالمياه، على يد بعض السلاطين.

ما سمعته من ناسنا، بأن أسلافهم اضطروا للهرب وترك القَرْيَة والمنازل، لأن منهم من اغتصب وتعدى على نساء قرى مجاورة، وأن رجال تلك القرى قتلوا تسعين زوجًا من الأخوة.

وعاد ناسنا ليهربوا مرّة ومرّات، وما يتداول أنَّ العثمانيين سمحوا لهم بالمكوث في قلعة البِرك، شريطة أن يكونوا مسؤولين عن حماية قنوات الماء من بِرك سُلَيْمان وعلى شارع القدس – الخليل، ولكنّهم كثيرًا ما تجاهلوا واجبهم وسرقوا في أحيانٍ كثيرة المسافرين المارين على الطَّريق.

في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، شارك سكّان إرطاس في حروب قيس ويمن، ووسط القتل والفوضى، لم يدفعوا الضرائب للحكومة العثمانيّة، ولكن خلال غزو إبراهيم باشا سنة 1830م، انحاز أهالي القَرْيَة لصالح السُّلْطَان التركي، ليس حبًا به، ولكن بُغضا للباشا المصري، حيث جرجر الثوار جنوده إلى إرطاس، وارتكبوا مَجْزَرة بحق الجنود يقال بأنَّها أدت إلى مقتل وجرح ثمانمائة ضابط وجندي من قواته، قرب العَيْن، ما أدى إلى انتقام الباشا المصري، فدمر بيوت القَرْيَة، وجعلها حطامًا.

هذا التاريخ سمعته مرارًا من الأستاذ شَرِيف، الَّذي استشهد

بما قاله ادوارد روبنسون عندما مَرَّ بإِرطاس عام 1838م، ولاحظ أن منازل القَرْيَة كانت مدمرة وأن الأهالي يعيشون في كهوف.

وخلال تلك الفترة كان الخطر الأساسي الَّذي يواجه أهل القَرْيَة، بعد تَقَهْقَر الباشا المصري من فِلَسْطِين والشام، داخليًا، وهو الغزوات المتكررة من قبيلة التعامرة، وبسبب الخطر المتواصل واصلت اثنتا عشرة عائلة، معظمها من الحمائل الأربعة الرئيسة، العيش في قلعة البِرك، وكانوا يخرجون إلى القَرْيَة في النهار فقط للعمل في حقولهم وحدائقهم. وكل واحد من الأبراج الأربعة الموجودة في القَلْعَة سميت على اسم الحامولة التي سكنت فيه.

يا للبؤس، وقلة الحظ، والموت المنتشر، تبدو لي حكاية قريتنا، سلسلة حكايات عن القهر الَّذي لا ينتهي، والاستقرار المفقود، والسلام المنتظر الَّذي لا يأتي لأرض السّلام.

اللَّجْنَة التَّنفيذيَّة للمؤتمر العربيّ الفلسطينيّ، أدركت الهدف الحقيقي خلف قرار صموئيل، فالمسألة لا تتعلق بالأمن المائي للقُدْس المهدد بفعل تقلبات الطبيعة، وإنما بتزايد عدد المستوطنين اليهود في المدينة المُقَدَّسَة، فأرسلت احتجاجًا

إلى المندوب السامي مستنكرة ما وصفتها بالسرقة الصِّهْيَوْنيّة للمياه العربيّة، ورفعت قضيّة للمحكمة العليا في فِلَسْطِين، التي حكمت ببطلان قرار الحكومة، فالحق أوضح من القرارات الاستعماريَّة، إلا إن البطلان لم يبطل استمرار سرقة المياه، ونُقلت القضية إلى المحكمة الملكية في لندن المختصة بكل ما يجري على كلّ الأراضي التي تتبع التَّاج البريطانيّ، والتي انحازت بعد ثمانية أشهر لحكومة الانتداب في فِلَسْطِين، ووقفت ضدّ «عدل» المحكمة العليا.

بعد عام بالتمام والكمال، في 26 أيّار 1926م، أوقفت حكومة الانتداب ضخَّ المياه إلى القُدْس، وتباهت ليس فقط بالتزامها بقرارها، ولكن أَيضًا بما أبدته مِن كرمٍ ولباقة وتساهلاً بإعفاء فلّاحي إرطاس من الأثقال المادية للدعاوى القانونية، والتي أُقرت قانونيًا في مَحكَمَة التَّاج البريطانيّ.

هذه قِصّة عيننا كما وثقها الباحث الفرنسي فانسان لومير، أمَّا بالنسبة لجدتي، فالمسألة لها بعد أسطوري، وخلفها حكاية جعلت مَحكَمَة التَّاج البريطانيّ تحكم لصالح أهالي إرطاس؛ أربعة من المحامين الفلسطينيّين تبنوا القضية، وكلفوا المحاميّ البريطانيّ المقيم في لندن السير ولسون، فكسب الدعوى عن طريق حيلة، حيث ذهب إلى أحد أصدقائه وطلب منه أن يذهب يوم النظر في الدعوى إلى المحكمة ويطلب

تطبيق القانون على المحامي مُدعيًا بأنه اغتصب زوجته منه، ويطالب بإعادتها إليه، ففعل هذا الصديق ذلك، فأمر القاضي بتطبيق العدالة ضدّ المحامي وإعادة الزوجة إلى زوجها، وعندها وقف المحامي صارخًا: كيف لكم وأنتم تغتصبون مياه سكّان إرطاس، أن تطالبوا بإعادة زوجة هذا الشَّخص إليه؟ وكسب المحامي القضية لصالح سكّان إرطاس، واستأنفت حكومة الانتداب على قرار المحكمة إلى مجلس الْمَلِك الخاص، الَّذي ردّ الاستئناف، وقَرَّرَ أن مياه إرطاس هي ملك لأهل القَرْيَة، هذه رواية جَدَّتي ترويها ببطء وبِرويّة وعلى إيقاع لهجتها الفلّاحيّة المعتقة.

وعندما تصل جَدَّتي إلى الجملة الأخيرة من حكايتها تتلألأ عينيها، ببريق الظَّفَر.

لا سكوت عند عَيْن السَاكُوت

إنّني الآن أرى المزارعين في غَوْر دَامْيَة يطلون، بين الوَهْلة والوَهْلة، بأقنعتهم التي تغطي الرؤوس والوجوه، بين برهتي النزول إلى الأَرْض، لالتقاط الثمار، والارتفاع، مع إبقاء الظُّهْور منحنية، لوضع القطاف في سَحّارات خاصة.

يضع فلاّحو الأغوار أقنعتهم، في محاولة لمواجهة الشَّمْس الحَارَّة، والتي تتحوَّل إلى حارقةٍ في شهور الصَّيف. وهذا المناخ القاسي، هو ما جعل منطقة الغَوْر وكأنّها بَيْت بلاستيكي طبيعي ضخم، ولكن نحن من بداخله الآن نحترق من الانتظار، ونحن نتحرق لمواجهة العَدُوّ.

نظرتُ إلى مصنع السَّمْنَة، شمال غرب الجِسْر، بدت الحركة ساكنة فيه، فالنَّاس، مثلنا نحن الجنود تنتظر الآتي، وتستعد للحرب، ولا شك أن العمّال غادروا إلى منازلهم لينتظروا ما نحن فاعلين.

لماذا توقفنا عند الجِسْر، معبر الضَّفَّة الشرقيّة، الَّذي ننتظر منه القُوّات العربيّة المساندة؟ لا أعرف لماذا ألحَّ عليَّ هذا السؤال، ولم أطلب الإجابة من أحدٍ من زملائي أو من

المسؤولين، لأنني قدرت أن السؤال مرده التوتر الَّذي يسبق أيامنا الآتية التي ستكون مفعمة بالأحداث.

وأخيرًا تحركنا، وعندما وصلنا معسكرنا الجديد في عَيْن البيضا على الحدود مع بَيْسان، وزعونا على الخنادق، ومعنا سلاحنا، والفرحة المشوبة بقلق الانتظار تغمرنا، سنكون على موعدٍ مع التاريخ، وسنمحق أولاد القِرْدة والخنازير، هذه المرّة لن يحول بيننا وبينهم حائل، أو وقف إطلاق نار يستغلونه، أو هروب لن يتمكنوه.

أصبحنا في منطقة حَسّاسة قريبة على الحدود، بَيْسان شمالاً، وجسر دَامْيَة جنوبًا، وأمامنا في الأَرْض الْمُحْتَلَّة جِسْر الشَّيْخ حُسين، وخلفنا على طول المسافة إلى أريحا والبحر المَيِّت، جِسْر النبي، على اسم القَائِد الانجليزي محتل بلادنا، وإلى الجنوب منه جِسْر الْمَلِك عبد الله المستخدم من قبل مواطني الْمَمْلَكَة الأُرْدُنِيَّة الهاشِمِيَّة للتنقل بين ضَفَّتيها.

ستكون جُسُور الفَتْح المبين، وسنصل جِسْر الشَّيْخ حُسين، قبل أن يلتفوا علينا، جنود العَدُوّ.

غبطنا أنفسنا لأن هناك من المكلفين أمثالنا، لم يتسلموا أسلحة ولم يعرفوا كيف سيقاومون فعادوا إلى منازلهم، أمَّا نحن فأنصفنا القدر، وقدم لنا فرصتنا المتمناة، هنا في فصّ

الجَمَل.

تأقلمنا سريعًا مع وضعنا الجديد، كجنودٍ على خَطّ التَّماسّ، وجدنا الفرصة أنا ويُوسُف السُرْيانيّ وربحي مُهاجِر، وآخرين، للذهاب إلى عَيْن السَاكُوت القريبة، التي لا تبعد كثيرًا عن معسكرنا، والتي تحوي ثلاث بِرك، واحدة صغيرة تصبُ فيها المياه التي تنبع من السَّفْح الغربي، وتسير المياه في قناة، تصبُ في بِركة أكبر، يصل عمقها في بعض الأماكن إلى ثلاثة أمتار، وإلى جوارها بِركة أخرى، تستخدم لرَيّ المزروعات، أصبحنا أصدقاء لأبي العبد صاحب الماتور الَّذي يوزع المياه على المزارعين، وتداولنا معه حكايات السّلام والحرب، ولم نرتح لعدم ارتياحه، وهو لا يكف عن القول بأن نهر الشَّرِيعة لا يبعد عنّا سوى مائة وخمسين مترًا.

-ما دخل هذا في الحَرْب يا (أَبو العبد)..!

*حروب الأنهار مخيفة، اسألوني أنا، واسألوا المزارعين، واسألوا الوديان والتلال إذا استطاعت أن تتحدث، كم مرّة مرت الجيوش من هنا، وأبادت المزارعين ومزارعهم، نحن نعرف، نصطدم ببقاياهم وأثارهم، أخشى أن يأتي آخرون سيصطدمون ببقايانا، وربّما يقولون، مثلما نقول، وُجِدَ هنا من فلح الأَرْض يومًا، ثُمَّ اختفى، ويحارون في كيفية

الاختفاء، لا يجب الْمُزَاح مع نهر الشَّرِيعة، ليس أسرع منه في تبديل الدُّول..!

ضحكنا كثيرًا مع أبي العبد، وسهرنا معه نشرب القهوة والشاي على ناره الليلية. سبحنا كلما استطعنا في بِرك عَيْن السَاكُوت، ننظف أجسادنا، ونُشَمِّسِها في قاع العالم هذا.

خلال نوبتي في الغفارة كنت أقترب أكثر وأكثر من النَّهر الخالد، أتأمله، تذهب عيناي مع مياهه الخَضْرَاء السريعة، وهي ذاهبة إلى حتفها في البَحْر المَيِّت، حتَّى أسماكه لم تُطَور أيَّة دربة، لتعلم بأنها لدى وصولها البَحْر ستنفق، لماذا لا تقاوم اندفاع المياه الخَضْرَاء والتي تصبح في بعض الأماكن متربة أقرب إلى الاحمرار؟ لماذا لا تبني أعشاشها بين البوص الكثيف، وتهنأ بموسيقى الطيور التي تسكن المِنْطَقَة؟ هل تجد الأسماك في موتها التراجيدي في المياه المالحة، حياة؟ أَمْ أنّها فقط لا تفكر، ولا تتدبر. نحن لسنا أسماكًا وإنما جنودٌ مستعدون، لن نكون ضحايا البَحْر الأكثر ملوحة، وإنما سنكون أصحاب الظَّفَر.

على طول نهر الأُرْدُن، صنع الجنرال اللنبي أسطورته، ونفذ ما تم تسويقه بأنه أكبر خدعة حَرْبيَّة في التاريخ، بعد خدعة حصان طروادة، حين بنى جسورًا على النَّهر، ووضع خيامًا

على طوله، جلبها مِن مصر ومعظمها كان ممزقًا، ونشر المدافع التي غنمها من العثمانيين موجهًا إياها نحو العثمانيين المُعَسْكَرين شرق النَّهر، وأمرَ جنوده بوضع عشرة آلاف بطانية على الأشجار في وادي الأُرْدُن، بطريقة تجعل من يراها يعتقد بأنها خيول جاهزة تنتظر الركوب للمشاركة في الغزو.

بمساعدة لورنس العَرَب، جهز اللنبي جيشًا كبيرًا وهميًا، جعل العثمانيين وحلفاءهم الألمان يقعون في الخدعة، وفي النهاية انتصر البريطانيون، وحليفهم الشريف حُسين قائد الثورة العربيّة الكبرى، التي دحرت الأتراك، وحلت الانجليز مكانهم، ولطالما سخر الأستاذ شَرِيف، وهو مجبر على تدريس الثورة العربيّة الكبرى ومآثر الهاشميين، في مادة التاريخ، في مدرسة إرطاس، من التاريخ الَّذي كان يحلو وصفه بالمزيف، قائلاً: «ذهب الأتراك وجاء الإنجليز، جمل محل جمل بَرَك».

قبل سنوات قليلة أصبح النَّهر عنوان الصراع بين إسرائيل ودولنا العربيّة، عندما قررت الدَّوْلة التي أُقيمت على الجزء الأهم من أرضنا، في أواخر الخمسينات تنفيذ مشروع لنقل جزء من مياه النَّهر إلى النقب، فأثار ذلك غضبنا، وعُقدت عدة مؤتمرات قِمّة للقادة العَرَب، الذين قرروا تحويل روافد

نهر الأُرْدُن ودعم سوريا لتنفيذ ذلك، للقضاء على مشروع الاحتلال بسلب مياهنا، فاعتدت دَوْلَة الاحتلال على الأراضي السُّورِيَّة، وظَلَّ النَّهر مثار صراع حتَّى وصلنا إلى هذه اللحظات التي ستكون حاسمة، وسيعود النَّهر لأصحابه.

نهر الشَّرِيعة هو وحده الَّذي أبوح له بمكنوناتي، التي أخفيها في حُشاشة كبدي، في ليالي الغفارة، وفي هدوء غريب ومبالغ فيه نسبة لما تنتظره المِنْطَقَة من أحداث، تحضر أُمّي، أُحاول لملمة ملامحها، لأسألها لماذا تخلت عني؟ ولمن كانت تتركني وهي تقذف بنفسها في البِركة التحتا الضخمة؟

لم أتجاوز الثالثة عندما قررت أُمّي ابنة العشرين عامًا، أن تُودع دنيانا، ولكنَّها لم تقرر أخذي معها، اكتفت بأُختي الرَّضِيعة، قَصَدَت بِرك سُلَيْمان، دارت حول مُجمع المياه المحتجز قبل سيلانه إلى القُدْس، واختارت البِركة التحتا، أعظم البِرك الثلاث وأحدثها، على طرف قريتنا من الغرب، وقذفت بنفسها في المياه، وهي تحتضن رضيعتها بحرص مَن يذهب في مشوار ممسكًا بيد طفله أو طفلته كي لا تضيع في زحام المدن والنَّاس، ولكنَّها تركتني أنا، ولا أعرف لماذا؟ عِرضةً للضياع في زحمة المدن والنَّاس.

رمى عددٌ من شُبَّان قريتنا الموجودين حول البِركة أنفسهم

خلف المجنونة التي تنتحر حاملة معها شيئًا، لن يمضي وقت طويل حتَّى يعرف ناس القَرْيَة بأنها ابنتها وابنتهم.

الانتحار في بِرك سُلَيْمان الثلاث، ليس نادرًا بالنسبة لمناطق القُدْس، وبيت لحم، والخليل، البِرك الرومانيّة الضخمة الممتلئة بالمياه، تشبه مسطحات مائية زرقاء، مغرية لموت مراهقات، ومراهقين فاشلين في الحبّ، هاربين من ظلم عائلي، وآباء تقليديين، وأمهات منهكات، وحتى الفاشلين في اجتياز امتحان التوجيهي، وجدوا في البِرك ملاذًا أخيرًا ونهائيًا من فشل سيلاحقهم، ولن يستطيعوا الهروب منه، وسيجدونه في نظرات النّاس، وقَسْوَة الأهل، وظلم الأقربين والأبعدين.

تمكَّن المنقذون المُتطوَّعون من إخراج أُمّي وشقيقتي، أهل قريتنا اكتسبوا دربة كبيرة في السِّبَاحَة، التي تعلموها في بِرك سُلَيْمان وبِرك أخرى زراعية في وادي إرطاس.لم تحتمل شقيقتي الرَّضيعة كثيرًا تجربة المكوث تحت الماء، فمددوها ميتة بجانب البِركة، أمَّا أُمّي فمددوها وهي ما زالت تتنفس، عاشت ليومين قبل أن تحقق أمنيتها، وتستعجل اللحاق بابنتها.

لماذا قررت أُمّي تركي أُغالب الدُّنيَا التي غلبتها؟ تركتني وأخذت شقيقتي في رحلة الموت، بماذا فكرت وكيف قررت تركي وحدي في رحلة الحياة؟ عليَّ أن أستحضر فأري

الشَّوكيّ ليخبرني، أين أنت يا فأري؟ أين تختبيء على ضَفَّة النَّهر؟ ستقول لي: لعلها من تجربتها التي لا نعرف عنها شيئًا، أيقنت أن الحياة لا تليق بنساء قريتنا فأخذت شقيقتي معها لتطمئن عليها معها هناك إلى حيث لا يعود أحدًا.

انتحار أُمّي صدم والدي، صُوبت الإشاعات نحوه باعتباره مسؤولاً عن انتحارها، ماذا فعل بأُمّي لتقرر أن تموت وتأخذ رضيعتها معها؟ ما هو السبب الَّذي يجعل أُمْ، أيّ أُمْ تُقدم على مثل هذا العمل؟ أي قهر قهرها؟ هذا ما لا أعرفه وأبحث عنه، هل ستبحث معي يا فأري الشَّوكيّ؟

ترك والدي القَرْيَة، وسكن في القُدْس، ثُمَّ قصد عمَّان، وعشت أنا مع جَدَّتي، التي أصبحت أُمًّا وأبًا وجَدَّة وجَدًّا لي، علمتني، وزوجتني، وما نزال نعيش سويًا.

اهتم والدي بي، كما سأعلم من جَدَّتي في السنوات الأُولَى بعد رحيل أُمّي، ولكنّه أَيضًا قرّر الرحيل، ليس فقط عن القَرْيَة، ولكن عن عالمها وعالمنا الَّذي يذكره بمأساة زوجته التي فضلت الموت على الحياةِ معه.

الاتصالات مع الوالد أصبحت متقطعة، ونشأ معي غضب عليه تنامى، ولا أعرف الآن إن كنت أحبه أَمْ أبغضه، أو إذا كنتُ أحمله مسؤولية رحيل أُمّي الأبديّ، أَمْ أنّني

سأعتبره مثلي ضحيَّة؟ جلاد أَمْ ضحيَّة؟ لا أعرف.

قل لي يا فأري، قل لي يا نهر، قولي لي يا شُجَيْرات وأنتن تتمايلن، وتتموجن، وأنتِ يا طيور مهاجرة ومقيمة، يا مالك الحزين، وأنت تقف على ساق شجيرة في النهر المقدس، فاردًا جناحيك حزينًا، غريبًا، ووحيدًا مثلي، أخبرني يا من تعمد المَسِيح في مياهك، وطهَّر جسمه وروحه، بما لا أعرفه عن نفسي وعن أُمّي، المياه تفهم على المياه، أعرف بأن ماءك لا يصلح للموت انتحارًا، أخضرك يدعو للقداسة، قدَّسَك النّاس، يأتون إلى هنا من الأقاصي والأداني، لملء زجاجة من مائك العكر، ليأخذوها معهم ذكرى قداسة تعميد المَسِيح.

ولكنك لا بد تعلم عن الإغواء في المياه الزرقاء، ماذا فعل الأزرق بأُمّي حتَّى قررت التلاشي فيه؟ لماذا لم تحبني، كما أحبت شقيقتي؟

أُمّي..أُمّي لماذا تركتني؟ أتعلمين أين أنا الآن؟ أَمْ لا يهمك ألّا تعرفي؟ أو ربَّما نسيتيني؟ ولم أعد ابنك، أنا الولد المنسيّ قرب البِرك، والأنهار، والجسور..!

أعلم أن موتَ النساء، بطرقٍ مختلفة ليس نادرًا في قريتنا، وكثيرًا ما أتخيّل وجه عليا العمياء، عندما علمت بأن أخوتها

قتلوا أُختهم وأُختها، كانت الأخت زوجة ثانية لزوجها من أبو ديس، ولها بنتان، تركت أبو ديس وجاءت إرطاس حردانة، وبعد فترة جاءها زوجها، والتقاها في الوادي، فحملت منه، وانتفخ بطنها، وأنجبت ولدًا في بيْت عائلتها، التي لم ترغب بأن يعلم النّاس بما حدث، فوهبوا الولد إلى دير في بيْت لحم، ومشت الأمور، أو هكذا اعتقدوا، إلى أن عاير رجلٌ، في لحظة غضب، أخوتها، فقرروا قتلها، ونفذوا المهمة، وعاشت عليا بحسرتها، في حين قصر الله في أعمار أُخوتها، عقابًا لهم كما استنتج أهل إرطاس.

هل تعرفين يا أُمّي، بأنني لا أستطيع تطوير علاقتي بزوجتي، ابنة أختك، جرى الزواج، كما تجري مياه هادئة في نهرٍ أهدأ، تعرف منبعها ومصيرها، ابنة خالتي رصيفتي في الشارع والمنزل، رغم أنّها أصغر منّي، هل أحببتها؟ لا أعرف ما هو الحب بالضبط؟ وكيف يحب رجل امرأة؟ هل أحببتي والدي؟ وكيف؟ وماذا جرى بينكما؟

أشتاق لابنة أختك، يا أمي، فيها بعض رائحتك، وأنا لا أشكو من تدابير الوَقْت والقدر، لا أعتقد أنّه كان يمكن أن تكون لي زوجة غيرها، إنّها كانسياب الماء من عَيْن إرطاس، في قنوات إلى وادينا الجميل، لا نعرف متى بدأ، وكيف استمر مع تبادل الدول، والنَّاس.

رائحة المرمية

التقينا عند عَيْن السَاكُوت، مُحَمَّد مراد، الشَّابّ المتوثب الَّذي سنعرف بعد عدة لقاءات بيننا أنّه لم يكن مجرد فلّاح أتى من قلقيلية ليعمل في الغَوْر، وإنما سنعلم بشكل غير كافٍ، ولكنّه كافٍ لنا في هذه المَرْحَلة، عن نشاطه في حركة القوميين العَرَب.

بدا وجود مُحَمَّد، مع ذلك، في هذا المكان، غامضًا، ماذا أتى به؟ وماذا يفعل في مثل هذه الظروف، ظروف حرب على الأبواب؟

بداية تواصلنا مع مُحَمَّد، بحضور أبي العبد، صديقنا المشترك، وبدا أنّه يعرف مُحَمَّدًا منذ مدة، وبينهما وشائج. في لقائنا الأوَّل معه طغت على حديثنا الأوضاع السياسيّة الراهنة، وحكى لنا عن موقف أهل قلقيلية بعد واقعة السَّمُّوع، عندما خرج النّاس، مثل ما حدث في المدن الأخرى، في مظاهرة صاخبة.

أبعد مُحَمَّد ذبابة عن وجهه في مساء ذلك اليوم في الغَوْر وروى بعد أن شفط عقب سيجارته بقُوَّة وأخرج الدخان

كثيفًا من منخاريه: «حضَّرنا للمظاهرة جيدًا، وقبل أن ننطلق، وصل كِبارنا، آباء، ووجهاء خبروا الحياة، وأرادوا إخبارنا بأنه ليس من الحِكْمَة التظاهر ضدّ الحكومة، وبينما كان النقاش دائرًا بيننا نحن المجانين وهم العقلاء، تصاغرت ومددت عنقي تحت الزِّيّ التقليدي لرئيس البَلَديّة الحاج حُسين صبري، فأصبحت تحت شرواله، ورفعته، ليواجه الجمهور، أخذته المفاجأة فأخذ يهتف: فِلَسْطِين عربيَّة.. فِلَسْطِين عربيَّة، وردد الجميع خلفه، وأصبح العقلاء في مقدمة المظاهرة، ونحن خلفهم، لقد أصبحوا قادتنا».

أشعل مُحَمَّد سيجارة أخرى: «أتعرفون؟ أحيانًا أشعر بأننا قساة اتجاه جيل الآباء، فنحن لسنا أكثر وطنيّة منهم، كل منهم خاض قصته مع الوطن، كما يجب أن يفعل، والدي مثلاً شارك في معارك كثيرة قبل وخلال وبعد النَّكْبَة، وغنم رَشّاشًا ألمانيًا من نوع هوش كيس، في معركة مُسْتَوْطَنَة رمات هكوفيتش، ويقول بأن هذا الرشَّاش أغلى عنده من ابنه مُحَمَّد، حضرتنا، ويدلل الرشَّاش بتزييته وتنظيفه، انتظارًا لمعركة الحسم، إنهم أُناس طيبون، رئيس البَلَديّة الَّذي حاول أن يمنعنا من التظاهر، فأصبح قائد المظاهرة، هو نفسه من استقبل لاحقًا وفدًا من وكالة التنمية الأميركيّة، بعد تبرعها بجهاز أشعة لمستشفى الأونروا، واستحق

التبرع السخيّ احتفالاً، أُلقيت فيه كلمات ومن بينها كلمة الحاج حُسين صبري، الَّذي شَرّقَ وغرّب، ثُمَّ قال بجدية للضيوف الأميركيين: أطالبكم باسم شعبنا والأحرار في العالم بالانسحاب فورًا من فيتنام الشقيق؟! صفق الحضور من أبناء القَرْيَة بحرارة واعتبروه بطلاً، هؤلاء الأبطال يريدون أن يحدثوا فروقًا في حياة ناسنا، ولكنّهم قد لا يعرفون من أين يجب أن تبدأ الأمور، وإلى أين يجب أن تسير؟ نحن علينا الإجابة على ذلك».

وفي يومٍ آخر سمعنا من مُحَمَّد عن ما حدث في مَجْزَرة قلقيلية يوم 10 تشرين الأوَّل 1956م، وهي إحدى الحوادث الهامة التي سبقت واقعة السَّمُّوع، وغيرها، والتي شَكَّلَت تراكمًا لما وصلت له الأمور إلى ما نحن عليه الآن، نتوثب للانتقام والتَّحْرِير.

كان مُحَمَّد طفلاً، يرافق والده الَّذي كان قائدًا للحرس الوطنيّ لعشيرة داود، ويسعد بمشاهد الخنادق، والبنادق، وأحاديث الرجال، المستعدين دائمًا لمواجهة أي عُدوان، بعد أن أصبحت قلقيلية بلدة حدودية، تدفق إليها اللاجئون، وبالقرب منها دَوْلَة جديدة عدوّة بُنيت على أراضيهم، هكذا بسرعة وبشكل بدا للناس وكأنَّه جرى بمساعدة قوى غير طبيعية، ولم يكن ذلك نهاية المسألة، فستقع معارك

وحوادث عديدة بين الجانبين.

مُحَمَّد حكَّاء قدير تمكَّن من تسميرنا ونحن نسمع حكايته:

«زوَّدَني والدي بإبريق الشَّاي الكبير، وطلب منّي الذهاب إلى المَنْزِل لتجهز والدتي الشَّاي بالمرمية، والعودة إلى خنادق الجَيْش في الشارع الغربيّ، أراد الاحتفاء بضيفٍ عزيز، اسمه عَدْنان أبو صالح داود، الجندي في الجَيْش العائد من مدينة الزرقاء الأُرْدُنِيَّة في إجازة إلى قلقيلية، ليعقد قرانه، ووجد وقتًا ليأتي إلى أصدقائه في الخنادق، ليشرب معهم الشَّاي.

جَهَّزَت والدتي الشَّاي، وحملتني الإبريق الساخن بعد أن وضعت قُماشة على يده لتخفف من السخونة على يدي، وشيعتني وهي تطلب منّي الحذر كي لا أدلق الإبريق، وليصل إلى مَن يجب أن يصل إليهم، الرابضين في الخنادق. عندما وصلت الاستحكام الَّذي يجلسون فيه وسط الخنادق، لم يبدِ والدي اهتمامًا بما أحمله، وبالكاد لحظ وصولي، كان مرتبكًا، ويجهد للاتصال بقيادة الكتيبة في عزّون، وعندما لم ينجح حاول الاتصال بقياده اللواء في رفيديا/نابلس.

استطعت أن أعرف من خلال ما يدور من حديث أن معلومات وصلت عن حشود للقوات الإسرائيليّة تحيط

بقلقيلية، منها آليات مطفأة الأنوار، وربّما تكون دروعًا قُدر ذلك من أصواتها المرتفعة. رأى والدي القِطَار الَّذي لا يبعد عن مواقع الأمن الوطنيّ سوى مائة متر يمرُّ مطفأ الأنوار، كان هذا قِطارنا ينطلق من قلقيلية إلى رأس العَيْن فاللّدّ، وكان أهلنا يسافرون فيه إلى بيروت ودمشق، وبعد النَّكْبَة أصبح من نصيب الإسرائيليّين، الذين استغلوا حتَّى المِنْطَقَة الحرام بيننا وبينهم لتسيير القِطَار، ويتذكر أهلنا بأن أوّل ناظر لمحطة قطار قلقيلية كان أمين الحسيني، نعم هو وليس غيره، من سيصبح سيف الدين..الحاج أمين. بدأ حياته الوظيفية من بلدتنا.

سنعلم لاحقًا بأن قُوّات العَدُوّ قطعت أسلاك الاتصالات العسكريَّة بين قلقيلية وعزّون لمنع الاتصال بينها وبين مقر الحرس الوطنيّ، وَوُضعت الألغام في بعض الطرق. كانت السَّاعَة تشير إلى نحو الثامنة والنِّصْف مساءً، وما أذكره كيف أن والدي أبدى اهتمامًا مفاجئًا بضيفه عَدْنان، وأَلَحَّ عليه بالعودة إلى بيته، لخطورة الوضع، وأن عليه أن يقضي الإجازة في منزله بين عائلته وليلتقي خطيبته، ولكن عَدْنان رفض المغادرة وقال بأنه سيظل مع أهله ورفاق السلاح، ليخوضوا المعركة التي بدت على الأبواب معًا، إضافة إلى أنّه العسكري الأكثر خبرة منهم، ودون أي نقاش، أعطى

نفسه مهمة تولي رَشّاش البرن.

ما لم ينجح به والدي مع ضيفه، نجح به معي، فلم يكن يحتاج إلى إصدار أمر لي بالعودة إلى المَنْزِل فوراً، والانتظار هناك، مع تحذيرات بألّا أذهب إلى أية مشاوير جانبية، وإنما الْعَوْدَة إلى المَنْزِل بخطٍ مستقيم.

كنت قَلْقًا وأنا في البيت، ولكن ليس أكثر قَلَقًا من والدتي وهي ابنة جيل يعرف معنى الاعتداءات الإسرائيليّة علينا.

بدأ الغزو، وأنا في البيت تحت حماية أُمّي، تأتينا أصوات الرَّصَاص، والقَلَق على مصير الوالد وصحبه الذين تُركوا يشتبكون مع العَدُوّ وحدهم، كان الجيران يمررون فيما بينهم بعض المعلومات عن الغزو، بينما طائرات العَدُوّ تقصف البَلْدَة، وتتقدم قواته في عدة محاور، تقتل وتهدم.

وبعد فترة وصل والدي غاضباً مقهوراً؛ نصف ثيابه مغطاة بالدماء، لم يتحدَّث معنا، وبدا أنّه لم ينتبه لأُمّي التي تمطره بالاستفسارات عمّا يجري، بحث قليلاً عن السُّلَّم الخشبيّ وأخذه، ولم يمنعني وأنا أجري خلفه، وربّما لم يرني، بينما أصوات الرَّصَاص والانفجاريات تدوي، وعندما وصل الموقع، أسجى عليه بمساعدة رفاقه جسد صديقه عَدْنان، لم تكن الدِّماء على ثياب والدي إلا دماء الشهيد الَّذي حملت

إليه إبريق الشَّاي قبل ساعتين، وها هو الآن مسجى على سُلَّم. شعرت برائحة المرمية تملأ الأجواء، ولا أعرف كيف تمكَّنت من احتلال مسامي وسط روائح البارود والدماء.

عندما انسحبت قُوّات الغزو في الصَّبَاح، وصل النّاس ليتفقدوا النّاس، لنكتشف استشهاد نحو سبعين من النِّسَاء والأطفال والرجال، نجحت قُوّات العَدُوّ بقتلهم، ومن بينهم سجناء في مَرْكَز الشُّرْطَة، رفض قائد المركز أبو مشهور إطلاق سراحهم، خشي تحمل المسؤولية أمام بيروقراطية رؤسائه، فقتلوا بعد نسف المركز، ومنهم من دعستهم المجنزرات التي دخلت قلقيلية. يحتاج النّاس المكلومون إلى ما يُعزيهم، فوجدوا في قتل اثني عشر من عائلة عبد المنعم قادوس، ما يرطب حزنهم بفقدان أحبتهم، فهناك دائمًا قَدَر أخف من قَدَر، كما آمنوا، ومن يرى مصيبة غيره يقبل بمصيبته. رأيت الْمَلِك حُسين يترجل من دَبّابة بالقرب من مستشفى الأونروا، جاء ليتفقد الضحايا، وعندما رأى رجلاً يبكي شهيده على رصيف الشارع ربت على كتفه مواسيًا، لم يسمح لنا الجَيْش بالوصول إلى مَرْكَز الشُّرْطَة المُدَمّر خشية من وجود ألغام تركها الغزاة، فوقفنا بعيدًا نراقب، استمر العَدُوّ في مذابحه هنا وهناك، وبعد نحو عشرين يومًا، وقعت مَجْزَرة كفر قاسم. لن أنسى أبدًا الشهيد عَدْنان الَّذي حارب

حتَّى الطَّلْقَة الأخيرة في جبهة آل داود في حَيّ جعيدي، لقد كبرت مع غيري، على روائح المرمية في تلك اللَّيْلَة، وهي تطغى على روائح الموت، فاخترت طريقًا آخر».

عندما أنهى مُحَمَّد حكايته، سأله يُوسُف عدة أسئلة في تفاصيل ما حدث، أمّا أنا فصمت أسأل نفسي، عن متى وكيف سأختار طريقي، وهل أنا هنا في الجَيْش، في موقعي الَّذي اخترته، أَم الَّذي اختاروه لنا؟

القَذِيفَة الأُولَى

عَلِمنا عن كيفية توزيع قواتنا على جانبي جِسْر دَامْيَة. انتشرت قُوّات التَّحرير التابعة للجيش الْعِرَاقِيّ، بالإضافة إلى لواء لجيشنا الأُرْدُنِيّ ولواء في أريحا وهما من الألوية المُدَرَّعة، ومن المفترض أن يشكلا قُوّات الضَّرب الرئيسة لجيشنا، أمَّا لواء القادسيّة، لواءنا، فنحن متمركزون قبالة بَيْسان، وفي جنين رابط لواء، ولواء آخر بالقرب من طولكرم، وفي القطاع الأَوْسَط نشر الجَيْش أربعة ألوية: لواء المشاة بالقرب من قلقيلية، وآخر بالقرب من اللطرون، واثنين حول القُدْس، وفي الجنوب تم نشر لواء المشاة حول الخليل.

الأمور تسير كما يتوجَّب أن تسير لتحقيق النَّصْر في الحَرْب، وكنا ننتظرها، ساعة الصِّفْر تلك، دقيقة الانطلاق، دَقَّت ساعة البدء في دَرْب النَّصْر.

في هذا المُناخ الحماسيّ وزعوا علينا ما اعتبرت هَديّة، وجرى همس بيننا، بأنها من الشُقيري، وهي عبارة عن دينارين لكل فرد، وعلبة سجائر، وعلبة مُلَبَّس، فرحنا بالهديّة الرمزيّة، التي

اعتبرناها حلوانا مبكرًا عن النَّصْر القادم، وامتننا للشُقيري، الَّذي يعرف ماذا يفعل ويهتم بالتفاصيل الصغيرة هذه، ودعونا الله أن يسدد خطاه، ويلم شمل شعبنا بعد النَّصْر.

لم يكن لنا كمكلفين، أيَّة مخصصات مَالِيَّة، بعكس الجنود الذين يقبضون رواتب آخر كلّ شهر، ولم يستثن الشُقيري من هداياه أحدًا، فوزعت على الجميع، جنودًا ومُكلفين.

يوم الاثنين في 5 حزيران 1967م على السَّاعَة التاسعة والنِّصْف تمامًا، أطلقنا أوَّل قذيفة على بَيْسان الْمُحْتَلَّة، من موقعنا خلف قَرية عَيْن البيضا، الرابضة بيننا وبين الحدود، ونحن على فصّ الجَمَل خلفها، وعندما أُطلقت أوَّل قذيفة، كنّا ليس فقط متأهبين في خنادقنا، كما يتوجَّب على جنود مُقدمين على حربٍ حاسمة، ولكنّه التأهب الممزوج بالاعتداد، والكرامة، وقطف فرح النَّصْر النهائي. شعور نَصْر في سبيلنا لتحقيقه، ما أندره من شعور..! يشعره المرء مرّة واحدة في العمر.

عندما تلقينا الأوامر بالتأهب والإطلاق، شعرنا بأن ثقلاً انزاح عن أرواحنا، واقترب خلاصنا، خلاص فردي وجماعي.

فوق الجَبَل يربض مدفع روك لانشر المضاد للدبّابات، يشبه

الأربيجي ولكنّه لَا يُحمل على الكَتِف، وإنما تحمله الجبال، حتَّى لو كان اسم إحداها فصّ الجَمَل. صناعة أميركيّة، خندقه منخفض لكي يكشف الدَّبَّابَة، ويكون أعلى منها.

أنا في خندقي أحاول لملمة مشاعري والتحكم بها، نتواصل مع الخنادق الأخرى بشبكة اتصال، ولدينا رَشّاش 1006، المتطور عن الستن والبرن، كنتُ عدد ثاني لرشاش الـ 1006، ولدينا جيوب في الخَنْدَق، كلّ جُنديّ أو اثنين معًا.

عدد ثاني يعني أن أُحضِّر المشط، مساعد العدد الأوَّل الَّذي يُطلق النَّار، ويحدد الهدف، وأنا أمسك الشَّرْشور، وبالنسبةِ لي ما أعظمها من مَهَمّة!

القَذِيفَة الأُولَى التي دَكَّت أرض العَدُوّ، التي ستعود كما كانت دائمًا، منذ فجر التاريخ أرضنا، أتبعناها بقذيفةٍ ثانية ثُمَّ ثالثة، رأينا الدخان، والغبار، وسمعنا الأصوات، وبدأنا بتلقي التهاني من بعضنا، سنكون غدًا، في يافا وتل أبيب، لأننا نحن من كان لنا السبق، لقد بدأنا المَعْرَكَة، ولدينا أفضلية، بلادنا ستتحرر، وسيزول الكابوس، ولنبدأ مسيرة الوحدة العربيّة. لطالما سمعت المختلفين: الوحدة تؤدي إلى تحرير فِلَسْطِين، أَمْ أنَّ التَّحرير سيؤدي إلى الوحدة العربيّة؟

ما انشغل به المنظّرون ونشطاء الأحزاب واختلفوا وتصارعوا عليه، ها نحن هنا مِن على فصّ الجَمَل، وفي أذياله نُقدم الجواب، لطالما كان «السَّيْف أصدق أنباءً من الكُتبِ».

صمدت معنوياتنا المرتفعة حتَّى السَّاعَة العاشرة أو العاشرة والنِّصْف صباحًا، عندما توقفت قذائفنا عن السقوط على بَيْسان التي ستغني لها فيروز وتناجيها بكل حزن العالم، وصمت الروك لانشر، وسقطت أوَّل قذائفهم خلف فصّ جملنا، أمَّا الثَّانِية فسقطت بالقرب من حَمَّامات مُعسكرنا، وكذلك الثالثة والرابعة والخامسة، أمَّا السادسة فسقطت على جبلنا بالقرب من الروك لانشر، على بعد سبعة أمتار من خندقنا، أصابت علي المدفعجيّ، فسقط عن فصّ الجَمَل، يتدحرج حتَّى خندقنا، أمَّا الروك لانشر فقفز إلى مكانٍ آخر، لم أستطع تحديده. تمكَّن العَدُوّ من ضبط هدفه، لقد حددوا موقعنا بدقة، فتسارعت القذائف تسقط على فصّ الجَمَل والخنادق. تمكَّنت من رؤية المكان الَّذي أصبح فيه الروك لانشر، على بعد 15 مترًا أعلى خندقنا، رأيت بقاياه ميتة صامتة، وهالني حياديته وكأنَّه لَا دخل له في مَعْركة التَّحرير، وفي حق النّاس بأرضهم، وفي مسائل الأخلاق والعدل والخير.

ليس هكذا تصمت المدافع، وتتحول إلى حديدٍ بِلا قلب

وبِلا مشاعر، لماذا مُتّ بسرعة يا روك لانشر؟ شكلت لنا أملاً فكيف أصبحت ألمًا؟

سقطت قذيفة بمحاذاة خندقنا، شعرت بأن هناك من ضربني، أصابني، أوجعني رغم أننا أخفضنا رؤوسنا وأجسادنا، وخُفضت أجنحتنا، وعلياؤنا. تساقطت الحجارة والصرار فوق رؤوسنا، حمتنا الخُوَذ الحديديّة، أخذنا الأَرْض خَشْيَة من الشظايا، ومع تواصل سقوط القذائف، تهدم الخَنْدَق، شعرت بأنني دُفنت تحت التُّراب والحجارة، ما زلتُ في قوقعة المفاجأة وصدمتها، آخر ما تخيلته أن أُدفن حيًا، نحن جئنا إلى هنا ليس لكي نُدفَن، وإنما لنَدفِن الأعداء.

كيف سنرد عليهم؟ هذا ما فكرت به، تَحَسَّسْتُ مُسَدّسي، ولكن أين هم؟ هل ضربناهم على هدفٍ موجع؟ وهل صدقت استطلاعاتنا وإحداثياتنا؟ أَمْ أن قذائفنا سقطت في بِرك السَّمَك في بَيْسان التي كنّا نستطلعها من بعيد قبل الحَرْب؟ بَيْسان هذه التي قيل بأن نخلها لا يثمر حتَّى خروج الدجّال، أي دجّال أوقعنا؟ بلدة الخمر هذه التي تغنى بها شعراء العَرَب، بأي سُكر ستشملنا؟ هذه التي أغوت حتَّى شاعر الرَّسُول حسّان بن ثابت:

نَشْرَبُها صِرْفاً ومَمْزُوجَةً

ثُمَّ نُغَنِّي في بُيوتِ الرُّخامْ
من خَمْرِ بَيْسانَ تَخَيَّرْتُها
تُرْياقَةً تُوشِكُ فَتْرَ العِظام؟
هل فُتِرَت عِظامنا سريعا؟

أصبحتُ غائبًا عن الدُّنْيَا وعن الوعي، أو ربَّما لم أكن غائبًا، فترة ضبابية حرجة عشتها تحت الرَّدْم، وعندما توقفت قذائفهم، وساد صمت، بدأنا ننهض، وظهر القَائد زلّوم، وأخذ هذا الخليلي الطيب المتفائل دائمًا، بتفقدنا، ويَلُفّ على الخنادق في عملٍ بطولي، لا يقدره إلّا أمثالي من العَسْكر، غير خائف من القذائف التي قد تتجدد، رأينا في عينيه القلق والاهتمام، وعندما وصلني لم يخطر على بالي سوى أن أسأله: لماذا لَا يخاف؟ وهل يعرف ماذا حدث بالضبط؟ وهل تفاجأ مثلي؟ أَمْ أنّه من تجربته في الجَيْش النظاميّ، يعرف ما هي الحَرْب أكثر منّا، ولكنّه عندما رآنا على الحالة التي كنّا فيها، هو من سألنا:

*هل أصاب أيّ واحد منكم مكروه؟

أجبناه:

-لَا..!

*الحمد لله، المهم المعنويات، لتكن روحكم المعنوية عالية

دائمًا.

تنبهت إلى رَجُل الروك لانشر الممدد بجانب الخَنْدَق، فنبهت القَائِد زلّوم إلى علي المدفعجي المصاب، فأمر بمن أتوا وحملوه بعد أن تبيّن بأن من كان أملنا المستعد على الجَبَل، ما زال حيًّا يتنفس، وكدنا ننساه وسط ذهولنا وخوفنا.

لم تطل حالة الإرباك، والصَّدْمة، فبعد نِصْف ساعة هتف المنادي، بأنه يجب على كلّ منّا أن يُحضّر نفسه، وسلاحه، ويضع الذخيرة في الحقيبة استعدادًا للانطلاق.

الانطلاق؟ ولكن إلى أين سننطلق؟ هل سنتخلى عن موقعنا المتقدم هذا؟ هل سنتقدم أَمْ سنتَقَهْقَر؟

في الحروبِ لا يعلم الجُنْدِيّ كلّ شيء، وربّما هو أخر من يعلم..!

وادي المالح

أنبأنا القَائِد زلّوم، بحماسةٍ، متجاهلاً ما حدث لنا، محاولاً تبديد الإحباط المُخَيَّم علينا، بأننا سنتوجه مِن هنا، من الأغوار الشَّمالية، إلى وادي التُّفَّاح في نابلس، لنكون مع جيشنا هناك لندافع عن المدينة التي يُتوقع وصول جَيْش العَدُوّ إليها، وقال لنا بأن معركة سحق العَدُوّ ستكون هناك.

رغم أننا لم نفهم بالضبط لماذا نابلس؟ ولماذا يجب سحق جَيْش العَدُوّ هناك؟ إلّا أن الفرحَ دبّ من جديد بيننا، سنُغَرِّب الآن، وسنظهر كلّ ما لدينا لسحق جنود العَدُوّ الغاشم.

نزلنا من الجَبَل نحو المَرْكَبات بشكلٍ منظم، فئةً فئة، وحظيرةً حظيرة، السَّرِيّة هي عبارة عن ثلاث فئات، والفئة عبارة عن ثلاث حظائر، فكل حظيرة تصل، تجد في انتظارها تركات الثلاثة طن، لتحميلنا.

سننسحب من شويعر وفصّ الجَمَل وعين البيضا، سننسحب من خَطّ الدفاع الأوَّل، إلى خطوط دفاع داخلية، لن نتقهقر، فقط إعادة تموضع لما فيه خير المَعْرَكَة، ونصرةً

لإخوانٍ لنا، كنت أعرف بضعة أشخاص من المرابطين في نابلس، أحدهم (أَبو سمير) من قريتنا مجند منذ سنوات في الجَيْش النظامي، ولعله يستعد الآن ليخوض معركته بشراسة ضدّ جنود العَدُوّ.

عندما نزلتُ من المُعَسْكَر شعرتُ بأن قدمي رَطْبَة، مبلولة، وأحسست بالألم، فرفعت الطماقة ذات اللون الكاكي التي توضع فوق البسطار وتشدّ البِنطال، وإذ بالدَّم يسيل، أدركت بأنني مصاب، وقلت لنفسي: مصيبة..!، خَشْيَة أن تعيقني الإصابة عن المشاركة في المَعْرَكَة المقبلة، لكنّني قررت في لحيظات بأنني لن أهتم، وبأنها لَا تعدو أن تكون إصابة سطحية، ولو كانت غير ذلك، لما تمكَّنت من السير، قدم لي صديقي يُوسُف السُرْيانيّ قطعة قُمَاش، لففتها على الجُرْح، وركبنا التركات، التي تحركت باتجاه وادي المالح، التي طوحتنا حتَّى وصلنا مع المغرب. توقفت التركات في منطقة فيها خنادق قديمة نبتت الأشواك فيها، وقيل لنا بأننا سنتمركز في هذا الموقع، انتظارًا للأوامر.

نظفنا الخنادق من الأشواك والأتربة والأفاعي، ونحن نحوس في ظلامٍ دامس. الإضاءة ممنوعة، لا لوكسات، ولا أيّ نوعٍ من الإضاءة، فنحن في حربٍ، ومن الخطر أن نتجاهل أيَّة تعليمات، أو نتجاوز قواعد وقوانين الحروب،

يبحث العَدُوّ عن أيَّة ثغرة لإيلامنا وتدميرنا، وعلينا أن نُفَوِّت أيَّة فرصة لكي لا يفرح العَدُوّ ولا ينجح، نحن مَن سيفرح وينجح ويؤلم العَدُوّ.

قتلنا العديد من الأفاعي والعقارب بغِلٍّ وكأننا نريد أن نُعوض عن إخفاقنا تجاه العَدُوّ في يوم الحَرْب الأوَّل، وننتقم من تعبنا، وسواد الظلام الَّذي خيم علينا، وكأننا لا ينقصنا سوى هذا الظلام، مكللاً نهارنا المسود. رفضنا أن يكون الظلام الهابط ثقيلاً علينا، عاملاً مساعدًا على إحباطنا، وحتى بعد تنظيف الخنادق لم يتوقّف قتل الأفاعي المسكينة، التي تظهر لنا بين الوَقْت والآخر وكأنّها لَا تريد أن تنتهي، لقد تأذت الأفاعي من غِلّنا، وحقدنا، ولو تم الأمر في ظرفٍ آخر لربما كنّا أكثر رحمة، ولم نقتل منها إلّا القليل، ولربّما تركنا معظمها يذهب في حاله، يلتقط رزقه ويبحث عن وطنٍ بعيدًا عن معسكرنا، ولكن حظها وحظنا، أننا ظهرنا لها في بداية مُربكة لحربٍ، تشوَّقنا لها كثيرًا.

علمنا أن هذه الخنادق أسفل وادي المالح، حفرها الجَيْش الْعِرَاقيّ في عام 1948م عندما أتى مع الجيوش العربيّة الأخرى لتحرير فِلَسْطِين، وطرد اليهود، ولكن «ماكو أوامر»، لم تكن هناك أوامر، فتقهقر العَرَب والعراقيون، وبقي اليهود حتَّى نُنفذ نحن المَهَمّة المُقَدَّسَة، وسنُقبِل على

ذلك بفخرٍ وشرف مهما كلفنا ذلك من تضحيات، سنموت من أجل وطننا، يطيب الموت من أجله.

في هذه اللَّيْلَة، خرجتُ للغفارة ومعي بُندقية، ورغم الإرهاق كنت شديد الانتباه والصَّبْر انتظارًا للفجر، في انتظار الأوامر لخوض المَعْرَكَة الحاسمة، والتحرك لنصرة أخوتنا في وادي التُّفَّاح.

وترنمت على لحن أغنية مشهورة، بكلماتٍ رددتها كثيرًا للتغلب على تعبي ونعاسي:

يا وادي التُّفَّاح

طاح العنب طاح

سمعني غفير آخر، فاقترب منّي وهو يغني بصوتٍ عالٍ ومرح الأغنية الأصليَّة:

يا أَبو عبد الفتَّاح

طاح العنب طاح

نادي على الناطور

يعطينا المفتاح

أنعشني صوته وروحه الجميلة، في ليل الغَوْر، ونحن في انتظار ساعات حاسمة، ونحتاج إلى نسمات هواء ونسيم روح.

تفقدنا مدير الغفر، وشدد على الغُفراء ألّا تأخذهم سِنَة وَلَا

نَوْم، وأن يكونوا على قدر المَهَمّة والظرف التاريخيّ الحسّاس، وأجبناه بأنه يستطيع أن يعتمد علينا ما شاء له الاعتماد، فخلفه رجال لو طلب منهم أكل الحجر، فسيطحنوه، وكأنَّه بسكويتٍ هش.

عن الطَّرَش والْعَمَى

عندما أوهنني الإرهاق، جلستُ مستندًا إلى صخرة، مقاومًا رغبة لا تقاوم لإشعال سيجارة، ولكنّني لن أفعلها، لن أكون مسؤولاً عن كشف موقعنا للعَدُوّ، وعادني ما ذكرتني به جَدَّتي عندما استدعيت للتدريب، عن حمديّة وعالية، عمتها، وخالتها، مخبرتا حَلِيمَة عندما أقامت في منزل السِتّ لويزة، أصبحت حَلِيمَة علمًا في الأنثروبولوجيا، والمونوغرافيا، والإثنوغرافيا، والأثنولوجيا، والجينيالوجيا، ونصف دستة أخرى من «اللوجيا» هذه التي لا أعرف ما ستكون وعلمت عنها من اللواتي لم ينقطعن عن زيارة القَرْيَة مقتفيات أثر حَلِيمَة.

مخبرتا حَلِيمَة، واحدة عمياء، والأخرى طَرْشاء. ومن خلالهما، تمكَّنت حَلِيمَة من تقديم ما يدهش في عدة مجالات عن الإنسان الفلسطينيّ، في تقاليد الزواج، والولادة، والموت نتج عنها خمسة مجلدات تحتل مكانة متقدمة في دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية، إضافة إلى آلاف الصُّور التي لم ينشر معظمها، ولطالما تناقشنا نحن

من اعتبرنا أنفسنا مثقفي القَرْيَة، مع الأستاذ شَرِيف، في طريقة لترجمة الكتب ونشر الصُّور.

جَدَّتي شاهدة على نشاط عمَّتها حمديّة الصماء، ورفيقتها عليا الضريرة، التي كانت تتولى التفاهم والحكي مع حَلِيمَة ولويزة، بلغة وسيطة مبتكرة.

قالت لي جَدَّتي: عليك أن تعرف ما فعله الطَّرَش والْعَمَى..!

كانت حمديّة وعليا ولويزة وحليمة، بمثابة لجنة البحث، يجلسن الساعات في غرفة السِتّ لويزة، في مناقشة ما تجلبه حمديّة وعليا، ويتم إخضاعه للتدقيق والتمحيص.

في العشرينات، عندما جاءت حَلِيمَة لأوَّل مرّة إلى قريتنا، كانت إرطاس قَرية صغيرة، وأهلها يعيشون في كهوفٍ ومنازل صغيرة مبنية من الحجر على ضفة الوادي الشَّمالية.

عند أسفل المنازل بجانب النبع كان الْمَسْجِد وما يزال وعلى التَلّة المقابلة دير راهبات الجَنَّة المقفلة، وفي الوادي وعلى امتداد جوانبه المدرجة الكروم والبيارات والحدائق والحقول.

«أُخْتِي الْعَرُوسُ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ، عَيْن مُقْفَلَةٌ، يَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ»، سيأتي في عام 1895م، مَن سيقف أمام العَيْن، ويسحره المكان، إنّه الأسقف ماريانو سولير، من الأرغواي، رئيس

أديرة أخوات مريم، الَّذي جاء حاجّاً ليتبرك من أرضنا المُقَدَّسَة، وعندما وصل بَيْت لحم، سيقوده أنفه متشممًا روائح ثمار وادي إرطاس، وسيراه كموج البحر المتلاطم بالمشمش، والدراق، ولكنّه موج أحمر، وسيجد في الجنّة المغلقة، والعين المقفلة، والنبع المختوم، عبق مريم العَذْرَاء، وليست حبيبة الْمَلِك سليمان، التي يشير الإغلاق، والقفل، والختم، إلى عذريتها. نظر إلى الوادي بين سلسلتي جبلين، ورأى العَذْرَاء في كل زهرة، ووردة، وذرة تراب، وبدت له الطبيعة وكأنها تعزف موسيقى تأتي من السَّماء تخترق أذنيه باسم عذراء فِلَسْطِين التي أضحت منذ زمن طويل عذراء العالم، فقرر أن يبني لها مزارًا في جنّتها المقفلة.

سيعود ماريانو بعد عامين إلى الجنّة المغلقة، حاملاً معه هذه المرّة، أموال التبرعات التي جمعها ليشتري أرضًا في سَفْح جبل (أبو زيد) لإقامة دير راهبات الجنّة المقفلة، الَّذي سيحتل المشهد على الضَّفَّة الجنوبية لوادي إرطاس، مُجمع من الحجارة المحليّة، التي تُشكِّل لوحة عجائبية، كأنها نيزك سقط من الجنّة، على غفلةٍ من تاريخ قريتنا المرير.

معظم السُّكَّان كانوا فلّاحين وما زال معظمهم كذلك، وعاشوا في مجموعات من العائلات الأَبَوِيَّة، والبيت المثالي يتكون من رجلٍ وزوجته وأولادهم غير المتزوجين وأبنائهم

المتزوجين مع زوجاتهم وأولادهم، ومعظم الوَقْت يعيشون في سكنٍ مُكَوَّن من غرفة واحدة. وعند موت الأب، يتمّ توزيع أملاكه، ويؤسس أولاده المتزوجين، بصعوبة، بيوتًا مُستقلة لهم.

الزِّراعة هي القاعدة الاقتصاديّة في إرطاس، زرع الفلاحون محاصيل الحبوب مثل القَمْح والشعير، بالإضافة إلى العديد من الفواكه والخضراوات بما فيها التُّفَّاح والأجاص والمشمش والدُرّاق والعنب والتين والزيتون والبندورة والفاصوليا، والأهم الخسّ، بعض العائلات كان لديها قُطعان من الغنم والماعز وعدد قليل كانوا يملكون البقر. أمَّا الحمير والبغال فاستعملت، ولا تزال تستعمل للحراثة ولحمل الأشياء الثقيلة وللنقل.

ومع أن الجِمال كانت تُستخدم في المواكب الاحتفاليّة كموسم النَّبِيّ موسى، أو في عيد العَذْرَاء في شهر آب، الَّذي يُسمى فصح الصَّيف، إلا أنّه من غير المعروف إذا كان أحد من أهل القَرْيَة امتلك جملاً. أمَّا الدجاج والحمام والنحل فكانت وما زالت تُربى في القَرْيَة. المنتجات الزراعية المخصصة للاستهلاك المنزلي كانت تخزن في البيوت وفي مخازن كهفية تحت الأَرْض، ويتم بيع الباقي أو مبادلته في بَيْت لحم والقُدْس لتلبية الاحتياجات غير المتوفرة في القَرْيَة. بعض

الرجال دخلوا في خدمة الحكومة بينما عمل آخرون لفترات مؤقتة كعمالٍ في المدن والبلدات الفلسطينيّة أو في الخارج. وفي معظم الأحيان لجأوا لذلك، بعيدًا عن أرضهم لكي يدفعوا مهور العرائِس أو لبناء منزل جديد في القَرْيَة.

أليس كذلك يا فأري الشَّوكيّ؟ لماذا أنت مختفٍ وتتركني وحيدًا مع ذكرياتي ودروس الأستاذ شريف التاريخيّة؟ ليس مهمًا، سأتذكر في هذه السَّاعَة وحدي، الوحدة تكشف، وتحفر عميقًا بين الضلوع.

في مثل ظروف إرطاس تلك، وصلت حَلِيمَة إلى قريتنا، وكانت محظوظة بوجود السِتّ لويزة، التي شكَّلت مصدرًا ثمينًا وعونًا لها في أبحاثها، ومنزلها مكَّن الطالبة حَلِيمَة من الإقامة في القَرْيَة في وقتٍ لم يكن من الممكن فيه أن تقيم امرأة غير متزوجة وحدها أو تسكن مع عائلة إرطاسية في غرفةٍ واحدة. كانت السِتّ لويزة على معرفة حميمة بأهل إرطاس وثقافتهم، ويعود الفضل لها بتعريف حَلِيمَة على عليا إبراهيم وحمديّة سند، اللتين ستشتهران بعد ما ظهرتا في اقتباسات الدكتورة حَلِيمَة لاحقًا، والتي ستصبح بطلتي.

في الفَجْرِ، وعندما بدأ النعاس يطرق جسدي كلّه، لم يظهر فأري الشَّوكيّ، وإنما ظهرت في الجو طائرة السوبر ميستير،

طائرة فرنسية قاذفة مقاتلة تستخدمها قُوّات العَدُوّ الجوية، وهي أوَّل طائرة أوروبية غربية أسرع من الصَّوْت.

حلقت السوبر ميستير المسلحة بمدفعين و18 صاروخًا حول خنادقنا، وما إن اختفت، حتَّى سقطت قذيفة، لم يكن ذلك مبشرًا في فجر اليَوْم الثَّانِي للحرب. لم يُصب أيّ منّا، لقد سقطت القَذِيفَة بعيدًا عن خنادقنا، هل أرادوا أن يحذرونا؟ أو أن يرونا قوتهم؟ أَمْ هي رسالة لنُشرق إلى الجِسْر وننسى أمر رفاقنا في نابلس؟

غاب النعاس، وحضر الانتباه، وبعد نصف ساعة من سقوط القَذِيفَة، طُلب منّا الاستعداد للرحيل، وعندما مرَّ القَائِد زلّوم من جانبي سألته:

*إلى أين سنذهب؟

نظر لي، نظرة احترت في تفسيرها، وقال وهو يواصل المسير:

-لَا أعرف..!

لكنّه كان يعرف..! مثلما أعرف الآن أن عليَّ، أن أكون أطرش وأعمى في هذه الحَرْب، لا أسمع ما يمكن أن يكون كذبًا، ولا أرى ما يؤدي إلى الهزيمة، وأحاول ألّا أنتج مزيدًا من الطَّرَش والْعَمَى..!

يمكن لي أن أُدهش الآن، إذا قارنت بين ما قدمتاه طَرْشاء

إرطاس وعمياؤها، للحياة، خلال دبيبهما عليها، وضجيج مرهفي السمع، والمبصرين من الثقلاء، والَّذي لا ينتج إلا المزيد من الطَّرَش والْعَمَى..!

أرادتني جَدَّتي أن أكون في الحَرْب، أطرش وأعمى، ولكنّني سأصبح شاهدًا على ثنائيات فِلَسْطِين التي لا تنتهي: ملح التُّراب، وحنظل البيدر..!

الذين لديهم الاستعداد للذهاب بعيدًا في الحَرْب، والذين يضعون الكوابح..!

ولكن هل أنا أستبق الأحداث، يمدني فجر وادي المالح بالتشاؤم؟

هذا ما سأعرفه قريبًا جدًا..!

سأكون مِلحًا يا جَدَّتي..!

إلى الشَّرْق

تَجَهَّزنا، حملَ كلّ منّا سلاحه وأغراضه، وانطلقنا، وهذه المرّة دون تركات، وليس نحو الغرب وإنما نحو الشَّرْق. انقلب دماغي، أين تقع نابلس؟!! إذا كنّا سنذهب إليها، فالطَّريق ليست هي الطَّريق التي نسير عليها، وهذه المرّة بحماسٍ أقلّ، أو حتَّى دون حماس، على الأقل بالنسبة لواحدٍ مثلي مرهق من قلة النَّوْم والتعب وتضارب المشاعر. مَن يقصد نابلس يواصل إلى الغرب، وبسرعة شوقًا للقتال، ونصرةً لرفاقنا.

سرنا في الجبال، وقطعنا وديان، مررنا عن عيون ماء، ورصدنا أرض الغَوْر التي تودع الربيع، وينحسر عنها التنوع النباتي، الَّذي كان يدهشنا خلال فترة التَّدْرِيب، وبعد أيَّام قليلة لن تكون هي نفس الأَرْض المفروشة بالأزهار البَرِّيَّة. إنّها تَغَيَّرَ جلدها السنويّ. هل غيّرنا نحن جلودنا؟ أَمْ فقط نغير جهتنا؟ وسنحارب في مكانٍ آخر حددته القيادة.

بعد ساعتين من الْمَشْي المرهق، وجدنا أنفسنا مرّةً أخرى في قيادة الكتيبة التي كنّا فيها، لقد عدنا إلى فصّ الجَمَل، لم

أحب هذا الفصّ هذه المرّة، تشاءمت منه، ومن وجوده، الَّذي شهد على إصابتي، وتدمير الريكت لانشر خاصتنا، وأعطب أملنا، ولماذا نعود إليه الآن؟ هل لنواصل ما بدأنا به؟

وجدنا في فصّ الجَمَل، جميع سرايا الكتيبة قد سبقتنا، والتركات تنتظرنا، والتساؤلات توجعنا وخزاتها، أركبونا في التركات، أفراد السرايا الأُولَى والثانية والثالثة وسرنا في الطَّريق إلى أريحا، قفز أمامي مشهد الجِسْر، جِسْر دَامْيَة، هاجس الجِسْر سكنني، وتسارعت دقات قلبي، إلى أين المسير حقًا؟ هل نحن جَيْش يتقدم أَمْ يتقهقر؟ فكرت بالقفز والهرب للعودة إلى الحَرْب، أو الأصح بحثًا عنها، ماذا سأقول لجدتي وزوجتي عن الحَرْب؟ وماذا سأحكي لابني المنتظر، في قادم الأيّام؟ أريد أن أحارب..أريد أن أحارب، ولكن كيف سأقفز من الترك المكدس بالجنود؟ وإلى أين سأذهب؟ إذا لم أحارب مع هذا الجَيْش، فلن أحارب أبدًا. أين أرض المَعْرَكَة التي كدسونا بالتركات من أجلها؟ أسئلة تلاطمت في رأسي، فكاد أن يقفز من الترك، ليتدحرج على أرض الغَوْر، ليت جَدَّتي الحكيمة قريبة منّي، لأسألها وأطمئن، إن لم يكن لديها أجوبة عن قضايانا الصغرى والكبرى، فإن لديها كلّ ما أحتاجه لأهجع

وأطمئن، تكفي تمتمة منها أو كلمة أو توقع أو إشارة لأدرك بأنني أمضي بملاكين من حبها وأملها، ها أنا يا جَدَّتي أطرش وأخرس وأعمى.

سمعَ بعضنا من أجهزة الترانزستور، خطابًا للملك حُسين، يدعو فيها الشعب والجنود لمقاومة المحتلين بالأسنان والأظافر، ولكن كيف يا جلالة الْمَلِك؟ نريد أن نحارب بالأسلحة التي بأيدينا، ولكن مَن الَّذي يمنعنا من الحَرْب؟ ألا تعلم ما يجري لنا؟

مع الوَقْت اكتشفت أنّه ليس فقط كتيبتنا التي تسير على الطَّريق، وإنما أَيضًا جميع اللواء، لواء القادسيّة، رمز أمجاد انتصارات العَرَب على الفُرْس، وبطولات سعد بن أبي وقاص، في مجابهة بطل الفُرْس وفارسهم المغوار رستم فرخزاد، الَّذي قُتل في المَعْركَة، ولأن النّاس تحب الأبطال، حتَّى لو كانوا من الطرف الآخر، أو من الأعداء المرحليين، أو الدائمين، فإنَّ هناك من العَرَب، من يطلق اسم رستم، حتَّى الآن، على ابن له.

واجه العَرَب، الفُرْس المتحالفين مع الروم، تحالف الإمبراطور الساساني يزدجرد الثَّالِث، والإمبراطور البيزنطي هرقل الَّذي زوَّج حفيدة مانيانغ إلى يزدجرد كرمز للتحالف.

يا للنساء اللواتي لا يشاركن في الحَرْب، ولكنهن يُقَدمن هدايا لمشعليها، من هو مانيانغ؟ وددت لو أسأل القَائِد زلّوم عنه، ولكنّه انشغل دائمًا بإفهامنا بأننا أحفاد أبطال مَعْرَكة القادسيّة، وعلينا أن نثبت ذلك في هذه المَعْرَكَة، ولكن أين هي المَعْرَكَة؟ هذا ما وددت أن أسأله عنه الآن، ولكنّه أين هو؟ لم أعد أراه وسط هذه اللَّجَّة.

على يسارنا غَوْر الأُرْدُن شرق النَّهر، ونحن في الغَوْر غربه، القرى والتجمعات الزراعية غرب النَّهر، بدت صامتة بلا حركة، المواصلات توقفت، حياتهم تجمدت بانتظار أن نجلب لهم النَّصْر المبين.

ليس إلّا نحن على الشارع، جَيْش لا يعرف إلى أين يذهب، على الأقل نحن الجنود المساكين لم نكن نعرف إلى أين سنحطّ؟

على يميننا، تطل علينا أجراف التلال الوردية التي تظهر شامخة متعالية على البطاح أسفلها، مررنا على مَرج نعجة، لم نرَ أيّا من النّاس، لقد لزموا منازلهم، انتظارًا للنصر الَّذي سنجلبه لهم، اقتربنا من وادي الفران، أو وادي أُمْ العُبُر، تعلوه التلال، لاحظتُ آثار مياه الشّتَاء التي سارت فيه، وبقايا شجيرات الرَّتَم، التي تعزف سَمْفُونِيَّة المكان عندما تلامسها

نسمات الهواء الشاردة من الغرب إلى هذه الأغوار المحيرة، حيَّرَت الرَحَّالة الذين مرَّوا ببلادنا، وتساءل أحدهم، حول إمكانية غمرها بالمياه، لتشكل بُحَيْرة كبيرة تنضم للبحر المَيِّت، وتلطف أجواء بلاد الشام، فكرة رَحَّالة أو مغامر أو مجنون تحضر الآن ونحن معلقون بين الحَرْب واللاحرب، لو تغمرنا المياه فعلاً، وتضع حدًا لحيرتنا الآن، وتحسم حَيرة غيرنا في أغوارنا.

في شهر آذار عندما توقفنا في المكان، كان المنظر مختلفًا، السّوْسَن برؤوسه السوداء الفاتنة يتطلع إلى الأعلى إلى الشَّمْس التي تنعكس عليه فتعتم لونه، وتُظهر لمعانه، وأخاديد المياه ما زالت رطبة، وتظهر أنقاب الْمَشْي على حوافه، المغطاة بما يشبه قطع سجاد من النباتات، ولكن الرعاة، والأغنام، والحيوانات، تعرفها جيدًا، وتخلف طبعات أقدامها وحوافرها عليها، ومن بعيد يستغرب المرء كيف يسير بشر الغَوْر وحيواناته على هذه الحواف، مع المحافظة على التوازن. نعم التوازن ما أحتاجه الآن، يا أجراف الغَوْر وتلاله ووديانه امنحيني التوازن.

ونحن نتوجه إلى الجنوب، نقترب أكثر فأكثر من مُثَلَّث دَامْيَة، حامت طائرات العَدُوّ فوقنا، وقصفت الطَّريق أمامنا، نزلنا من التركات، ولجأنا إلى سفوح الجبال،

الأجراف الشاهقة في هذه المِنْطَقَة في قاع العالم، حتَّى في القاع يوجد تلال، أخذنا مواقعنا أسفلها، لم نعرف إذا كان أحد أُصيب في القصف أَمْ لَا ومَن الَّذي أُصيب؟

قال يُوسُف السُرْيانيّ:

-الآن بدأت أفهم، إنهم يحددون طريقنا..!

وعندما أدرك بأنني لم أفهم عليه، وأنا بجانبه مختبيء من الطائرات، فسّر:

-ما يطلقونه علينا، هو لتخويفنا، وجعلنا نتجه إلى هناك، إلى الجِسْر، نغادر، نترك أرض المَعْرَكَة إلى الضَّفَّة الأخرى.

هالني تشاؤم يُوسُف، وكأنني لم أكن متشائمًا مثله، ونحن ماذا علينا أن نفعل؟ هل نستجيب لهم، هكذا ببساطة؟ أين قيادتنا؟ بحق الله، ماذا نفعل نحن هنا في هذه الحَرْب؟ أليس لنا كلمة؟ حتَّى المحارب المهزوم، يقول كلمة أخيرة حتَّى لو كانت انتحارية، لا يتنازل عن حقه في القرار، قرار الكرامة.

أين صواريخ الظافر والقاهر؟ أين عبد النَّاصِر؟ أليس هو من يقود المعركة؟ قبل خمس سنوات، أطلق أربعة صواريخ من الظافر والقاهر، واستعرضت الصواريخ الضخمة وهي ملفوفة بالعلمِ المصريِّ في شوارع الْقَاهِرَة، وقال الرَّئيس محبوب

الشعب العربي أمام الجماهير المتحمسة بأن الصواريخ العربيّة الجديدة قادرة على ضرب أي هدف «جنوب بيروت»، ولم يكن أي لبيب بحاجة لأكثر من هذه الإشارة حتَّى يفهم. قفزنا نحن الفتية فرحًا مع فرح الأستاذ شَرِيف، ونحن متحلقون معه حول المذياع ننصت لصوت العَرَب.

عندما أدركنا أن الطائرات اختفت، صعدنا مرّة أخرى إلى التركات، وهذه المرّة سرنا ببطء وبصعوبة لما أحدثه القصف من تخريب، سرنا تتراقص بنا التركات، بسبب حالة الطَّريق المقصوفة، حتَّى وصلنا إلى مُثَلَّث الكتايِر، خفق قلبي بشدة، واستمر في الخفقان.

تبًا لك يا يُوسُف ولتوقعاتك..!

الكتّايِر

مُثَلَّث الكتّايِر، هو الَّذي يؤدي شرقًا إلى مدخل جِسْر دَامْيَة. أخذ الكتّايِر اسمه نسبة للتلال الصغيرة البيضاء الجرداء المتناثرة في الغَوْر، قريبًا من نهر الشَّرِيعة، وواحدها الكَتْر، وهو السَّنام المرتفع، حدبة الجَمَل الشَّحْمِية، في هذا الغَوْر ترتفع أَسْنِمَة الرِّمال البيضاء المتكلسة، ولكن ماذا عن أَسْنِمَة الرِجال؟ شيء غريب يخترقني، مثلما يحدث معي في الأزمات التي رافقتني طوال عمري، وأعرف دائمًا أنّه يأتي من هناك، من مكانٍ مجهول، أشعر بأن أُمّي تسكنه، وترقبني منه، أُمّي التي تخلت عنّي، وفضلت مكانها ذاك عليّ وعلى دُنيانا.

هل ثمة تخلٍ آخر يحوم حولي، هل سيتخلى وطني عنيّ هذه المرّة؟ وأنا الَّذي جئته مدافعًا، ومنافحًا. مرهقٌ ومتعبٌ أنا، لكن عليّ أنا أكون يقظًا، إن لم أكن يقظًا الآن، فمتى يتوجَّب عليّ أن أكون كذلك؟

أنزلونا من التركات التي خضَّت أجسامنا ما شاء لها الخضّ، ماذا يعني ذلك؟ طريق الجِسْر هو طريق الانسحاب، هو

الهزيمة، ولكنَّها هزيمة قبل أن نشارك في الحَرْب، أيَّة حرب هذه التي تظهر نتيجتها قبل بدئها. أبعدت عني الهواجس السلبية، بينما يُوسُف يهز رأسه، وكأنَّه يقول لي: أرأيت؟ توقعاتي تتحقق.

آه يا يُوسُف، سيقتلك تشاؤمك، ويقتلنا..!

وربّما لم تعرف بأن تشاؤمك أصابني بالعدوى، لم أعد أرَ في الجِسْر، إلّا أنّه يفصل بين عالمين، وليس ضَفَّتين في مملكةٍ واحدة، هل فعلاً كنّا في مملكةٍ واحدة، ودولةٍ واحدة، وحكومةٍ واحدة؟

من الجيد أنّني لا أرى ربحي قريبًا منّا، وإلّا لشهدت حفلة تشاؤم لا تنضب، ترى بماذا يشعر ربحي الآن، وهو معنا يتقهقر، ويُقهر؟

الفرق بين ضَفَّتي الجِسْر؛ الصمود، والعزيمة، والتشبث، والأمل، أو قطع الصلة، والهزيمة، والهروب، إذا قطعنا الجِسْر، فإنَّ الأمورَ ستكون منتهية، أمورنا، وأمور بلدنا، وأهَلنا، وشَجرنا، وحَجرنا، نحن من سننهيها، ما العمل في هذا الموقف؟ ماذا لواحدٍ مثلي أن يفعل الآن؟ جُنديّ مرهق، لم يعد يميّز الأمور بطريقةٍ صحيحة، أريد أن أتصرف بشكلٍ لا أندم عليه لاحقًا، أيتها الأجراف الوردية غربنا، المكللة

بشموخٍ لا يوصف، شاهدة على أمثالي في لحظات تاريخية فارقة، ويا أيتها القُبَّات البيضاء الرَّملية الدائرية، أيتها الكتاير التي كوّنتك ملايين ذرات الرِّمال التي تتناقلها الرياح قبل أن يخلق الله النّاس، فيتقاتلون، ويَقتلون ويُقتلون، ماذا أفعل؟ لماذا هذا الصمت؟

هل خُلقنا للقتل، والذبح، قريتي ذُبحت سبع مرات كما تقول جَدَّتي وتردد، في فترة لم تستطع تحديدها، ولكنّني أمسكت الورقة والقلم وقدرتها، بمساعدة الأستاذ شَرِيف، ما بين (1750-1834م)، فاضطر الأهالي على أثرها لترك القَرْيَة، وأسباب الذَّبْح مختلفة منها ما يتعلق بدور الأهالي في جمع الضرائب، أو احتلال القَرْيَة من قبل الغزاة، ولتورط السُّكَّان في الصراع التقليدي قيس ويمن، لا تتوفر معلومات دقيقة لدى جَدَّتي عن المذابح، وتختلط لديها المرويات عنها بالحقائق والأساطير المحليّة، ولكنها لا تكف عن الإشارة إلى أخلاق رجال القرية الضعيفة، وتحكم غرائزهم بعقولهم، التي قادتهم إلى التحرش واغتصاب نساء من قرى أخرى، ما استوجب انتقام رجالهن، الذين غزوا إرطاس وقتلوا تسعين زوجا من الأخوة.

في مثل هذه الحالات من عدم الاستقرار كان السُّكَّان يلجؤون إلى القرى المجاورة وكهوف الجبال، وقلعة البِرك،

وظلوا هناك حتَّى جاء جون ميشولام، المُبشِّر الَّذي أراد تحويل اليهود إلى المسيحيَّة، وهو يهودي سابق، ودفع دِيَة لعرب التعامرة، مقابل عَوْدة أهلنا إلى قريتهم، ويستوطن هو فيها، وسيلحقه بشراء أرضٍ في القَرْيَة آخرون كالقنصل البريطانيّ فِن، والأمير هنري ابن الملكة فكتوريا، وهنري بالدنسبيرغر، والد الستّ لويزة، وستصبح مزرعة ميشولام، الَّذي كَناه ناسنا (أَبو مشَلّم)، مقصدًا للمُبشِّرين الزائرين والمقيمين، ومنهم جَدة الأديب جون شتاينبك، صاحب عناقيد الغضب، وجائزة نوبل.

عندما كان أَبو مشَلّم يقف على قِمّة جبل (أَبو زيد)، وحوله القُنْصل فِن، وزوجته، اللذان ملكا منزلاً في إرطاس، وغيرهم من الذين يأتون إلى القَرْيَة لقضاء عدة أيَّام، يشير بفخرٍ إلى الشرق، إلى زرقة البَحْر المَيِّت وتلال الأُرْدُن، وإلى تَلّ الفرديس الَّذي يُطلق عليه اسم جبل الإفرنج، وهو تَلّ صناعي ينسب لهيرودس العظيم، والشَّمْس وهي تودع نهارًا، تضرب جمرتها على قمته، بينما القمر يظهر مبكرا في السَّماء يحرسهما، في مشهدٍ له وقع سَرْمَدِيّ.

سيقول الأستاذ شَرِيف: «حافظ الفلسطينيّون، عبر قرون على ذكرى صاحب القَلْعَة هيرودس الكبير العظيم، حاكم مقاطعة فِلَسْطِين الرومانيّة العَلْمانيّة، فأصبحت الفرديس،

المكروه في الثقافتين اليهوديّة والمسيحيّة، وغير مكتشف في الثقافة الإسلاميّة، ظلمته الديانات السماوية، لأفقه الواسع ولعَلْمانيّته وإيمانه بالتعددية. سيأتي يوم، إذا تبلورت فيه هُوِيَّة فلسطينيّة عَلْمانيّة، أن يتبوأ فيها الباني العظيم هيرودس مكانته المهدورة».

وإلى الشمال يشير أَبو مشَلّم إلى القُدْس وجِبالها الظاهرة من بعيد، وإلى الغرب يلفت الانتباه إلى البِرك السُليمانية، وتُفتح شهيته للحديث عن المياه والينابيع، والنباتات البَرّيَّة، ومزرعته المثمرة في إرطاس التي اختارها، كما اختارها من قبله الْمَلِك سُلَيْمان، وداود، كجنةٍ مورفة مغلقة.

أَمَّا جَنّة (أبو مشَلّم)، فستدهش الأوروبيين، المستعدين للاندهاش في كلّ ما يتعلق بأرض المَسِيح، بأشجارها من الإِجَّاص، والتُّفَّاح، والكَرَز، والدُّرَّاق، والمُشْمُش، واللَّيْمُون، والبوملي، والرُمّان، والتِّين، ومن الخضروات: الزهر، والجزر الأحمر والأصفر، والبطاطا الحلوة، والبطاطا غير الحلوة، وغير ذلك من ثمار الأَرْض التي يفخر أبو مشَلّم، أنّه استصلحها، كواحدٍ من سلالة ملوك الكتاب الْمُقَدَّس العظام، وتمكّن من جعلها جَنّة بطبقةٍ ليست كبيرة من التُّراب على الصخور، معتبرًا ذلك معجزة، وهو أمر هام لشخصٍ مثله لطالما آمن بالمعجزات.

ومن معجزاته الصغيرة، بيته الحجري البسيط، الَّذي كان أجمل بيوت القَرْيَة، وفيه عاش دائمًا رفاقه من مُحترمي اليَوْم السابع، حيث استراح الرَّبّ بعد تعبه المتواصل في خلق العالم في سِتّة أيَّام.

أمّا بالنسبة للأستاذ شريف، فإن الرَّبّ لم يسترح في اليوم السابع، إنما خصصه لخلق محبوبته فِلَسْطِين، التي يرنو إليها في كل نهار مرتين، ولم يعجب البشر استئثاره بها، فرنو إليها دائمًا بالسلاح، والكتب المقدسة.

أحضر الأوربيون أنواعًا جديدة من الفاكهة والخضار إلى وادي إرطاس. وهيأ وجودهم الفرصة للتوصل إلى سلام بين التعامرة وأهل القَرْيَة. يا لسخرية أقدار بلادنا المُقَدَّسَة، وكأننا لا نستطيع صنع سلامنا الخاص في أرض السّلام المفترضة. عاش أسلافي على قلق وكأن الرياح لا تهدأ، وهم يبحثون عن هُوِيَّة، وهنا أنا الآن أَيضًا أعيش قلقي، وأنا لا أعرف أين سيكون مسيرنا؟ وأين سنحط؟

أشتاق إليك يا فأري الشَّوكيّ، وأحتاجك بشدة، أرغب بحضنك، وحملك بين يديّ، لعل ذلك يجلب الطمأنينة، أكثر من ذكريات إرطاس وغربائها.

أبو مشَلّم صنع السّلام بيننا وبين التعامرة، ولكنّه لم يتمكّن

من صُنع سلامه الخاص، رغم علاقاته المتشعبة مع العَرَب والأجانب، والحكام والمحكومين. ظلّ وفيّاً لأهداف جمعيته البريطانية لتعزيز المسيحيَّة بين اليهود، والتي عُرفت أَيضًا باسم (جَمْعِيَّة لندن لليهود)، وبرز كمتحمسٍ لفكرة تبشير اليهود للعودة إلى أرض المسيّا الَّذي ينتظرونه، لأن عودتهم إلى فِلَسْطِين، باعتبارها أرض اليهود، سيعجِّل بعودة المسيح الثَّانِي، ولكنّه لم يفهم الشرق جيدًا، وُجد مقتولاً قرب عَيْن عطن، ليس بعيدًا عن خربة الخوْخ، مَن قتله؟ حققت القُنْصُلِيَّة البريطانية، في ظِلّ ضعف الحكومة، فيما حدث لمواطنها في إرطاس، واتهم القُنْصل فِن عددًا من القرويين بقتله، ولكن لماذا قتلوه؟ هل قتله غروره، وتعاليه، وثقته، وقوته؟ هل انتقم اليهود منه، عندما خطط مع فِن لبناء مُسْتَوْطَنَة قريبة من إرطاس تستوعب المئات منهم لتنصيرهم؟ لقد ذهب وأخذ سرّه معه. الموت قتلاً كان أَيضًا نصيب عائلة (أبو مشَلّم)، قُتلت أسرته وهي في طريقها إلى القُدْس، في أعمال شغب بين اليونانيين والأتراك، ونجا هو ليقتل فيما آمن أنّها حدائق سُلَيْمان، ومرعى الْمَلِك داود.

لن تنقطع سلالة (أبو مشَلّم)، الَّذي دُفن بتوقير من رفاقه، في القُدْس، سيبرز ابنه بيتر في إرطاس، أكثر بعد موت

أبيه، كرجلٍ شجاع ومقدام، ولد في فِلَسْطِين وأحبها وتكلم لغة ناسها، ولكنّه لم يتخلَّ عن واجبه تجاه وطنه الأوَّل، فشارك في حرب القرم كبريطانيٍّ صالح، وعندما انتهت الحَرْب عاد إلى إرطاس ليبني غرفة زراعيّة من الحجارة المحليّة في بُسْتان العائلة ووسعه باستصلاح أراضٍ جديدة، وتحول البُسْتان إلى مكان لانعزاله أسابيع عديدة رفقة مزارعين من قريتنا عملوا لديه، بالإضافة إلى كلبه وقطيع أغنامه، وحيوانات أليفة أخرى، ومارس هوايته بصيد وملاحقة الخنازير البَرِّيَّة، والثعالب، وبنات آوى، والضباع، والذئاب، والقطط البَرِّيَّة، والأرانب، والصقور، والنسور.

اندمج في الحياة الريفية العربيّة، فلبس الزِّيّ التقليدي، وعاش مثلما عاش ناسنا، ولكنّه عندما كان يذهب إلى القُدْس يرتدي زِيّه الإفرنجي، ليقضي أعمالاً له أو ليزور أصدقاء والده.

برز بيتر كرجلٍ قوي البنية معتدًا بنفسه، ولكنّه متواضع، محبوب من النَّاس، وسيفتخر بين مواطنيه المُبَشِّرين بأنَّه عُرِض عليه أن يصبح زعيمًا لقبيلة عربيَّة، ولكن حال دون ذلك رفضه لتغيير دينه ليصبح مُسْلِمًا وهو ابن الَّذي أتى إلى البلاد، قاطعًا البحار، لينصِّر اليهود.

سُمعته كرجلٍ صِنْدِيد، جعلت قُطَّاع الطُرُق واللصوص والعابثين بالأمن يهابونه، ولم يكن مستعدًا لأن يكون مصيره مثل نهاية أبيه، ولكل هذه الأسباب، اختاره الأمير ألفرد عندما زار فِلَسْطِين في ربيع ١٨٥٩م، ليرافقه من القُدْس إلى طبريا فحيفا حيث غادر في بارجة يوريليوس.

سيغادر، يا فأري الشَّوكيّ الذَّهبيّ، الْغُرَبَاء قريتنا بالتدريج فمعجزاتهم التي تمنوها لم تتحقق، فانتقلوا إلى يافا، لعل الرَّبّ يحققها من هناك، وستبقى السِتّ لويزة وشقيقها فيليب الَّذي أثر كتابه (الشَّرْق الَّذي لا يتزحزح) في الأستاذ شَرِيف، فجرى اسم الكتاب على لسانه مثلاً، يستخدمه في نقاشاته وتبرمه وزهقه من واقع قريتنا، وأخال الأستاذ شَرِيف في كثيرٍ من الأحيان يعيش بيننا شبحًا، ولكنّه يعيش حياته الحقيقية في مكانٍ ما، بين غرباء قريتنا، الذين عندما غادروا تاركين روائحهم، وحكاياتهم، وتصوراتهم عنّا التي تبناها الأستاذ، قريبي ومدرسي وجاري.

وسيجيء الدور على السِتّ لويزة لتغادر القَرْيَة عام 1933م، ولتكون بذلك آخر الْغُرَبَاء الذين رحلوا، بعد أن أصبحت وحيدة وطاعنة في السِّنّ، وبعد أن أصبحتا رفيقتاها حمديّة، وعليا تحت التُّراب، فباعت بَيْت والدها والأراضي التابعة له، والَّذي يعرف حتَّى الآن باسم شِعب السِتّ لويزة،

وتوفيت في مدينة الرملة بعد رحيلها عن إرطاس بعدة أعوام.

النبع المالح

على أحدٍ ما أن يُخبرني، من الحجرِ، أو الشجرِ، أو البشر، أو الملائكةً، أو الضباع، أو الأفاعي، ماذا عليّ أن أفعل؟ يا هذا الكون اعتبرني نبيًا تائهًا، أو عبدًا حائرًا، وتدخل أنت ومكنوناتك، لا يمكن أن أتطوح غافلاً أمام الجِسْر، والنَّهر، والعَدُوّ، والصديق، حتَّى ملك البلاد وسيّد العباد، وقائد جيشنا الأعلى، يستصرخنا بالقتال ولو بالأظافر والأسنان.

التفت من مكاني إلى مصنع السَّمْنَة، أدركه الموت، لم أرَ فيه أيّة حركة، حتَّى أصحاب المَصْنَع والعمَّال، تركوا لنا أمورهم، ولكنّهم لم يعلموا بأننا لسنا الذين سنعقل أمورهم وأمورنا.

حلَّ العَصْر قبل غياب الشَّمْس بنحو ثلاث ساعات، وفي مثل هذا الوَقْت من العام حيث ترتفع الحرارة في الغَوْر إلى ذُرىً تحرق الأجسام، وتُفصدها، تهب نَسَمَات رطبة، تجعل الأجساد تستجيب لنداءات معينة، لم أنم منذ عدة ساعات، بل ساعات طويلة، وأحسست بالإرهاق، إرهاق المَشْي والقلق والركوب غير المريح للتركات والتحفُّز الدائم

نحو مجهول، كلّ هذا هبط عليَّ مرّة واحدة، أشعر بثقله الآن يُهبطني.

وجدتُ نفسي مع بعض الجنود، أحدهم بَدَويّ من بئر السبع اسمه عبد النَّبِيّ، نأخذ لنا موقع في بيارة قريبة من المثلث، التقينا حارس البيارة، الَّذي لم يغادر مكانه إلى منزله في وقت الحَرْب هذا، لأنّه ببساطة كما قال لنا ليس له منزل يعود إليه، فزوجته رحلت إلى حيث لا يعود أحد، وأولاده استقلوا في منازلهم منذ وقتٍ ليس بالقصير.

طمأنت الحارس على سَير المَعْرَكَة، والنَّصْر الآتي، ولكنّه كان مرتابًا وهو يرى طائرات العَدُوّ حُرّةً في سمائنا. واطمأن لعبد النَّبِيّ أكثر عندما استشاط الأخير غضبًا مع ظهور الطائرات من جديد، فأطلق عليها النَّار، ليثبت للحارس، بأن المَعْرَكَة لم تُحسم بعد، وأننا سنقاتل. أنهضتني طلقات عبد النَّبِيّ من هبوطي، لأهبط من جديد.

لم تعر الطائرات، عبد النَّبِيّ وطلقاته، اعتبارًا، ولم تهتم لوجودنا، لديها مهام أهمّ، ولا وقت لديها للانتباه لحشرات مثلنا، بدأت فعلاً أشعر بأننا لا نعني شيئًا لطائرات العَدُوّ، ولا نشكل خطرًا عليها، وأن وجودنا في الحَرْب مثل عدمه، مجرد بيادق على رقعة شطرنج، لا يهتم الغريم بحركتها وإلى

أين تتحرك، فواصلتُ الهبوط.

قادنا الحارس إلى ينبوع الجُوزلة، فوجئنا بهذه المياه التي تتدفق، بعيدًا عن أعين النّاس، إلى الشَّرِيعة.

وجود نبع ماء في أخفض مناطق العالم، ليس أمرًا نادرًا، ولكننا تأثرنا ونحن نشاهد المياه تُشكل نهيرًا عريضًا نسبيًا، غسلنا وجوهنا، وأردنا أن نشرب، إلّا أن الحارس نبهنا إلى أن مياه هذا الينبوع مالحة، لا تصلح للشرب، وأن المزارعين لا يستفيدون منها، بسبب أقدار الطبيعة التي كان على إنسان الغَوْر التعامل معها خلال آلاف السنوات، وجعلت نسبة من الكبريت في هذه المياه. تستفيد النباتات المائية الخَضْرَاء الفارعة على جانبي النهير من الماء التي يكتفي النّاس من أمثالنا بالفرجة عليها فقط، سبحانه مقسم الماء على مخلوقاته، بالشربِ والنماءِ أو بالفرجة.

أخبرنا المزارع، بأنه لا يعرف سبب تسمية الينبوع، ولكنّه رجح أن يكون للاسم أصل عثمانيّ، ويعني المياه التي تتدفق من الأَرْض.

لا أعرف لماذا شدنا موضوع النبع، وسيلان المياه بتؤدة نحو الشَّرِيعة، ربَّما لأن أي ينبوع ماء يذكرني بقريتي، قَرية الينابيع والبَسَاتين والبِرك الضخمة التي لا مثيل لها في

فِلَسْطِين. بِرك سُلَيْمان الثلاث الضخمة، بنى اثنتين منهم الْمَلِك هيرودس قبل أكثر من ألفي عام أو رممهما وأضاف إلى ما سبقوه، أمَّا البِركة الثالثة فبنيت في زمن المماليك المتأخر، وكانت وظيفة هذه البِرك الضخمة تجميع المياه فيها، لإسالتها، عبر القنوات إلى القُدْس. بِرك المرجيع، كما سمّاها المسلمون فعندما فقد إخوة النَّبِيّ يُوسُف، أخاهم، وجدوه عند البِرك وأرجعوه فسميت بِبِرك المرجيع، أنا لا أخوة لي، يا فأري الشَّوكيّ، ليعثروا عليّ، ويعيدوني للمعركة التي لم تبدأ بالنسبة لي، ويبدو أنّها على وشك الانتهاء بالنسبة للعَدُوّ.

البِرك رمز نهوض إرطاس الرومانيّة. هيرودس بنى في وادي إرطاس حدائق، وحمامات، وقصورًا، وأقنية، ورث المسلمون البِرك والقنوات والينابيع، وعمّروها، وأصبح النظام المائي يعرف باسم قناة السبيل، وفي عهود لاحقة سيختل الأمن، نتيجة للظلم والفقر، فانتشر الأشقياء وقُطّاع الطُرُق وخربوا الينابيع ومجاري المياه، فذاق أهل القُدْس الأمرّين، فبنى العثمانيون قلعة لحماية البِرك والقنوات، وأنشأوا داخلها مسجدًا وخمسين غرفة ليسكنها الجنود الذين سيّروا الدَّوْرِيَّات لمنع العابثين من الاعتداء على القنوات التي يسيل فيها الماء، روح الحياة لمدينة الأرواح والأنبياء، وإلى هذه القَلْعَة لطالما لجأ أهلنا هربًا من الذَّبْح والمطاردة.

وفي أثناء الحكم العثماني المتأخر، عام 1901م، أُستبدلت قناة المياه الفخارية التي مدّها العثمانيون من بِرك سُلَيْمان إلى القُدْس، بقناةٍ معدنية، وغيّر البريطانيون في النظام المائي، الَّذي استمر يزود القُدْس بالمياه حتَّى عام 1948م، ووقوع النَّكْبَة الفلسطينيّة.

أخبرنا المزارع، أنّه في حين لا يشرب النّاس من الجُوزلة، ولا يستخدمون المياه للزراعة، إلّا أن حيواناتهم الأليفة التي يربونها للاستخدام كالكلاب والحمير، أو للأكل والبيع مثل الخراف، تشرب من النبع، ولا يضرها، يدخل أجوافها حلالاً زلالاً، وكله بأمره تعالى، حافظ الحيوان والبشر، والوحيد الَّذي يلتفت إلى هذا الغَوْر، قطعة الأَرْض المنسية في قاع العالم، ولولا رحمته لكان الغَوْر موات.

يا للحيوانات القادرة على العيش بالماء المالح، ويا للنَّاس الذين يظلمون حيواناتهم، ولكن قد لا يكون لديهم بديل، عندما تنتفي البدائل والخيارات يمكن أن يحدث أيّ شيء، مثل حالنا الآن في وقت الحَرْب هذا، يا فأري العزيز، نناقش ظروف نبع على الضَّفَّة الغربيّة للنهر الْمُقَدَّس، وخيارات ناسه. هل انتفت خياراتنا ونحن في بداية الحَرْب؟ مَن ليس له خيار، فليتخذ خياره، يختاره، ولا ينتظره من أرضٍ أو سمّاء.

عرض علينا الحارس، فرصةً لإيوائنا في المزرعة التي يحرسها، ومساحتها أكثر من ثلاثمائة دونم مزروعة بالنخيل، تعود لعائلة الحبّال وارثة إقطاع سياسيّ وديني. قال الحارس:

*يمكن أن تكونوا هنا في أمان..!

أيّ أمان أيُّها الحارس، الَّذي كنت قبل قليل تسألنا عن الحَرْب، والآن كأنك تقول بأننا نكذب عليك وأنك لا تصدقنا، فتعرض علينا، لسماحة صدرك وطيب قلبك، الأمان.

وأضاف الحارس مقدمًا المزيد من الإغراء والاطمئنان:

*لا يوجد غيري في المزرعة، أصحابها تركوا البلاد مبكرًا، انتقلوا إلى الضَّفَّة الأخرى، شموا اقتراب الحَرْب قبل وقوعها بكثير، سهروا هنا مع ضيوفهم من سياسيين وصحافيين كبار في الجرائد الرسميّة، وعندما خرجوا فجرًا متعتعين قال لي أحدهم وهو شاب ذَرِب اللسان، يحب المزاح معي: كلّها ساعات أو أيَّام أو أسابيع وستصبح في دَوْلَة أخرى، سيحكمها آخرون، لقد قررت دولتنا تسليم البلاد والعباد، اهرب مثلما سنهرب..!.

وضحك وضحكوا وضحكنا..!

لم نكن بحاجة إلّا لهذا الحارس الَّذي يعرف أكثر منّا ومن

قائدنا زلّوم، ليهبطنا على هبوطنا، سامحك الله يا منتظر الحُكّام الجدد، وحدك الثابت في قاع العالم، شاهدًا وشهيدًا، من يعلم قد لا نراك مرّة أخرى، ربَّما ستعيش لتصبح شاهدًا، أو سيقتلونك فتصبح شهيدًا. هذه هي الحياة عندما تعيش في قاع العالم.

شكرنا الحارس، غيّرنا موقعنا، ودَّعنا النبع المالح. مشينا من وادي المالح، لنركب ونحط قرب النبع المالح. ما الَّذي يجري لنا؟ ما الَّذي تحاول أسماء المواقع أن تخبرنا به؟

وجوه سوداء

خرجنا من البيارة إلى الشارع، رأينا رجلين يتحركان نحونا، يرتديان زِيّاً عسكريّاً ولكنّه يختلف عمّا نرتديه، قلت لزملائي:

-من المؤكد أن هؤلاء يهود..!

استغربوا:

-كيف وصلونا بهذه السُّرْعَة؟

ولم يمنع تشكيكهم من أخذ الاحتياطات والاستعداد، فالمعركة تقترب منّا، وحتى لو كنّا لا نعني شيئًا لطائرات العَدُوّ، فجنوده سيكتشفون الآن، مغبة غباء الطائرات التي لم تعرنا اهتمامًا.

عندما اقتربا منّا، ظهر عليهما الإرهاق والتعب، وعلق الغبار على ملابسهما المهلهلة، فأدركنا أنهما ليسا من اليهود، وما أن وصلوا إلينا بدت وجوههم سوداء من التعبِ والعَرَق.

ردا السّلام علينا وبدأا بالشكوى:

-ماكو طائرات في الأُرْدُن..!!؟

*ماكو دبابات في الأُرْدُن.. !!؟

*ماكو ماكو.. كلّ شيء ماكو وبماذا كنتم ستحاربون..!!؟

عرفنا أنهما عراقيان، لطالما سمعنا آباءنا وكبار السِّنّ يسخرون: ماكو أوامر..ماكو أوامر. وهي إحدى المأثورات التي عاشت معهم منذ عام النَّكْبَة، عندما تهرَّب الضُبَّاط من مواجهة العَدُوّ، لعدم وجود أوامر، وضاعت البلاد وتشرَّد العِباد، ولم تصل الأوامر.

وعرفنا منهما أن جَيْش التَّحرير الفلسطينيّ التابع للعراق تجاوز الجِسْر، وأصبح نصفه غرب الجِسْر، والنِّصْف الآخر شرقه.

عرفنا بأن الطائرات الإسرائيليّة قصفت جَيْش التَّحرير، وتتساقط قاذفاتها غرب الجِسْر وشرقه، أمَّا نحن فيبدو أنهم أجّلُوا حسابنا بعد إنهاء حسابهم مع العراقيين-الفلسطينيّين، ففي كلّ الأحوال سنكون نحن الأردنيين-الفلسطينيّين على أجندتهم.

قال أحد العراقيين واسمه اسكندر، ونحن ننتظر لا نعرف ماذا ننتظر، ولماذا قيادتنا تركتنا وغابت؟ بأننا في موقعٍ مهم من الناحية التَّاريخيَّة، وسواء انتصرنا أو هُزمنا، فسنكون شهودًا جددًا على تاريخ يُكتب لهذا الموقع. بعضنا ضحك

ساخرًا، والبعض ضحك متألمًا، ولم يعد بيننا من يضحك آملاً.

وأفادنا، من خلال قراءاته للكتاب الْمُقَدَّس: «ارتبط هذا الجِسْر، بالنسبةِ لليهود، والمؤمنين بالعهد القديم، بوقوعه في البُقْعَة التي أطلق عليها الكتاب الْمُقَدَّس: آدم، والتي منها عبر يوشع بن نون عليه السّلام إلى أرض الكنعانيّين لاحتلالها، بموجب عهود الرَّبّ، وفي هذه المِنْطَقَة، وفقًا لسِفر يوشع، حدثت معجزة مختلفة وشبيهة، بتلك التي حدثت في البَحْر الأحمر للنبيّ موسى عليه السّلام، لقد أوقف الرَّبّ مياه النَّهر ليمكّن شعبه المُختار مِن العبور، وارتكاب مجازر بحق البشر والحجر، فَصَّلَها محررو العهْد القديم بأكثر الطرق نفرًا. فعندما لامست بطون أقدام الكهنة الذين يحملون تابوت العهْد، المياه، توقفت عن الجريان، وانحسرت بسرعة، وعادت للتدفق بعد العبور الكبير».

سألته، كيف يعتبر يوشع نبيًا، وهو يقول بأنه دخل ليقضي على أجدادنا الكنعانيّين؟ ضحك، وقال رفيقه:

-أخونا اسكندر حائر بين دينه وقوميته، ونحن المسلمون أَيضًا كذلك فالأخ يوشع هو نَبيّ بالنسبة لنا.

وأضاف بشكلٍ أكثر جِدّيّة:

-يصعب، بالنسبة لكثير من النّاس، أخذ ما ذُكر على محمل الحقيقة، وإنما النظر إليه باعتباره حدثًا رمزيًا، ولكن المؤكد، هو ما تركه السُّلْطَان المملوكي الظاهر بيبرس، على الجِسْر الحجريّ الَّذي بناه في المكان في القرن الثَّالِث عشر الميلادي، والَّذي ما زالت بقاياه موجودة، تدل على مُعجزة بشرية، كما رأيناه في غَوْر دَامْيَة، هل علمتم أننا ننخفض الآن أكثر من مائتين وتسعين مترًا عن سطح البَحْر، غَوْر دَامْيَة هذا أكثر انخفاضا عن غَوْر الأُرْدُن شديد الانخفاض أصلاً. نحن في الواقع في غَوْر الغَوْر...!

أخرج اسكندر ورقة مهترئة من جيب قميصه، وفهمنا أنّه سَجَّل عليها النَّقْش المملوكيّ، الموجود على الجِسْر، الَّذي بُني عام 1266م:

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على سيدنا مُحَمَّد وصحبه أجمعين.

أمر بعمارة هذا الجِسْر المبارك مولانا السُّلْطَان الأعظم الْمَلِك الظاهر ركن الدين بيبرس بن عبد الله، في أيَّام ولده مولانا السُّلْطَان الْمَلِك السعيد ناصر الدين بركة خان أعز الله أنصارهما وغفر لهما وذلك بولاية العبد الفقير إلى رحمة الله علاء الدين علي السواق غفر الله له ولوالديه في شهر رمضان

سنة إحدى وسبعين وستمائة».

وقال لنا بأن الكتابة واضحة على الجِسْر، يحرسها أسدان. الأسد (رنك) شعار السُّلْطَان الظاهر بيبرس، الَّذي يظهر على أكثر من موقع في فِلَسْطِين. ارتبط بيبرس بالأسد، ووضعه على أسوار القُدْس، وجسور أخرى بناها.

رغم أن كلام اسكندر شدنا وأنسانا ما نحن عليه من تعبٍ، وقهرٍ، وقلة نوم، إلّا أن آخر ما كنّا نحتاجه أن يحدثنا مسيحيّ عراقي جاء لينصرنا، عن تاريخ بني إسرائيل في احتلال بلادنا ببركة الرَّبّ. يا لها من نبوءة تغور ثُمَّ تظهر عبر الزمن..!

هل سيتكرر التاريخ؟ وعلى أيَّة شهادة تستعد لها مياه نهر الأُرْدُن الآن، التي تتدفق تحت جِسْر دَامْيَة، غير عابئة بمشاكلنا وقضايانا؟

كيف تتكون أسماء المواقع في بلادنا؟ ماذا يترك العابرون على أرضنا؟ في قريتنا ترتبط أسماء كثير من المواقع، بأسماء القبائل العربيّة، المرتبطة بالهجرة من بلاد نجد، عندما حلّ القَحْط بها، إلى بلاد الشَّام وشمال أفريقيا، وما تزال بعض جِبال وشِعاب ومُغر إرطاس تُعرف بأسماء قادة القبائل التي وصلتها وسكنتها أو مرَّت بها، مثل قُرنة ذياب، وجبل

(أَبو زيد)، وشِعب حسنات، وشِعب (أَبو زيد)، وشِعب سلطان، وشِعب سلمان، ومغارة خالد، وهي أسماء تطلق لغاية اليَوْم على هذه الأماكن وتعرف بها، ومعظم هذه الأسماء ترجع إلى قادة قبيلة بني هلال، الَّذي من المحتمل أنهم مرَّوا أو سكنوا القَرْيَة فترة من الزمن.

أمَّا أنا فنشأت في شِعب السِتّ لويزة، مستنشقًا عبير حكايات لويزة وحليمة وعاليا وحمديّة، ولعبت تحت شجرة الفُلْفُل التي توقع الأستاذ شَرِيف أن حَلِيمَة أتت بها من بلادها، ولكن زائرات فنلنديات لقريتنا لاحقًا أبطلن اعتقاده، فلا وجود في الأراضي الفنلندية لأشجارٍ مثلها. من أين أتت الفُلْفُلة؟ سيكون ذلك مجال بحث لم ينته، أمَّا جَدَّتي فتقول بأن هنري والد لويزة هو من زرعها.

ستصبح حَلِيمَة أوَّل باحثة توجه طاقاتها لدراسة مكثفة عن مجتمع قَرية واحدة لفترةٍ زمنية طويلة، أليس كذلك يا فأري الشَّوكيّ؟ وتعطي حياة القرويين الاهتمام الَّذي يستحقه، وهو ما قدره أهلنا بفطرتهم.

من خلال كتاباتها الخصبة والمفصلة والحنونة التي وصفت من خلالها طقوس أهلنا وأعمالهم، ومشاكلهم ومخاوفهم، وآمالهم واحتفالاتهم، وضعت الغربيين على مقربة من

حضارة تختلف كثيرًا عن حضارتهم.

انجذبت حَلِيمَة في البداية إلى فكرة عمل بحث في فِلَسْطِين من خلال اهتمامها بالإنجيل. وبعد تخرجها من جامعة هلسنكي عام 1921م في مواضيع التاريخ، والفلسفة، وعلم أصول التدريس، ذهبت إلى برلين لتتلقى دورات في دراسات العهْد القديم، وحددت لنفسها هدفًا أن تكتب عن حياة النِّسَاء في عهد الإنجيل، ومن أجل ذلك، قررت زيارة فِلَسْطِين لدراسة طريقة حياة النِّسَاء القرويات.

ذكرني يا فأري، أريد أن أتذكر بطلتي، وأنا أفتقد البطولة الآن، ولا أعرف إلى متى؟

ماذا تقول يا فأري؟ أسمعك تهمس، أنّه في عام 1925م، حصلت حَلِيمَة على منحة من اتحاد طلبة فنلنديّ وغادرت إلى فِلَسْطِين خلال صيف ذلك العام. وفي القُدْس، تلقت دورة في علم الآثار الفلسطينيّ في معهد الآثار الألمانيّ، وبعد أن انتهت الدورة في شهر أكتوبر 1925م، وصلت إرطاس، وتاهت في الطَّريق، عندما أتت عن طريق الجَبَل شمال القَرْيَة، وأخذت تصرخ:

-لويزة...لويزة.

كانت السِتّ لويزة تنتظرها، ومعها عدد من رِجال القَرْيَة،

الذين هبوا، وعلى رأسهم مُحَمَّد خليل عَوْدة، لملاقاتها، وعندما رأوها أخيرًا صرخ عَوْدة مطالبًا أن تظل في مكانها حتَّى يصلوها، وعندما رأتهم اطمأنت، واصطحبوها إلى السِتّ لويزة.

لماذا يا فأري اختارت حَلِيمَة قريتي وقريتك؟

اختارت حَلِيمَة قريتنا لعدة أسباب، فإِرطاس قريبة من القُدْس حيث كانت تأخذ دروسًا أسبوعية في اللُّغة العربيّة، وأقل تأثرًا بغزو الحداثة على عكس قرى أخرى كانت قريبة من مراكز السياحة والحجاج، وفوق كلّ ذلك، كان هنالك امرأة أوروبية تعيش في إرطاس وقدرت حَلِيمَة فوراً أهميتها في تعريفها على أهل القَرْيَة ونمط حياتهم، وستصبح حَلِيمَة ولويزة ابنة المُبشِّر الألزاسي، التي تسكن في إرطاس منذ أكثر من ثلاثين عامًا في منزل بناه والدها، أكثر من صديقتين.

كانت السِتّ لويزة تتكلم العربيّة بطلاقة وعاشت كواحدةٍ من أهل القَرْيَة، تشارك ناسها جميع نواحي حياتهم اليومية، ولم تكن المرأة كبيرة السِّنّ بحاجة إلّا للباحثة الاسكندينافية الصغيرة لدراسة وتسجيل حضارة القَرْيَة.

خلال زيارتها الأُولَى إلى فِلَسْطِين، مكثت حَلِيمَة في

إرطاس لمدة عشرين شهراً، حتَّى آذار 1927م، وعادت في آذار 1930م تحت رعاية مُؤسَّسة أميركية ومكثت لمدة خمسة عشر شهراً. في المدة ما بين هاتين الفترتين من البحث الميداني، تلقت حَلِيمَة دورة في الآثار في مدرسة لندن الاقتصادية، ودورة أخرى في علم الأعراق البَشَرِيَّة، في ليبزيغ الألمانية.

سأرفع لك القبعة يا فأري، لحفظك كل هذه الأخبار، فقريتنا هي سلسة أخبار لا تنقطع، أزدني..أزدني، فأنا الآن أكثر من أي وقت مضى للتزوّد بالأخبار.

في ثلاثينات قرننا نشرت حَلِيمَة كتبًا عن الزواج والعائلات في قريتنا، ومُدحت كتبها بشكل واسع في الصحف الدَّوْرِيَّة المختصة بالأنثروبولوجيا في ذلك الوَقْت، وفاز كتابها (حياة الأسرة العربيّة) بجائزةٍ في منافسة اسكندينافية لتبسيط الأدب العلمي وجعله في متناول مدارك الجمهور.

وخلال الثلاثينات، أيضًا حاولت حَلِيمَة دون نجاح، الحصول على الدعم المادي لتمويل عودتها إلى فِلَسْطِين. وجددت محاولاتها بعد الحَرْب العالمية الثانية. وأخيرًا في عام 1959م، حصلت على منحة من مُؤسَّسة سويدية وعادت إلى إرطاس، لتجد الجَبَل الَّذي تاهت فيه أوَّل مرّة، وقد

تحول إلى مُخَيَّم الدهيشة للاجئين الذين شردوا من أرضهم، لقد تغيرت فِلَسْطِين.

أنت تعلم يا فأري، بأنه كان عليها أن تخوض تجربة جديدة، حلوة-مرّة، بعد ثمانٍ وعشرين سنة منذ أن تركت إرطاس، لقد حصلت تغييرات كثيرة في القَرْيَة، فالست لويزة وحمديّة وعليا، تبخرن في هواء القَرْيَة، ومكثت حَلِيمَة لمدة أربعة أشهر للتأكيد على بعض الملاحظات التي كانت قد أخذتها في السابق ومن ثُمَّ نشرت كتابها الأخير (الموت والدفن عند المسلمين) عام 1965م.

يأتيني صوت الأستاذ شريف عميقًا، هل تسمعه أنت أيضًا يا فأري: ركزت حَلِيمَة في كُتبها على الحياة في إرطاس. فهي تصف، بتفصيلٍ كبير، الأحداث والمراسم والمعتقدات التي تدور حول الولادة، وتربية الأطفال، وممارسات الطهور، وعادات الزواج، والأعراس، والطلاق، ومعاملة الموتى.

وتحليلها العميق لصلة القرابة وتاريخ الحالة الاجتماعية لكل فرد من أهل القَرْيَة، هو جهد كبير غطى نحو قرن من الزمان، مكنّها من توفير إحصائيات معلوماتية مثيرة عن دفع المهور، ومعدل الطلاق، وحالات تعدد الزوجات.

ولم تصغ نظريات موسعة بناءً على معطياتها بل فضلت

أن تقدم إلى القارئ المعلومات التي جمعتها بشكل مباشر وطازج بقدر الإمكان.

وخلال فترة مكوثها في إرطاس حملت حَلِيمَة كاميرتها في كلّ مكان وصورت العديد من الحياة اليومية لأهل القَرْيَة.

شكرًا أستاذ شريف، لم تنسني، وترسل لي صوتك بأكثر الجمل منطقية وعمقًا، لأنكَ تعرف ما أحتاجه هنا والآن، أكثر من أي وقت مضى.

لقد كتبت حَلِيمَة تاريخنا، وسجلت أسماء أجدادنا وجداتنا، وكيف تزوجوا وماتوا وفرحوا وحزنوا، ولكنَّها لم تكتب عن الحروب، التي أجد نفسي الآن غارقًا فيها.

غابت الشَّمْس، ولم نعد نسمع سوى أزيز بعض الطائرات في الجوّ، وصوت سقوط قذائف متفرقة. الوضع غير طبيعي، مخيف، أحسسنا بوطأة الانتظار. ننتظر، ماذا ننتظر؟ لَا نعرف، أخبرنا العراقيان بأن جَيْش العَدُوّ أجرى التفافًا على جيشنا، كانا يعرفان أكثر منّا، ولكننا لم نرَ أيّ جُنديّ مشاة من جنود العَدُوّ، وتوقف تحليق طائراته، وصمت القصف المتقطع، ثُمَّ مرت طائرات سريعًا، سقطت قذائف، ساد الهدوء القلق النذير، تقدم اللَّيْل، ماذا علينا أن نفعل؟ متى سنحارب؟ كيف سنحارب؟ هل انتهت الحَرْب أَمْ أنّها لم

تبدأ؟ أريد أن أنام، ولكن كيف وأين؟ وهل أستطيع؟ أكاد أتهاوى، لم أعد أشعر بجسدي.

في السَّاعَة الواحدة فجرًا، حضرت التركات، وطُلب منّا الركوب، تجمَّع الجنود، حضروا سريعًا من المزارع. ولم تكن التركات كافية لنا، امتلأت بأجسادنا، أصبحنا كالسَّرْدِين المملح في العُلَب المقفلة، تعلق البعض على أجنحة التركات، وأمسك آخرون بالأبواب الخَلْفِيَّة، لم يعد لأيٍّ منّا مكان على الأَرْض، وكأنّها لم تعد لنا، ولم نكن نستحقها، علينا جميعًا أن نتركها، ونصعد إلى هذه الآلات الحديدية، التي صنعها الإنسان لحمل البضائع، وها هي تحملنا وتتحرك دون أن نعرف إلى أين، وكأننا بضائع، ولكنَّها بضائع تالفة متهالكة مالحة، ستقذفها التركات في أقرب موقع مؤاتٍ. هل فعلاً لم نكن نعرف إلى أين ستتجه أَمْ أننا كنّا نؤجل الأمر، ولا نريد تصديقه، ونوقف الزمان ولو للحظات؟

ليته توقف الزمان..!

ليت الشَّرِيعة فاضت وأغرقتنا، بمعجزةٍ لنهرٍ يصنع منذ قرون المعجزات، لننال ما نستحق..!

شرق الجِسْر

بُكاء كما يجب أن يكون البُكاء

تحركت التركات نحو جِسْر دَامْيَة، أيقنت ما كان قد أيقنه ربحي مبكرًا، لقد عشت حالة إنكار، حاولت رغم أنّني مرصوص وسط الأجساد، أن أرفع عينيّ، لأكحلهما بمشاهد البيارات والمزارع، التي قد لا أراها مرّة أخرى، ولكنّني لم أرَ سوى السواد، لم أرَ أسْوَد من ظلام تلك اللحظات، فاكتفيت بتخزين أكبر قدر مِن رائحة المكان، استنشقت ما استطعت استنشاقه، وكأنني أودع فِلَسْطِين، ولن أراها مرّة أخرى، تخيلت وجه البلاد الحزين وهي ترانا نفرُّ هكذا، وبكل سهولة.

أين الحماسة، والإصرار، ومشاعر الانتقام، وحِسّ الثأر؟ أين وعود النَّصْر المؤكد، واستحضار التاريخ التليد؟ أين شذى القادسية وأحفاد المجاهدين؟ كلّ شيء تبخر أمام جِسْر صغير على نهر الأُرْدُن، سنقطعه بسهولة، وسيتحمل كلّ هذه الأطنان من الأجساد التعبة من حربٍ لم تشارك فيها، أو لعله لا يتحملها، فنسقط في النَّهر الضحل، ويبعث الله طوفانًا، فلا نخرج إلى البَرّ مرّة أخرى، طريقة فضلى

لغسل عار مَن هُزموا دون أن يحاربوا.

عند وصولنا الجِسْر، رأيت دَبّابة بجنزير وعليها نُصب مدفع رَشّاش أل 500. ماذا تفعلين هنا؟ هل تنتظرين جَيْش العَدُوّ وتسحقين أيّ تقدم له؟ أَمْ أنكِ ستحمينا ونحن نهرب، إلى ضَفَّة النَّهر الشرقيّة؟ لازمتني غُصَّة، لشعوري بأننا ببساطة نهرب، ونهرب هكذا هربًا للهرب، لم يكلف أحدٌ نفسه ليقول لنا ماذا نحن نفعل، ولماذا علينا أن نهرب في جوف اللَّيْل؟ ألا يوجد أيّ خيار غير أن نهرب، وماذا تعني دعوة الْمَلِك للمقاومة؟ أيَّة حرب هذه التي تُحسم قبل حتَّى أن تبدأ؟ يا الله..من يجيبني عن أسئلتي؟ لا شك أن جَدَّتي وامرأتي جالستان الآن تتابعان الأخبار التي تسح من الراديو، بماذا تفكران فيما يخصني؟ كيف تتصوران عودتي منتصرًا، أو هروبي مهزومًا؟ لا شك أن أخبار الهزيمة لم تصل إرطاس بعد.

أين التهديدات بمحق اليهود، والأغانيّ الحماسية؟ أين وعود اللقاء في تَلّ أبيب؟ ألا أستحق، أنا الَّذي تركت زوجتي حاملاً وانضممت للتدريب لمحو عار الهزيمة، أيّ تفسير؟ هل يعلم عني القادة، وهم يتخذون قرارات الحَرْب وعدم الحَرْب؟

سارت بنا التركات، وهي تُطوّح الجنود المتعلقين على الجوانب وفي المؤخرة، وتهرسنا نحن المتكدسين داخلها. توقفنا في نحو الثالثة والنّصْف فجرًا في منطقة الكَرَيّمة، هل هي تأنيث الكرامة! أَمْ تصغيرها؟ لقد أصبحنا في أمانٍ، أمان مِنمَن؟ لَا أحد يعرف ولا أحد يجيب، كلّ واحد من الجَيْش، عليه أن يعيش هروبه لنفسه ووحده، ويجيب عن أسئلته الآنية وتلك التي سترافقه إلى آخر العُمر.

أنزلتنا التركات، توقف عملها وخَضَّها لأجسادنا التي لم نعد نشعر بها، انتشرنا في المِنْطَقَة القريبة من مزارع البَنَدورة الحمراء، شعرنا بالهزيمة، بطعم ولون الدَّم، لم يكن لون البَنَدورة في فجرِ ذلك اليَوْم، إلّا لون الدَّم الَّذي لم يُسفح. كرهتُ البَنَدورة، وسأكرهها. نخر الشعور الَّذي من الصعب وصفه أجسادنا جميعًا، وحدتنا الهزيمة. سمعنا صوت انفجار ضخم، لقد فجروا الجِسْر، لواء العَدُوّ 188 كما سأعلم لاحقًا، تولى المَهَمّة، مستخدمًا ما غنمه من قذائف هاون تخص جيشنا، ولم يكن الصَّوْت الَّذي تردد رجع صداه في غَوْر الأُرْدُن، إلّا تأكيدًا على هزيمتنا، لقد انتظروا وصولنا، ليعلونها بأكثر الطرق إهانة للكرامة: أنتم جَيْش مندحر مهزوم لا يستحق الأَرْض، وها نحن نكسر خلفكم نخارتنا، ولكنَّها ليست كأي نخارة، إننا نفجر الجِسْر خلفكم، خرجتم ولن تعودوا،

جسركم لم يعد معبرًا ولا ممرًا، إنّها طريق هروب لمرّةٍ واحدةٍ وأخيرة، طريق فرّ، ولا مجال لأي كرّ.

وفجأة شَقّ هواء الفَجْر في صيف الأغوار، شهيق أحدنا وبكاءه، وارتفع شيئًا فشيئًا، وكأنَّه يريد أن يُسمعه مِن هنا مِن قاع العالم، إلى العالم الَّذي يقف فوقنا، ينظر لنا ولعارنا، وربّما يبوِّل علينا، ولكن رذاذ البول يتطاير في رحلة نزوله، فلا يصلنا منه إلّا رائحته، نعم شممنا رائحة هزيمتنا، كما للنصرِ الَّذي لم نعرفه رائحة، للهزيمة أَيضًا رائحة البول المنتن، رائحة الصَنِّ التي لا تحتمل.

انتشرت عدوى البُكاء بشكلٍ سريع، بكينا جميعًا وشهقنا، وسالت دموعنا مدرارًا، وقال أحدنا: لنبك مثل النِّسَاء. أُمْ أَبي عبد الله، آخر ملوك الأَنْدَلُسِ قالت له وهو يرى سقوط مملكته، ويزفر زفرته الأخيرة: ابكِ كالنساءِ مُلكًا لم تدافع عنه كالرِجال، ولكن نحن نبكي حالنا، بعد أن بكى العَرَب قرونًا سقوط الأَنْدَلُسِ، حتَّى أضحى لكلِّ واحد منّا أندلُسٌ يبكيها، فِلَسْطِين هي أندَلُسي، هي أندَلُسنا نحن الذين نبكي في قاع العالم كما يتوجَّب البُكاء، نبكي تلك الأيَّام القليلة الماضية التي مرت كنيزك أو لمعت كبرقٍ، أو بسرعة انفجار بركان، لقد فقدنا بلادًا وعندما أيقنا بأننا سنستعيدها، أُخذ منّا ما تبقى منها، بغفلةٍ هكذا، كالموتِ الَّذي يطرق أجسادنا دون

إنذار، ويأتي دائمًا في الأوقاتِ غير المناسبة.

ما أصعبها من لحظات، عندما يشهد علينا الفَجْر الَّذي تُبدد هدوءه شهقاتنا، والمياه التي لم تكف عن الجريان في النَّهر الْمُقَدَّس، نسمع صوتها هادرًا غاضبة، وروائح الآلام التي عبرت الجِسْر تغزوا أنوفنا، يا الله..يا الله ما أصعبها ما أقساها من لحظات، حتَّى القمر كان حزينًا حزينًا، وخِلنا بأن الشَّمْس لن تشرق علينا، وتمنيت أنا ألّا تشرق أبدًا، فالعار في الظلام غيره في الضَّوْءِ، الظلام يسترنا، والضَّوْءُ سيحرقنا.

البُكاء يعلو ويعلو، لم يعد لدينا سوى أن نشهق ونشهق، انهار منّا العديد مفترشين الأَرْض من كثر البُكاء، لم تعد هناك دموع تُدمع، لم تتبقّ إلّا الدِّماء لتحل محل الدُّمُوع، تَفَجَّرَتْ العيون وجحظت، لتخرج من محاجرها، تنطّ إلى تراب الغَوْر.

لم يسمعنا العالم، ولم يتجاوز صوتنا غَوْرنا البائس مثلنا، كنّا نبكي ولا نعرف إذا كنّا سنبكي للأبد، أبد الأبد، أَمْ أن شيئًا سيحدث، يغيّر ، يكشف، يُطهرنا، يَغسلنا، يُعيد خلقنا في مكانٍ آخر بعيدًا عن أرض الأنبياء والهزائم هذه.

في السَّاعَة الخامسة، أو السادسة، مع النجمة، وبزوغ الشَّمْس على استحياء، وصل قائد الكتيبة مُحَمَّد العُمري، لم

نرَ بعد قائد السَّرِيّة، ولا نعرف أين اختفى.

عندما رأى ما رأى فينا من هبوطٍ وهوانٍ وهذيان، وقف على مقدمة اللاند لوفر، لكي نراه جميعًا ويرانا، وصرخ لتردد التلال الجافة صدى صراخه:

«يا أحفاد خالد، وأحفاد عمر، وطارق بن زياد، يا جنود فتح بَيْت الْمُقَدَّس، يا جنود القادسيّة، وصلاح الدين، واليرموك، وأُحد، والخندق، وعين جالوت ماذا جرى لكم لتبكوا مثل النِّسَاء؟!، البُكاء لا يليق بكم يا وحوش الأغوار، يا ضِباع الشَّرِيعة ومن تعمدتم بمائها كرامةً وشجاعة. لقد خبرتكم في الأسابيع الماضية وأعرف معدنكم الصلب، تضرسون الحجارة لو أردتم، وتشقون الأَرْض أنهارًا، وتزيلون الجبال بإرادتكم الحرة العربيّة الأبية.

ماذا جرى لكم يا أبنائي وأشقائي؟ لتنوحوا وتهزلوا وتقتربوا من الموت، وكأنكم في انتظار يوم الحساب، وحسابنا لم ينتهِ مع أولاد القِرْدة والخنازير، ولن ينتهِ فمكتوب علينا أن نرابط في هذه الأَرْض حتَّى يوم الحساب، وكل شيء، عند ربنا، بحسابٍ وثواب.

هذه هي الحَرْب يا أبنائي وأشقائي، ألا تعلمون أنّها كرّ وفرّ، هذه هي العسكريَّة، هذه هي الحَرْب، ليس فقط

عندنا، ولكن في كلّ العالم، رسولنا، سيّد الخلق نفسه، هُزم وانتصر، وطارق بن زياد قال البَحْر..البَحْر، بحرٌ من أمامكم، وبحرٌ من خلفكم، وهنا نقول جِسْر من خلفكم، ونهرٌ من خلفكم، وبحرٌ ميت من خلفكم، وأيضًا نقول: جِسْرٌ، ونهرٌ، وبحرٌ ميت أمامكم، جِسْر سنقطعه، حتَّى لو فجروه، وهذه المرّة لن نتوقف، حتَّى نوقف العَدُوّ، ونمحو العار، عار الأَرْض من البَحْر إلى النَّهر، أترون نهرنا هذا، جرى فيه التاريخ أكثر مما جرت فيه المياه، تَعَمَّد فيه سيدنا عيسى، على يد سيدنا يحيى، وسنتعمَّد فيه غضبًا وثورةً على المحتل، ومثلما شهد على تقهقرنا المؤقت، سيشهد على نصرنا المبين.

هل أنتم أنفسكم الذين عرفتكم سابقًا وأبديتم الاستعداد، والحماسة، والثقة؟ البُكاء لَا يكون لكم، ولكن لأعدائكم، جففوا الدُّمُوع، اتركوها على التُّراب تجفّ وانهضوا، ما زال لدينا الكثير، نحن الآن نفرٌّ وغدًا نكرُّ، والحرب خدعة، لتجعلوا معنوياتكم تشقّ عنان السَّماء، مِن قاع العالم إلى سقفه، بدلاً من البُكاء».

وبينما كان ينطق كلماته الأخيرة التي بدأت تؤثر فينا، وتشنف آذاننا مستعدين للكرِّ والكرِّ دائمًا ومن جديد، قفز العُمري عن اللاند، وركع على الأَرْض يغترف التُّراب بكفيه، ينعفه على وجهه، وهو يبكي ودموعه تسح على

وجنتيه وتختلط بالتراب الَّذي استزاد منه نعفًا على رأسه، ويلطم، ويلطم بشدة، وسرت عدواه في كثيرٍ منّا، وعادت المناحة الجماعية من جديد.

لم يستطع العُمري أن يكابر أكثر، ولم يُصدق نفسه، وهو يرفع معنوياتنا، كانت معنوياته مثل معنوياتنا، تحتاج إلى رفع، فبكى ولطم ونعف التُّراب، عله يتطهر، الدُّمُوع تُطهر، ولكن بدا لنا في تلك اللحظات أن دموعَ العالم كلّه لن تتمكن من تطهيرنا من نجس الهزيمة.

قبل الحَرْب حدثنا العُمري، أنا ويُوسُف وربحي، عن قريته صيدا في محافظة طولكرم قريبًا من حدود عام 1948م، وتمنى لو أنّه سيكون هناك عندما تبدأ الحَرْب ليقطع أولاً حدود العار كما يسميها، ولكنّه الآن هنا، وليس هناك، ينوح، وينوح، مثلنا تمامًا.

مُثَلَّث العارضة

مع تقدم النهار، وتنفس الظُّهْر، كنّا قد تنفسنا نحن أَيضًا، تنفس الثاكل الَّذي كاد يقتله البُكاء، جمعنا أغراضنا، ونوديَ فينا، بأنَّنا لن نتمركز في هذا الموقع الَّذي شهد عارنا، وبكاءنا، وأنه علينا أن نُجهز أنفسنا، فثمة محطة أبعد شرق الجِسْر، تنتظرنا. عندما يقطع أمثالنا الجِسْر هاربين، فعليهم الاستمرار في الهروب، مَن يهرب لا يتوقّف عن الاستجابة لنداء هروب يولده نداء هروب آخر.

نقلونا إلى مُثَلَّث العارضة، الطَّريق المؤدية إلى مرتفعات السَّلط، ويسارًا إلى دَيَّر علّا، إلى الأعلى ترتفع تَلّة، اعتليناها، وجدنا غرفًا مهجورة، سُكّنّا فيها، وفي الأيَّام التَّالِيَة، حفرنا الخنادق بالفؤوس والمجارف، ومددنا خطوط اتصال بين الخنادق، الجَيْش دون خنادق لا يكون جيشًا، هل ما زلنا فعلاً جيشًا؟

اجتمع شملي مع صديقيّ يُوسُف وربحي، في الواقع لم نفترق تقريبًا خلال الأيَّام الحزينة القاسية السابقة، ورحلة الهروب، ولكننا هنا أصبحنا من جديد، وكما كنّا في المركز

88 لا نفترق، عملنا معًا في حفر الخنادق، وعندما ننتهي نهجع إلى الغرف، تعبين، هائمين، محتاري الدليل، مثل باقي الزملاء.

نستيقظ فجرًا، ونبدأ في الحفر، وما إن تصبح السَّاعَة العاشرة، حتَّى تحرقنا شمس الأغوار، فنعود إلى الغُرف. القَائِد زلّوم، ظهر قائدًا من جديد لنا، يرتب أمور المُعَسْكَر ويشرف على الحفر، وإيصال التموين، وباقي الأمور الإدارية، محاولاً لملمة هذا الجزء من الجَيْش المنهار.

أصبح أقرب إلينا، عددنا يتناقص باستمرار، الجنود يفرُّون، لم تعد للجيش هيبة، وفي بعض الليالي نجلس إليه، نستمع إلى حنينه إلى الخليل، ومرابع آل زلّوم في عَيْن سارة، خارج البَلْدَة القديمة.

يروي لنا: «رغم شهرة عَيْن سارة وقدمها، إلّا أن ذِكرها لدى المؤرخين والرَحَّالة كان مقتضبًا، تقع العَيْن المنسوبة لسِتّنا سارة، جَدَّة الأنبياء، في حقلٍ يطل على شارع القُدْس-الخليل، ولا يفصلها عنه سوى نحو ثلاثين مترًا، وبالقرب منها يوجد بناء قديم مُكَوَّن من أكثر من طابق وهو أحد الأبنية التي نطلق عليها اسم قصر، بناه أجدادنا الذين تمددوا من بلدة الخليل القديمة إلى خارجها في العشرينات أو الثلاثينات،

كانوا مبادرين للخروج إلى شمس الحقول، ومغادرة رطوبة المنازل والشوارع والحارات والأسواق والوكالات المقببة والمساجد والحمامات العثمانيّة والمملوكية، ولم يكن صدفة أن يُشيدوا القَصْر قرب العَيْن التي اعتمدوا عليها في تأمين حاجتهم من المياه، كم أتوق الآن إلى شُربة ماء منها، القَصْر أو المنطار هو بناء الفلّاح الصيفي، ارتبط بموسم الزَّيْتُون والتين، والخليل مدينة ولكنَّها تختلف عن مدننا الأخرى، هي مدينة المدنيين والفلَّاحين، أهلها أصحاب مهن وأيضًا يزرعون ويقلعون، وقصور الفلّاحين متواضعة، يسمونها بيوت الحجر، ولكن قصرنا، كان قصرًا حقيقيًا، بناء من حجر للسكن، هل ستدور الدائرة ونعود؟».

ويواصل بثقةٍ وبصوتٍ هادىء: «بالطبع سنعود، لا يوجد احتلال على وجه الأَرْض يُعَمِّر، نعم احتلوا أرضنا ولكننا سنقاتل، ونقاوم، لن نجعلهم يهنئون».

نثق بما يقوله قائدنا، بأننا سنعود يومًا، ولكن كيف ومتى؟ هذا ما لا نعرفه في أيَّام ضبابية تشعرنا بالعجز.

ومثل أيّ جَيْش حقيقي، يحرص زلّوم على تكليفنا بالغفارات، كلّ غفير يغفر أربع ساعات في اللَّيْل، وكم كنت أجدها متعبة ومهلكة. غفارة لماذا؟ ومِنمَن؟ ولمن؟ فما

كنّا نخشاه حدث، ولم نتصور أن يلاحقنا العَدُوّ إلى مُثَلَّث العارضة، فلماذا الغفارة؟ ولكن زلّوم، كعسكريٍّ مهنيّ، أراد لملمة ما تبقى من كتائبه، محاولاً التقليل من الانهيار.

في مُثَلَّث العارضة، توالت الأخبار التي تأتينا من الأَرْض التي لم تكن قبل أيَّام مُحتلة، حركة التسلل عبر الشَّرِيعة من الجانبين مستمرة، عائلات تريد لم شملها، جنود تقطعت بهم السبل يقطعون الشَّرِيعة ويلتحقون بنا، ويروون ما تدمع العَيْن عليه مما أصابهم من هوان، طلاب يغادرون إلى جامعاتهم، وأرباب أُسر يعملون في الخليج يعودون لتفقد عائلاتهم.

ولم يكن الخروج من الأَرْض التي أصبحت مُحتلة يتمّ دائمًا تسللاً، فجيش الاحتلال الجديد الَّذي نسف الجُسُور، سمح وشجع النّاس على المغادرة، والخوض في المياه تحت الجسور، ووضع نقاط عسكريَّة على مداخلها، وطلب من كلّ شخص يريد أن يغادر التوقيع على ورقة بأنه سيغادر دون عَوْدة، ونقلت حافلات الاحتلال أعدادًا كبيرة من المواطنين من مدننا الْمُحْتَلَّة ورمتهم على الجسور، خصوصًا جِسْر اللنبي ليشرقوا، ولا يعودوا غربًا.

جاءنا خبر عن مَعْركة وادي التُّفَّاح في نابلس، التي كان

يجب أن نخوضها، أشعر بغُصَّة لأننا كان يجب أن نكون هناك في نابلس وليس هنا، قيل بأن جَيْش الاحتلال عندما واجه أبطالنا وهم يقودون مدرعاتهم، متعاهدين على عدم الاستسلام، استخدم النابالم في ضربهم، حلقت طائرات العَدُوّ وضربت أبطالنا، أرادت حرق كتيبة الدبّابات الثَّانِية التي قاتلت بشجاعة، وبعد يومين من انتهاء المَعْرَكَة التي فاجأت العَدُوّ، الَّذي اعتقد أنّه لن يكون هناك قتال وهو يحتل ما تبقى من بلادنا، نظم جنازات للشهداء وفي مقدمتهم المقدم صالح الشويعر، قائد الكتيبة، بمراسم عسكريَّة، تقديرًا لشجاعتهم، النّاس تؤسطر الأبطال والأحداث في مناخات الهزيمة، وما تبدو أنّها إشاعات تصبح لديهم حقائق.

اعتراف العَدُوّ بشجاعة الأبطال الفردية كما يؤسطرها النازحون، كانت تزيدنا حسرةً، لأنّه لم يتح لنا المشاركة في ملاحم الصمود والدفاع عن أرضنا.

أصبحت الأخبار التي تصلنا مباشرةً أو متواترة عن الشهيد أَبي هاشم، تصطبغ بروح الشهادة المُقَدَّسَة. قال أَبو هاشم لجنوده قبل بدء المَعْرَكَة:

«العَدُوّ أمامنا وثأرنا يستعر منذ النَّكْبَة، ودم شهدائنا أمانة

في أعناقنا وعَيب علينا إن لم ننتقم لدمهم-دمنا، هذه فرصتنا لنبرد الدَّم النازف الساخن منذ النَّكْبَة، مَن يرد أن ينسحب فهو مثل النِّسَاء تُحرم عليه الشمغ حمرا هدايبها.. ومن يرد الشهادة فليمض خلفي..لا إله إلّا الله ، محمدًا رسول الله.. الله أكبر».

بدأت المَعْرَكَة واستمرت ثلاث ساعات، دخل جَيْش الاحتلال مدينة نابلس في السَّاعَة الثَّانِية عشرة بلواء مدرع من بوابة نابلس الشرقيّة عن طريق وادي الباذان آتيًا من مدينة بَيْسان، التي كنّا سنستعيدها، ليلتقي بلواء مدرع آخر دخل نابلس من بوابتها الغربيّة خرج من بلدة الخضيرة المحتلّة غرب جنين.

استخدم جَيْش العَدُوّ خُطَّة التفاف على جيشنا، ولكن شويعر، أصرّ على خوض المَعْرَكَة الانتحارية، دون إسناد منّا، لقد خذلناه، ومعه الشهداء: سُلَيْمان عطية الشخانبة، وصياح فياض الفقراء، وراشد شَرِيف نمر العظامات، وغيرهم من الذين سطروا ملحمة صمود، وأَخَّرَوا تقدم مدرعات العَدُوّ حتَّى السَّاعَة السابعة مساءً، لحظة استشهاد المقدم شويعر. أي تشابه في الأسماء هذا، شويعر البطل، وشويعر التي رابطنا فيها لننتصر، ومنها طُلب منّا المغادرة لنصرة القَائِد شويعر ورفاقه، ولكن حدث ما حدث،

وكأنَّه كابوس لا أستطيع حلّ لغزه حتَّى الآن.
توالت أخبار مَعْركة وادي التُّفَّاح في الأيَّام اللاحقة، كنَّا بحاجة لمثل هذا الصمود لنتماسك أو لنتعزى. تمكَّن شويعر ورفاقه، من قتل عدد كبير من جَيْش العَدُوّ، وعندما نفذت الذخيرة، قاد ورفاقه دباباتهم، لتصدم دبابات العَدُوّ، غير آبهين بنيران العَدُوّ، وتمكّن من إعطاب ثلاث دبابات للعَدُوّ.
خِطط الالتفاف تكاد تكون إستراتيجية لدى جَيْش العَدُوّ، وبدأنا كجيش مهزوم، وشعوب مهزومة نصدق الحكايات ونخترعها التي توغل فينا سلخًا وجلدًا.
قيل بأن صحافيًا هنديًا زار دَوْلَة الاحتلال قبل الحَرْب والتقى الجنرال موسى ديَّان، صاحب العصبة الشهيرة على إحدى عينيه، وأخبره ديَّان بخطة الحَرْب المقبلة مع العَرَب وكشف له عن الضربة المفاجئة بالطائرات لمرابط طائراتنا، وخطط الالتفاف، وعندما استغرب الصحافي من كشفٍ أسرار عسكريَّة، ابتسم ديَّان وقال له:
-لا تقلق العَرَب لا يقرأون وإن قرأوا لا يفهمون..!
وقيل أَيضًا بأن ديَّان طبق خططًا إسرائيليّة جُربت في العدوان الثلاثي على مصر واحتلال قطاع غزة وسيناء،

وأن العَرَب لم يستفيدوا من التَّجْرِبَة.
أي عرب نحن؟! الَّذي يلهو العَدُوّ بنا كلّ هذا اللهو ويخبر حكاياتنا لصحافيّي العالم، لكي يلهو بنا العالم أَيضًا.
الأخبار، يتوالى وصولها إلينا، عبر النازحين والنازحات، وقصص الموت، والنجاة، هي التي تستحوذ على قدرٍ أكبر من اهتمام النّاس، علمنا بأن العشرات من جنود جيشنا ومن المدنيين قتلهم الطيران الإسرائيليّ، خلال النزوح إلى الشَّرْق، مَن صمد وبقي في الأَرْض ولم يغادرها، حظه كان أفضل.
جثث كثيرة بقيت دون دفن في بَرّيّة القُدْس الممتدة للبحر المَيِّت، وأخرى دفنها مواطنون محليون، وأصبحت حكايات يرويها النازحون بألمٍ.
من الحكايات التي كنت أوَّل من يسمعها شرق النَّهر، من امرأة قطعت النَّهر، تجرّ أولادها، لتلحق بزوجها الَّذي نزح مُبكرًا إلى الشَّرْق، وصفت كيف دخل جَيْش الاحتلال إلى القريتين التوأمين دَيَّر جرير المسلمة، والطَيّبة المسيحيَّة، شرق رام الله، جيب جَيْش الاحتلال يقتحم الشارع الرَّئيس، ويطلق جُنديّ النَّار برشاشه شمالاً، ثُمَّ يطلق النَّار جنوبًا والجيب مستمر في طريقه، وكأَنَّه إعلان للاحتلال

الجديد، لم تكن هناك أيَّة قُوَّة تواجه المحتلين، والنَّاس في منازلهم حيارى.

احتل الجنود الإسرائيليّون، مَرْكَز شرطة الطَيّبة، وحضر ممثلون عن جَيْش الاحتلال الجديد، وطلبوا من مُخْتَار الطَيّبة ومختار دَيَّر جرير، استلام جثتي جنديين أردنيين، استشهدا في الحَرْب، ودفنهما.

مُخْتَار دَيَّر جرير عبد الفتَّاح شجاعية، مناضل قديم شارك في ثورة فلّاحي فِلَسْطِين بين عامي 1936- 1939م، وفي جَيْش الجهاد الْمُقَدَّس عام 1948م، وخاض معارك ضدّ العصابات الصِّهْيَوْنيّة على خَطّ القُدْس- بَيْت لحم، وعمل في مقر الهيئة العربيّة العليا في القُدْس القديمة، مرافقًا لأحمد حلمي عبد الباقي عضو الهيئة، وتحت قيادة قاسم الريماوي، في جَيْش الجهاد الْمُقَدَّس في بير زيت.

حاول أن يستغل شجاعته وحكمته ودبلوماسيته في نقل الجثمانين إلى مقبرة دَيَّر جرير، ليدفنا على الطريقة الإسلاميّة، بعد أن تأكد له بأنهما من قَرية (خرجة) قرب مدينة إربد، ونجح في مسعاه ولكنّه فشل في إقناع جَيْش الاحتلال بالسماح بإقامة الصلاة على الجثمانين، ورغم التشديدات الاحتلالية الأمنية، والظروف الصعبة التي

أعقبت الحَرْب، إلّا أن معظم أهالي دَيَّر جرير، خرجوا إلى المقبرة لتشييع الجثمانين.

تتحدث المرأة بألمٍ ومرارة وقليل من الفخر عما جرى في قريتها، وفي مقبرتها التي تحوي عدة قبور لشهداء ارتقوا خلال حقب نضالية مختلفة مرت على فِلَسْطِين، منها قبر الشهيد مُحَمَّد عَوْدة حمدان الَّذي أُعدم شنقًا في معتقل المسكوبية بالقُدْس عام 1937م، لمشاركته في الثَّوْرَة، وشكَّلَ بالنسبة لأهالي القَرْيَة قدوة نضالية، وتحوي المقبرة أَيضًا قبر الشهيد عبد الله العبد عمّار، الَّذي استشهد في شهر حزيران 1948م، بعد إصابته خلال مشاركته في المعارك التي جرت حول مدينة القُدْس، ودفن في مقبرة قبة راحيل في بَيْت لحم، إلّا أن شجاعية الَّذي كان مقاتلاً في تلك المِنْطَقَة، أصرّ على إخراجه من قبره بعد أيَّام من دفنه، ونقله في ظروف صعبة من بَيْت لحم، إلى دَيَّر جرير، عبر طريق وادي النَّار، فأريحا، فطريق المُعَرّجات.

وما زالت ذكرى تلك الرحلة الصعبة، منقوشة بتفاصيلها في ذاكرة امرأة هربت من العَدُوّ الَّذي وصل قريتها، لتروي حكايات عنه في غَوْر الأُرْدُن، لجنودٍ مهزومين.

مُخيَّم لاجئين

كنّا شهودًا على نزيف النزوح، وقلوبنا تُعتصر، مشردو النَّكْبَة سموهم لاجئين، ومشردو النكسة سموهم نازحين، لماذا؟ لا أعرف، ربَّما للتمييز بين تشريد وتشريد، وكثير من المشردين، إن لم يكن معظمهم هم من مُشردي التشريد الأوَّل، عاشوا ليشهدوا التشريد الثَّانِي، ويحملوا اللَّقَبين.

ليس بعيدًا عن معسكرنا، حطَّت مجموعة من النازحين والنازحات، اللواتي كنَّا نراهن يحملن صُرَّات على رؤوسهن، يتقدمن الأطفال والعجائز مع أزواجهن. في وقت الحَرْب تُظهر النِّسَاء شجاعة أكبر، في حين يتوارى الرجال خلف خجلهم وعجزهم، وكأنهم هم المسؤولون عن نتائج الحَرْب، حتَّى لو لم يكونوا في الجَيْش.

الرجال يذهبون للحرب فيُهزمون، وعلى النِّسَاء تدبر ثمن الهزائم، ليس مثل الفلسطينيات من يضطلع بهذا الدور، وانقاذ ما يمكن إنقاذه، أقول ذلك عندما أتذكّر لاجئات مُخيَّم الدهيشة، وملحمة حملهن للماء من عَيْن إرطاس، صعودًا إلى المُخيَّم. لطالما تصورت الصعود الصعب، وخلته

أنّه لن ينتهي، وأنَّ اللاجئات لن يصلن أبدًا لمنازلهن المؤقتة في المُخَيَّم.

وقبل إنشاء المُخَيَّم، تدفق اللاجئون إلى قريتنا، وتتذكر جَدَّتي كيف سكنوا المغر، والمسجد، وناموا تحت الشجر، وبعضهم ناموا مع أهل القَرْيَة في بيوتهم، وتسلقوا الجبال، ليجمعوا النتش (البلان) المتراكم للطبخ وللدفء، حتّى لم يعد وجوده متاحًا، لم تنسَ جَدَّتي أبدًا منظر أطفال اللاجئين الفقراء، وهي التي لم تنسَ الطفلة اليتيمة التي كانتها، فقراء لجأوا إلى فقراء ولم يكفوا عن إنجاب الفقراء طوال قرون.

لم يكونوا فقط فقراء التمسوا اللجوء لدى فقراء، ولكنّهم مشردون شُردوا لقرية مشردين. فلّاحو فِلَسْطِين لم يكفوا يومًا عن عيش الفقر والتشرد والتَّرْحَال.

شهدنا النازحين يتسربون إلى أرضٍ سهلية زراعية، امتلأت بالمشرَّدين والمشرَّدات والشاردين والشاردات، الخيام تُنصب وتتكاثر مع مرور الأيَّام، ولكنَّها ليست كالخيام، شبيهة بها، غطاء يستر، أي شيء يمكن أن يصلح للمهمة، للإيواء المؤقت. إنّه مُخَيَّم فلسطينيّ جديد على أرضٍ غريبة، واحد من عشرات المخيَّمات في الوطن والشتات، بعد أن يُشرد الفلسطينيّ من أرضه، لا يعود يملك إلّا خَيْمَة ينصبها

على أراضي غيره.

جاء أصحاب الأَرْض إلى معسكرنا، مظهر السُّلْطَة القائم في المِنْطَقَة، يعترضون ويستصرخون ويشكون، يعلمون من تجارب غيرهم، أنّه إذا نُصب مُخَيَّم فإنَّ كلّ وعود السياسيين والحُكَّام بإعادة النّاس إلى الوطن لا تجدي، ونذيرهم للعَدُوّ يتبخر، فكيف سيكون الأمر بعد الهزيمة السريعة والصاعقة في حرب ربَّما تدخل التاريخ كأقصر الحروب بين فريقين، عَدُوّ صغير عدد سكانه لا يُذكر مع عديد العَرَب الذين خاضت دولهم الحَرْب.

لم يستجب النازحون الَّذي يزيد عددهم يومًا بعد الآخر، بمطالبة الإخلاء، أين سيذهبون؟ ولكن أصحاب الأَرْض صرخوا أَيضًا: إلى متى سيظلون؟ وأصبحنا بين شقين، نحن الذين فشلنا في مَهَمَة التَّحرير فهزمنا وتسببنا بسيل النازحين، ونحن السُّلْطَة هنا، في مجتمعٍ يفقد سُلطاته المنهارة، والتي على وشك الانهيار بفعل الهزيمة، وعلينا أن نستجيب لنداءات العدالة، أين تكمن العدالة بين الشقين؟

شكَّلَ القَائِد زلّوم دوريّة بمركبتين من اثني عشر فردًا وأنا واحد منهم، وضعنا خُطَّة للالتفاف على المُخَيَّم، رأينا أن معظم الموجودين من النِّسَاء والأطفال، أين اختفى

الرجال؟ لا نعرف، هل ذهبوا ليلتقطوا أرزاقهم؟ رأينا صُرَّات الأغراض متناثرة على التُّراب، لا مكان لها بعد في الخيام البدائية، وربّما ستكون رفيقات رحلة طويلة، لا يعرف أي من النَازِحين والنَازِحات أين تحطّ، الأقدار هي التي تتحكم بهم ولا أحد يعرف ماذا تخطط وتخبيء، أمَّا بالنسبة لنا، فالتعليمات هي إخلاء الأَرْض الْمُحْتَلَّة منهم وإعادتها إلى أصحابها حُرّة مصونة.

أعرف مشاعر أصحاب الأَرْض، وأتذكر كُره نسائنا لنِسَاء الدهيشة، عندما يتجمعن على عَيْن إرطاس، ليأخذن حِصَّة من الماء الَّذي أصبح شحيحًا مع حاجات الجَيْش التي لا تنضب منه، كن يرين الدهيشيات غريمات جئن ليشاركن أهل قريتنا ثروتهم المائية التي صنعت مجد وادي إرطاس الزراعيّة.

تتشاجر النِّسَاء مع النِّسَاء، ويتفرج الحارس (أَبو عمّار)، وعندما يصادف وجود دوريّة للجيش، يحاول الجنود فض الشجار بالعصي التي تسقط على أجساد النِّسَاء لا تفرق بينهن.

حاولنا أن نُحدث أكبر أثر على النَازِحات والنَازِحين القلة، ليشعروا بسلطتنا، وينظروا للمهمة التي كلفنا بها بجدية،

صحيح أننا جَيْش مهزوم إلا أننا ما زلنا جيشًا، وعلينا أن نضبط الأوضاع ونحول دون وقوع المشاكل بين النّاس، ونحفظ السلم الأهلي، درنا حول المُخَيَّم، مستعرضين قوتنا، وأظهرنا لهم ولهن بأن الأمرَ بدا محسومًا كمن يمسك فأرة في مصيدة، فلا يكون أمامها سوى الاستسلام، فقط الاستسلام دون ضجيج أو مقاومة أو جَلَبة.

عندما اقتربنا أكثر، اقتربت منّا امرأة، شَمَّرَت ثوبها المُطرِّز المُعفَّر بالتُّراب. لقد شَمَّرَت حربها، وبادرتنا وهي تلوح بغصنٍ صغير وكأنَّه عصاها وسلاحها الوحيد: «إلى أين؟ إلى أين ذاهبون؟ يا جنودنا وأبطالنا، هل ستقصدون الأَرْض المُحْتَلَّة لكي تحرروها؟ هل ستحملوننا معكم لتعيدونا إلى منازلنا؟ أَمْ أنكم جردتم تجريدة لكي تقتلونا؟ تمسحون عاركم بدمنا، أنتم يا مَن ارتديتم ثيابنا وهربتم، كم واحد من جنود كم دخل على منازلنا واستعار ثيابنا وثياب بناتنا وأمهاتنا وارتداه وهرب؟ هرب بثياب امرأة كي يتوارى عن جنود اليهود. كم واحد منكم أخفته امرأة في منزلها حتَّى تُدبِّر طريقة لتهريبه؟ كم واحد منكم شاركنا طعامنا ومواردنا الشحيحة بعد أن تَقَهْقَر الجَيْش وانفرط؟ كم واحد من أفراد كم قضى وغامرت نساء لسحبه ليدفنه الرجال؟ الآن أتيتم لتخرجونا من هنا، أَيُّها الكلاب اذهبوا من هنا، الكلاب ربَّما كانت

أفضل منكم، فهي لن تتخلى بسهولة عن دورها بالحراسة».

لقد كانت بألف رجل من أمثالنا، ولم تتوقف عن الهجوم: «إذا قرّر أحدٌ منكم الدخول إلى ترابنا، فعليه أن يتشهد قبل فعل ذلك، لن نسمح لكم بالمرور إلّا على جثثنا، يا جيف الحَرْب، يا عار العار، صوبوا بنادقكم لمن خذلكم وخانكم وسلَّم البلاد والعباد، ألا تتَدَبّرون؟ أنتم منّا ولنا، ألا تفهمون؟».

كانت تدافع عن عرينها، تظهر لنا كيف يمكن أن يدافع المرء عن عرينه، حتَّى وهو يواجه قُوَّة طاغية.

شعرتُ بالخزي، أصابنا كلامها في مقتل، حتَّى الضابط مسؤول الدَّوْرِيَّة قال: لنعد..لنعد، وانسحبنا. لقد رأيتُ دموعًا في عينيه لم ينجح في حبسها.

رسالة من الأستاذ

لا يأتي من يسأل عنّا في المُعَسْكَر، من الأهلِ أو الأصدقاءِ أو المعارفِ، ولعلهم لا يعرفون أين نحن، ولكن في يومٍ وأنا عائد إلى المُعَسْكَر بعد أن استحممتُ في قناة الغَوْر الشرقيّة، وجدتُ مَن يخبرني بأن هناك مَن ينتظرني.

الاستحمام في القَنَاة، مِن فضائل الهزيمة، وتعويض عن شحّ المياه خلال الحياة العسكريَّة غرب النَّهر، فلم تكن حِصّة الواحد منّا سوى تنكة ماء كلّ أسبوعين أو ثلاثة أو حتَّى شهر، عندما يأتي صَهْريج المياه ليوزع علينا حصصنا، فيعمد الواحد منّا خلف صخرة ليكب الماء عليه، محاولاً الاستفادة من كلّ قطرة لتنظف الأوساخ المتراكمة.

فوجئت بأن الَّذي ينتظرني (أَبو سمير)، الجُنْدِيّ في الجَيْش النظامي من قريتنا، والَّذي كان وقت الحَرْب في نابلس.

أردت أن أعرف من أَبي سمير جملة أمور مرّة واحدة، كيف وصل إليَّ؟ ومِن أين أتى؟ وماذا حدث في نابلس؟

نظرات الانكسار واضحة في عيني أَبي سمير، وجدته شبه محطم، واستمعت لقصته، أخبرني بأن الجَيْش الإسرائيليِّ،

هاجم مدينة نابلس من الشرق، فبعد احتلاله لطوباس، التف نحو نابلس، عبر شِعاب جبل عيبال، وواجه مقاومة من متطوعين من شباب المدينة في يوم الأرْبِعاء السابع من حزيران، ولكنّه تمكَّن من الانتصار عليهم، وواصل احتلال أحياء المدينة، ملقيًا القنابل الحارقة على المنازل، وعندما حوصر أَبو سمير مع رفاقه في كتيبة الدبّابات الثَّانِية في مدخل نابلس الغربيّ، في وادي التُّفَّاح، ، قاتل كما يجب أن يكون القتال، مع أنَّ الأمرَ كان انتحارًا، بعد إحكام جَيْش الاحتلال الطَّوْق عليهم، ولكنّهم فَضَّلوا الاستشهاد على الاستسلام، وفي حين استشهد رفاق له، أُصيب هو، فنقله المحتلون إلى مستشفى نابلس، وبعد أيَّام، ووسط الفوضى وانعدام سيطرة الاحتلال الكاملة على الأوضاع قرّر الهرب، وساعده في ذلك الأطباء والممرضون، فانطلق في رحلةٍ صعبة إلى إرطاس، مشيًا على الأقدام، فالمحتلون الجدد صادروا جميع المركبات العموميَّة والخاصة في نابلس، وطلبوا ممن يملك أيَّة مركبة تسليمها إلى جَيْش الاحتلال في مبنى المحافظة الَّذي تحوَّل إلى مقرٍ لقيادة جَيْش الاحتلال.

حديث أبي سمير عن التفاف جَيْش الاحتلال من طوباس على نابلس، جعلني أشك بأن انسحابنا المبكر من المِنْطَقَة لم يكن إلّا تسهيلاً على جَيْش الاحتلال التفافه، ولكن

كيف حدث ذلك؟

جَيْش العَدُوّ، يلتف غِيلةً وخدعة، لَا يحب جَيْش العَدُوّ المواجهة وجهًا لوجه، ولكنّه يلتف كالأفعى، ويلدغ وهو يحمي رأسه، أمَّا نحن فيسرنا له ذلك. من نسَّق؟ ومن يسَّر؟ ومن خان؟

لماذا لم نظل في خنادقنا الأُولَى، أو في وادي المالح، ونتصدى للالتفاف الاحتلالي، نقنص جنوده، أو على الأقل نُعطبه، ونؤخره، ونُخَسِّره؟

رحلة أَبي سمير الشاقة استغرقته ثلاثة أيَّام، حاول فيها تجنب الطُرق الرئيسة حتَّى لا يصطدم بجيش الاحتلال، وعندما وصل إرطاس أخيرًا، مكث لدى عائلته، ولكنّه ظلّ خائفًا من أن يصله الجَيْش، خاصةً أن اسمه ورقمه العسكريَّ لديهم، فقرر، بعد أن شفي نسبيًا من إصابته، مواصلة الهروب إلى الشرق، كما فعلنا نحن.

انطلق نحو البرية، ورأى بقايا الآليات والدبابات والعتاد العسكري وبساطير الجنود، التي قصفها طيران العَدُوّ، وعانى من العطش، وعندما وصل مقام النَّبِيّ موسى، رأى أناسا مثله يدخلون ويخرجون، يحمل كل منهم علب سردين أو لحمة، أو يملأ مطرته من آبار النَّبِيّ موسى.

قدَّر أبو سمير، أن جيشنا خزّن مؤونة كبيرة لنا في المقام، وها هي متروكة الآن للذين قرروا ترك الوطن، والهروب شرقًا.
سألته عن أُمّي وزوجتي وأقاربي وحال النّاس، فطمأنني، مشيرًا إلى أنَّ الجميع يعيشون آثار الصَّدْمة، ويترقبون ماذا سيفعل بهم المحتلون الجدد، ومِن الأهالي مَن قرّر البقاء، مثلما فعل الكثير من أسلافهم، ومنهم من شَرَّق عبر النَّهر هاربًا، مثلما فعل أَيضًا الكثير من أسلافهم في مواقفَ مشابهة.
وأخرج من جيبه رسالة، قال بأنّها من الأستاذ شَرِيف أرسلها لي، وبأنَّ الأستاذ كان واثقًا بأنه سيجدني.
قدتُ أَبا سمير إلى مكتب القَائِد زلّوم، الَّذي بدا يتمسك أكثر فأكثر بالرسميات في الجَيْش، وإن بدا ما يفعله أحيانًا يثير السخرية، وبعد انتظار دخل أَبو سمير عليه، لكي يضع نفسه من جديد في عُهدة الجَيْش.
فتحتُ الرِّسالة، وتجاوزت الديباجة الطويلة، أو هكذا تخيلتها، وبدأت أقرأ:
«كما تعلم أَيُّها الحبيب، فإن إرطاس، على موعدٍ جديدٍ من مواعيدها، لقد سقطت مرّة أخرى، ولكن كما تعلم فإنَّ النّاس، سيستوعبون الهزيمة، ويواصلون نسج علاقاتهم

بالأَرْض، ويطورون أساطيرهم، ويكتبون تاريخهم، وسيزول الاحتلال، مثلما زال غيره. كن مُطمئنًا.

أكتب إليك الآن من منزل السِتّ لويزة، وأنا أنظر إلى الفُلْفُلة وإلى دير سيِّدة الجَنَّة المقفلة، وأتأمل في عبقرية مهندسه مرقص نصّار، وتغلبه على الطبوغرافية، وقصه لصخور جبل أَبي زيد، ليضع الدَّيْر في حضنه، وكأَنَّه يرسم لوحة زيتية لمنظر من كتاب حكايات سويسري.

أَيُّها العزيز،

منذ زيارتكم لي، أنت ويُوسُف السُرْياني وربحي مُهاجِر، وأنا منكب على الكَأْس الفِضَّية، إنّها كأسنا المُقَدَّسَة. تحوي هذه الكَأْس رموزًا مفتوحة على تأويلات مختلفة وثرية، ولكن يمكن الإشارة هنا إلى أن الهلال والشَّمْس تمثلان رموزًا كونية في حين أن الثُّعبان-التِنّين يمثل العالم الآخر، ولكنَّ هذا التفسير المبسط، يغمط النَّقْش حقه. لم أتمكَّن من تحديد الأصل الأسطوري لهذا المشهد الفاتن، رغم أنّني أميل لإحالته إلى أساطير بلاد ما بين النهرين، وتحديدًا إلى أسطورة (إينوما إيليش- حينما في العلى)، والتي تُعرف بأسطورة الخلق البابلية، وتتحدث عن بداية خلق العالم، وعن الصراعات الدامية بين سُلْطَة الأمومة في أَوَّل تجلياتها

الأسطوريّة بشخص تيامات أو تعامة – وسُلْطَة الأبوة ممثلة بالإله مردوخ أو مردوك ابن الإله إيا وزوجته دمكينا.

إذا رجعنا أن الرموزَ المنقوشة على الكَأْس لها علاقة بإينوما إيليش، فهي تمثل انتصار مردوخ على تعامة، في ملحمة التكوين البابلية، المكونة من سبعة ألواح، مدونة بالحروف المسمارية، اكتشفت في أربعينات القرن التاسع عشر، في مكتبة الْمَلِك آشور بانيبال (667-626 ق.م)، مع ملاحم أخرى مثل الملحمة الشهيرة جلجامش.

وعودة إلى رموز كأس عَيْن سامية، بعد الإطلالة السريعة على إينوما إيليش، في المشهد الأوَّل الَّذي يظهر فيه شخص أسطوري بوجهين بشريين، يمكن إحالة هذا الشكل إلى الإله مردوخ الَّذي يظهر في المشاهد التي خلدته، بوجهين، ويبدو في هذا النَّقْش متعاليًا، مستعدًا لمنازلة حيوانات تعامة الأسطوريّة، حاملاً باقة النبات-الحَرْبَة التي لا يتمكّن التِّنِّين من الإمساك بها، والَّذي يمثل أَيضًا تعامة، وخلدت نقوش ولوحات صراع مردوخ مع تعامة وهي على شكل تِنّين، بوجهٍ بشري.

وفي المشهد الثَّاني فإن ملامح مردوخ وأبهته تظهر في تجسيد شخص، يشبه الْمَلِك البابليّ، وكثيرًا ما يعتبر مردوخ تجسيدًا

للملك، وهو هنا يتحكم بالقمر على شكل هلال، ويبدو أنّه في مرحلة خلق الشَّمْس التي هي في طور التشكل كما يمكن أن يُستشف من عدم اكتمال الرسم في جهة القرص اليُسْرَى، بينما يحاول التِّنِّين (تعامة) المنتصب المقاومة دون طائل، وقد يمثل الوجه البشري وسط رسم الشَّمْس الآلهة تعامة نفسها، وهو يخلق منها مكونات السَّماء.

وخلاصة القول، يا حبيبنا، أن نقش عَيْن سامية، حيث مرت على الموقع حضارات عديدة، واستوطن منذ العصر البرونزي الأوَّل، يمثل صراع الإله مردوخ مع تعامة وانتصاره عليها، ويتمكن من قتلها في مشهد أسطوري أدبي يخلب الألباب، ويشق جثتها قسمين، يخلق منهما السَّماء والأَرْض، ويثبت قدرته على أن يقول للشيء كن فيكون، فيبدأ خلقه لعالم آخر فوَّار هو عصر الأبوة الَّذي ما زلنا نعيشه، على أنقاض عالم قديم هادىء ينشد الدعة، ويظهر النَّقْش تأثير أساطير بلاد الرافدين على الحضارة الكنعانيّة، ولا شك أن صدى صراع الآلهة الدامي، في وطن الأنهار والماء، كان له رجع الصدى في عَيْن سامية.

وسأترك لك ولرفيقيك، مَهَمَة البحث عن نَصّ إينوما إيليش، لقراءته والتمعن فيه، حتَّى يُقَدِّر رَبّ الأقدار لنا لقاءً لا نعرف أين، مع المستجدات التي حدثت لوطننا، لنواصل

النقاش والتحليل.

*ملاحظة: مرفق ترجمة لأحد نصوص عن إرطاس، لعلها تُبرد قلبك المنشغل على قريتك وبلدك.

محبتي لك أيُّها العزيز الصغير.

أخوك الكبير

شَرِيف».

مغامرة عمَّان

قرأنا الرِّسالة، أنا ويُوسُف وربحي مرارًا، وكانت أكبر سلوى لنا، بعد واقعة المُخَيَّم المعيبة، وفرصة لنتعرف أكثر على تأويلات ربحي المدهشة للتاريخ والآثار والأساطير.

في تلك الأيَّام، ونحن نَشْوَى بالرِّسالة المهربة من الأَرْض الْمُحْتَلَّة، بدأنا نسمع عن الفدائيين الذين قرروا استرداد البلاد بعيدًا عن رؤساء البلاد وملوكها، في الواقع سمعنا عنهم قبل ذلك، ولكن الآن يطرقون الآذان أكثر من أي وقت مضى. قررنا أنا ويُوسُف وربحي، السفر إلى عمَّان، يذهب كلّ واحد منّا عند أقربائه يُسَلِّم عليهم، يطمئنهم عنه، يحاول أن يسمع منهم عن أيَّة شذرات من أخبار الأهل قد تكون وصلتهم من الأَرْض الْمُحْتَلَّة، أردنا أن نُطمئن ونَطمئن، على أن نلتقي بعد يومين في وسط البلد قُرب سينما رغدان، وكل منّا لديه المعلومات التي تمكَّن من جمعها عن كيفية الاتصال بالفدائيين، وسرَّع من قرارنا بالسفر منح كلّ واحد منّا راتبًا لأوَّل مرّة قدره أربعة دنانير. غيرنا ملابسنا العسكريَّة، بأخرى مدنيّة مما توفّر لدينا ولدى رفاقنا

في المُعَسْكَر، لم يكن هناك تشديد على الخروج أو الدخول إلى المُعَسْكَر، ومع ذلك تسللنا دون أن يشعر بنا أحد، لم نرغب أن يثير خروجنا أي حديث أو ضجيج. انطلقنا جذلين وركبنا في حافلة قديمة تعمل على خَطّ الأغوار-عمّان، وعندما اقتربت من مرتفعات السَّلط، أوقفنا حاجز للشرطة العسكريَّة، وصعد أحد أفرادها، وتفرس في وجوه الرُكّاب، ولسببٍ ما توقف أمامي، وسألني عن بطاقة هويتي، فأجبته بأنني لا أحمل أيَّة بطاقة تثبت شخصيتي، وتوالت أسئلته فأخبرته بأنني من بَيْت لحم. سألني:

-كيف وصلت إلى هنا..!

*كما تعلم أنّها الحَرْب..!

واضطررت أخيرًا، إخباره بأنني مُكَلَّف في الجَيْش، وأنا أعلم ما قد يسببه ذلك من أذىً لي وقد يتعاملون معي كفارٍّ من العسكريَّة..!

-يعني أنت جُنديّ؟

*لا لست جنديًا نظاميًا وإنما مُكَلَّف..!

-أنت جُنديّ..هيا رافقني..!

نزلتُ خلفه وقادني إلى خَيْمَة، بينما سارت الحافلة وبداخلها يُوسُف وربحي، اللذان لم ينتبه لهما الشُرْطِيّ، ربَّما

لانشغاله بي.

دخل إلى الخَيْمَة ضابطان كبيران في الرُّتْبَة والسِّنّ والبُنْية، سألني أحدهما، عن كتيبتي القادسيّة، فأجبته وكررت بأنني لست إلّا مُكَلَّفًا، وبأن الكثيرين غادروا الكتيبة ولن يعودوا، أمَّا خروجي منها ليس إلّا مؤقتًا، لزيارة الأقارب في عمَّان ثُمَّ الْعَوْدَة.

رفع الضابط الَّذي يتولى استجوابي وقوفًا يده، وأحسست بأنها ستهوى على صُدغي، ولكنّه أبقاها مُعلَّقةً وقال بانفعال:

-لقد هُزمنا من أمثالكم..أنتم من أضعتم البلاد بهروبكم الدائم..!

حاولت التماسك، ولكن نزول كفه على صدغي جعلتني أصرخ ألمًا، في الواقع حانت لحظة صراخي المكتوم في وجه القادة:

*نحن سبب هزيمتكم؟!! لم نجد عدوًا نُطلق عليه الرَّصَاص، ولم نجد قادة يحددون لنا الأهداف، ولم يصدر لنا أحدٌ أوامرَ بالهجوم، وإنما بالفِرار والفِرار. لقد وجدنا أنفسنا هنا مرميين في هذا الغَوْر، مثلما كنّا في الغَوْر هناك غرب النَّهر، وتقول بأننا سبب الهزيمة..!

لا أعرف إذا كان هذا صوتي، أم أنّها صرخات مكلوم،

مدّني بها فأري الشَّوكيّ، الَّذي رأيته فوق صدري، وأنا ملقىً على الأَرْض، وعدد من الأرجل ترفس جسدي، وأصوات تصرخ مستنكرة كيف أرفع صوتي على حضرة الباشا.

ولكن يبدو أن الباشا، كان أرحم من بساطير جنوده، فأمرهم بالتوقف، ومنحني رحمته:

-قف الآن، وأغرب عن وجهي واعلم بأنني إذا صدفتك مرّة أخرى، سأجعل هؤلاء الجنود يأكلونك، ويرمون عظامك للكلاب..!

خرجتُ من الخَيْمَة مترنحًا، متألمًا، دون فأري الَّذي اختفى فجأة، وعندما أستعيد تلك اللحظات، أشعر بأنها كان يجب أن تطول قليلاً رغم الألم لأُحاكم من كان مسؤولاً عن هروبنا وتقهقرنا وهزيمتنا، ولو كانت محاكمة كلامية، ولكن فأري منعني، لم يرَ جدوى في محاكمة مهزومين، يخفون هزيمتهم برفسي. سرت باتجاه السَّلط، منتظراً حافلة أخرى تقلني إلى عمَّان لألحق برفيقيّ.

عثرت على يُوسُف وربحي ينتظران على مبعدةٍ من حاجز الجَيْش، وعندما رأياني، أسرع يُوسُف إليَّ، وجعلني أستند إليه، وهو يقول:

-لو تأخر الإفراج عنك، لهاجمنا الخَيّمَة وحررناك، وليكن ما يكون، ألم يجدوا فارّاً غيرك، الجَيْش كلّه أصبح جَيْش الفراري..!

صدقت يا يُوسُف، أعرف بأنه يفعلها، مع ربحي، يحدوهما أمل تحريري من قبضة الشُّرْطَة العسكريَّة، وهما يختزنان غِلَّ الأيَّام الماضية المريرة، الممهورة بطعم الهزيمة. لا يعرف طعم الهزيمة إلّا مَن جربها.

وفجأة ودون توقع وكأنَّه أراد إضفاء مسحة سرور على وضع مؤلم، ارتفع صوت ربحي:

«يا مرة الجُنْدِي مالك مُصْفَرَّة؟

جوزك في الشهر بِرَوِّح مرّة»

ضحكنا ونحن نردد خلفه محاولين التَّخَلُّص من التوتر الَّذي سببه حاجز الشُّرْطَة العسكريَّة غير المتوقع.

جاءت حافلة، وأكملنا إلى عمَّان، ذهب يُوسُف إلى أقربائه في الزرقاء، وربحي قصد مدينة إربد، أمَّا أنا فصعدت الأدراج إلى أقرب فندق رخيص الثمن في قاع عمَّان. ساورتني الأفكار للذهاب إلى منزل والدي، سأعثر عليه بالتأكيد مع قليلٍ من البحث، ولكنّني لم أكن متأكدًا منذ خروجي من المُعَسْكَر بأنني سأقصد منزله فعلاً، لا أعرف كيف سيكون

اللقاء به؟ أو إذا ما يجب أن يكون لقاءً بيننا أصلاً أو حتَّى إذا كان ما زال يذكرني، ما فعلته الأيَّام والسنون قطعت الوشائج، أستطيع أن أعيش دونما أب، وأنا فعلاً عشت حتَّى الآن بِلا أب، وانتميت لجيشٍ مجيشٍ لأخوض حربًا، وأنا دون أب، النَّوْم في فندق لفترة وجيزة في مدينة يعيش فيها أَيضًا الأب سيكون محتملاً ما دمت أركض وراء هدف اللقاء مع الفدائيين الثائرين على مجتمعات ودول الأُبوة، نمت في عمَّان وأنا أحلم بخلاصي.

فكرت بماذا ستنصحني جَدَّتي البعيدة هنا، إذا استشرتها حول صحة لقائي بأبي، ستتقنع بثوب الحياد، باعتبارها والدة والدتي، وستقول: هذا أبوك، وأنت حُرّ، أو: هذا الابن وهذا الأب وأنتما حُران..!، وتضيف: لم أزرع في نفسك أبدًا كرهًا لأبيك..!.

نعم أنا حُرّ الآن يا جَدَّتي، وفي طريقي لأُعمِّد هذه الحُرِّيَة بخياراتي، ولذا فإنّني لن أذهب إلى الأب لأقدم له نفسي من جديد، وأخضع لاستجواباته وأسئلته، لو كان أبًا لما تركني وحيدًا في إرطاس، على حواف التفتح والأسئلة الأُولَى. أنت مَن تستحق الاستجواب أيُّها الأب، وأنا مَن أستحق الأجوبة.

أبي..أبي لماذا تركتني، أنمو وحيدًا في شِعب السِتّ لويزة، أبحث عن ذاتي بالقرب من النبع المختوم، وعلى حواف البِرك الضخمة، وفي ظِلّ الفُلْفُلة الظليلة؟

غرباء القَرْيَة، تركوا لمسات تكوين عليّ، أمّا أنتَ فخلفت أخاديد لن يمحوها الزمن.

استلقيت على فراشٍ لا يخلو من البق، ولم أستيقظ من الإرهاق والرضوض إلّا في اليَوْم التالي.

في غرفتي أفتح ملحق الرِّسالة التي أرسلها الأستاذ شَرِيف، واستدعي فأري الشَّوكيّ، وأجلسه في حضني، أضع يدًا عليه، وأخرى أمسك بما كتبه فيليب بالدنسبيرغر عن إرطاس. الأستاذ شَرِيف ترجم المكتوب ودقه على الآلة الكاتبة في بَيْت لحم، وها هو يرسل لي نسخة بأحرفٍ زرقاء، آثار الكربونة، الاختراع الَّذي يمكّن سحب نسخ عديدة. يريد الأستاذ أن يبذر شيئًا فِيّ هنا، كما كان يفعل معنا هناك.

يتَحَمَّس الأستاذ شَرِيف ليؤكد بأن فيليب كتب نصوصًا قل نظيرها من مستشرق عن قَرية فلسطينيّة وها أنا في غرفةٍ قصية شرق النَّهر، أختبر ذلك ممسدًا أشواك فأري: «خلال أحلام الربيع، طيف واحد يسيطر عليَّ عندما يبدأ شهر الربيع، إنّه ذكرى إرطاس، ذكرى قَرية صغيرة تقع على

بعد مسافة قليلة من بَيْت لحم، تبدو وكأنّها جافة قاحلة، لكنها في الحقيقة مكان أرضه الكلسية تجعله ملائما جدًا لإنتاج الفواكه اللذيذة، وفي واديها الصغير المحاط يميناً ويسارًا بمنحدرات وعرة، ويُسقى بجدول دائم الجريان، هناك المُشْمُش اللذيذ والخوخ والإجاص والتين وغيرها تنمو، حيث عشت وأنا صغير مع إخوتي في بَيْت منبسط السطح وكالقلعة على هضبة فوق مزارعنا في إرطاس».

أريد أن أستنشق مزيدًا من الكلمات عن هناك وأنا الآن هنا: «أشجار الفاكهة في إرطاس تملأ العَيْن بهجة، بأزهارها التي لا حصر لها، وتثقل ثمارها الأغصان بما يتناسب وموائد الملوك والأمراء، سماؤها الزرقاء، أراها وأنا أستلقي حالمًا تحت الأغصان، غناء الطيور وخرير الجداول والعطر الفاغم الَّذي يفوح من النباتات التي يجد فيها نحلنا مرتفعًا لجني محصوله، إن زعتر إرطاس يمكن أن نقارنه بذلك الَّذي يجنى منه نحل اليونان في جبل هيمتيوس، وعندما أقرأ نشيد الإنشاد أجد صورة لحدائق إرطاس...انهضي يا جميلتي، فالشتاء قد ولى والأزهار تظهر على وجه الأَرْض، جاء وقت نشيد الطيور، وشجر التين يبرز أوراقه، وثمار العنب تعطي روائحها، يبدو لي أن نشيد الإنشاد كان إلهامًا من هذا المحيط الجميل إرطاس، وأن داود النَّبِيّ كتب إصحاحه

الثَّالث والعشرين بوحي من جَنّة إرطاس وأن عَيْن رمون (عَيْن إرطاس) تحمل اسمها من الزمن الكنعانيّ، وأن هيرودس الأدومي وجد متعة في موقع إرطاس، وأنشأ له فيها حدائقَ وقصوراً..».

استبقيت فأري في فراشي، ولم أخرج إلّا في اليَوْم الثَّالِث إلى موعدنا أمام سينما رغدان، حضر يُوسُف، ولم يحضر ربحي، يبدو أن روح جلجامش التي تسكنه قادته لتَّرْحَال بحثًا عن يقين. قَدَّمَ يُوسُف تقريراً عن مساعيه للاتصال بالفدائيين، وملخصه أنّه لم يفلح بالوصول إليهم، وإن العثور عليهم هنا ليست بالمسألة السهلة، قررنا أن نعود في اليَوْم التالي إلى كتيبتنا، حتَّى نرى أفقًا ما.

تمشَّيت إلى فندقي، الوجوم يحتل الوجوه، وأمام الْمَسْجِد الحسيني، أرى العيون تحلق في العيون، ناس تبحث عن ناس، ومشرَّدون يبحثون عن مأوى، وآخرون ينتظرون مشرَّدين آخرين سيقذفهم النَّهر الخالد إلى قاع عمّان.

يكاد لا يعرف نفسه

انتبهت لوجه اعتقدت بأنني أعرفه، يجلس على حافة رصيف السَّاحة، طليق اللحية والشعر، يمُدّ رجليه دون اكتراث على إسفلت الشارع، اقتربت منه، وجلست بجانبه، سألته إن كان يعرفني، فقال بأنه يكاد لا يعرف نفسه، ثُمَّ التفت إليّ وكأنه اكتشف شيئًا يريد التأكد منه:

-يُوسُف؟

فقلت:

*مُحَمَّد مراد؟

أخبرته عمّا حدث لنا خلال الحرب، التي لم تكن حربًا، وحدثني عن احتلال قلقيلية، ففي الوَقْت الَّذي كنّا فيه نتقهقر بحجة الدفاع عن نابلس البعيدة، كانت قلقيلية تُحتل، ويتشرد ناسها إلى نابلس، انتشروا في الحقول، وسارع النّاس إلى معونتهم.

قال مُحَمَّد: «ربَّما تساءلتم عن سرِّ وجودي في الغَوْر، كنت مكلفًا بمحاولة تهريب أسلحة لتوزيعها على الشبان في قلقيلية، للدفاع عنها في مواجهة الغزوة المقبلة، فتجربتنا مع الجَيْش

النظامي، علمتنا أنّه ليس هو المؤهل للدفاع عن أرضنا وناسنا، لم يكن تنظيمنا بعافية، بعد حملة الاعتقالات في نَيْسان، التي شتّتنا، ولكن كان على من تبقى منّا، ممن نجوا من ضربة الحكومة، أن يتحركوا، وعندما بدأ الغزو، قاوم جنود الجَيْش المتمركزون في معسكره في تَلّة صوفين، رغم إمكانياتهم المحدودة، فلم يكن لديهم سوى رَشّاش فيكرز ورشاش الـ 500، وارتقى منهم شهداء، ولكن الدور الأهم اضطلعنا به نحن من القوميين وخلايا حركة فتح النائمة التي نظمها أبو علي إياد وأبو يُوسُف الكايد، أطلقنا النَّار على مستوطنات العَدُوّ القريبة، واشتبكنا مع قواته، ولكن للأسف، لم تكن المعركة متكافئة، فحدث الانهيار بشكل متسارع، وأثارنا الجزع الَّذي تغلغل إلى نفوس ناسنا، لقد انحدرت معنوياتهم، وخابت تقديراتهم بأن النَّصْر سيكون حليفهم، غادر جيشنا، وتقدم جَيْش العَدُوّ، وبدأ جنوده بهدم المنازل بشكل ممنهج، قذائف الهاون لم تتوقف عن السقوط، كل عشرة أمتار تسقط قذائف على شكل أسطر، بدا وكأنها إستراتيجية الأَرْض المحروقة، ساء جَيْش الاحتلال مقاومتنا له، واعتبرها إهانة عسكريَّة، فاستخدم إستراتجيات التهجير، كبث الإشاعات عبر مكبرات الصَّوْت بأن طائرات الجَيْش الْعِرَاقِيّ ستقصف المنازل، وهي تحاول

استعادة قلقيلية وبأن من لم يغادر سيموت تحت الأنقاض، وزرع الرعب في نفوس النّاس، وأمروهم بالتحرك باتجاه عزّون، وصولاً إلى نابلس، عجزنا عن وقف نزيف نزوح الآلاف إلى نابلس، وغادرنا مع أهلنا إلى حقول الزَّيْتُون في مدينة جبل النَّار، التي تعيش هي الأخرى القلق من العَدُوّ ولا يصدق ناسها ما حدث، بُذلت جهود لإسعاف النازحين بالطعام والبطانيات، ولكنَّها لم تكن كافية، وتحوَّل وجود أهلنا إلى كارثة جديدة، نصفهم من الذين لجأوا إلى قلقيلية إثر النَّكْبَة، وها هم يُنكبون من جديد في حقول الزَّيْتُون في رفيديا، أين سيذهبون؟ وماذا سيفعلون؟ وتضاعف عدد النازحين، وصلت أعداد أخرى من طولكرم وعنبتا وغيرها من مدن وقرى قرّر المحتلون الجدد تطهيرها، ونقل سكانها إلى الجسر، ولكن بعض سائقي الحافلات الإسرائيليّين، كانوا يرمونهم قرب نابلس، يبدو أنهم كانوا يريدون الْعَوْدَة سريعًا إلى بيوتهم، أو إلى المدن الْمُحْتَلَّة ليشاركوا في عمليات النهب. كنّا نعلم أنّها مسألة وقت وسيصل جَيْش الاحتلال إلينا في مكاننا الجديد، النّاس في نابلس تفاجأوا بنا وبتقدم الاحتلال، وكانوا ينتظرون وصول الجَيْش الْعِرَاقِيّ، الَّذي لن يصل أبدًا. أجريتُ اتصالات مع الرفاق في نابلس، وشكلنا مجموعات محدودة لمواجهة المحتلين، جمع رفاقنا عددًا

من رشاشات كارلو، وبنادق جي 3، وزعت على الشبان بعد مظاهرة حاشدة باتجاه بلدية المدينة في اليوم الأوَّل للحرب، ولكنَّها سرعان ما انهارت، فاضطررنا للمغادرة، في الواقع هربنا إلى هنا وتشتتنا، نمتُ في الْمَسْجِد الحسيني مع أكوام النازحين، وأنام الآن في منزل أحد الأقارب، ولكنّني آتي كل يوم، لعلني أعثر على معارف لألتقط أخبار ناسنا، عرفت بأن النازحين إلى نابلس عادوا إلى قلقيلية، وأبحث الآن عن طريقةٍ للعودة، ولكنَّها لن تكون عَوْدة مجردة، وإنما عَوْدة قتال وفخار».

جلبتُ فنجاني قهوة من بائع متجول، وطالت جلستي مع مُحَمَّد مراد، ولم أشأ إخباره عن هدفي ورفيقيّ يُوسُف وربحي، ولكنّني ألمحت له، واتفقنا على أنّه آن الأوان لتتلاحم السواعد من أجل التَّحرير، لأن الأَرْض لا يحرثها غير عجولها.

تعرف مُحَمَّد على علي أحد الشبان من قلقيلية ونادى عليه، وبعد الأحضان والدموع، قَصَّ علينا المزيد من الأخبار، ومن بينها أن قُوّات الاحتلال، بدأت تجهز لإقامة نصب تذكاري للجنرال بيرمي قائد سلاح المدرعات الَّذي قاد الهجوم على قلقيلية في عام 1956م، وقُتل برصاص المدافعين عنها، في موقع مقتله في تَلّة صوفين.

ضحك مُحَمَّد بمرارة من يتجرع كل قطرة في كأس الهزيمة، وسأل مواطنه عن تفاصيل ما حدث، أخبرنا علي بأنه لم يغادر قلقيلية، واختبأ في بئر في بيارة العائلة، وكان يخرج منها عندما يُقدر أن الأمورَ الأمنية تسمح بذلك، وروى ليس فقط عن عمليات هدم المنازل، ولكن أَيضًا عن تدفق إسرائيليّين مدنيين، نهبوا المحال والمساكن، وتحميل المنهوبات في تركات، على مرأى من الجَيّش، في ظل إغلاق الطرق المؤدية إلى قلقيلية، ومحاصرتها كي لا تتكشف الجرائم.

عانى علي من الجوع، والجزع، وقلة الحيلة وهو يرى الجثث ملقاة على الشوارع لا تجد من يدفنها، أو تحت الأنقاض، ولم تكن فقط جثث البشر التي بحاجة للإيواء تحت الأَرْض، وإنما أَيضًا جثث الحيوانات، الثروة الحيوانية كلها أُبيدت. آثار وجود اللاجئين في نابلس، مع نشر الصحف العالمية عن المأساة، اهتمامًا من منظمات دَوليّة، وصلت لتقدم المساعدات ومن بينهم الأميركيون الذين التقوا رئيس البَلَديّة الحاج حُسين صبري، الَّذي لم يترك حبل أمل بإعادة اللاجئين إلا حاول تتبعه وإمساكه، وسألوه:

- هل تريد أن ننسحب من فيتنام؟ أَمْ تريد أن نعيدكم إلى قلقيلية؟

فأجابهم:

-بالطبع..بالطبع نريد الْعَوْدَة إلى بلدنا..!

جلبت قُوّات الاحتلال رئيس البَلَديّة ووجهاء ومخاتير إلى قلقيلية ليروهم حجم التدمير، وليؤكدوا لهم بأن الْعَوْدَة مستحيلة في ظل الهدم والركام والجثث، ولكن الحاج صبري ورفاقه أكدوا بأنه لا بديل عن الْعَوْدَة.

حضر موسى ديّان، رئيس أركان العَدُوّ المنتشي بنصره، وسأل رئيس البَلَديّة:

-يا حاجّ حُسين، كم عدد المنازل المدمرة؟ وما عدد النازحين؟

*ما دمرتموه لا يقل عن 800 منزل، واللاجئين لا يقل عددهم عن 12 ألفًا، ونريد الْعَوْدَة، سنقيم بين الدمار، والجثث..!

-سنسمح لكم بالعودة يا حاجّ، لا تقلق، ولكن عليكم أن لا تقلقونا، لا تقاوموا جَيْش الدفاع، ارفعوا الرَّايات البيضاء، وعيشوا بسلام، وحافظوا على الأمن، لن نتساهل أبدًا مع من يقاومنا أو يعكر الأمن..!

تشجَّع الحاج وسأل الجنرال المنتصر:

*ولماذا دمرتم منازلنا؟

-لا تتوقع منّي الاعتذار عن تدمير منازلكم، لو انتصرتم لفعلتم بنا مثلما فعلنا بكم، بل كنتم ستذبحوننا..!

*نحن المفعول بنا دائمًا..!

-يا حاجّ أنت تعلم ماذا كنتم ستفعلون بنا لو انتصرتم، سمعنا تهديداتكم برمينا في البحار، لتأكلنا الأسماك الجائعة..!

*أنت تعلم أنّها مجرد تهديدات..!

-أنت تقول هذا الآن كمهزومٍ من طرفٍ خسر الحرب، ولكن بالنسبة لنا نأخذ كل الأمور بجدية، لا نتركها للصُدَف أو النوايا...!

تأخرت الْعَوْدَة قليلاً، ولكن الضغوط الدوليّة استمرت، مع استمرار نشر صحف عالمية تقارير وصور عمّا يجري. بدأ النازحون بالعودة، ليعيشوا تحت ركام منازلهم، وليس لديهم ما يسد الجوع، فنظمت سلطات الاحتلال طوابير لتوزيع الخبز عليهم، بينما الكاميرات تصور، حتَّى تظهر إنسانية الاحتلال الَّذي أخذ يقرنه المحتلون بصفة الليبرالي.

قال عليٌّ: «لم أعد أحتمل العيش ذليلاً، تحت ظل حظر التجول. لقد تحوّلت قلقيلية إلى معسكر اعتقال كبير، وبلدة أشباح، فغادرت عبر الجسر، ووقعت على الحاجز الأوَّل إقرارا بعدم الْعَوْدَة، ونزلت إلى النَّهر، وأمسكت بالحبال

التي ثبتها المحتلون على الجسر المنسوف، وها أنا مثلكم هائمًا في عمَّان».

لمته لأنه ترك قلقيلية وهاجر طوعًا، فغضب:

*وأنت لماذا تركت؟

-أنا وصلت هنا مضطراً..!

*وهل تعتقد بأنه يحق لجندي لم يحارب محاسبتي؟ حاسب نفسك أولاً..!

اعتذرت له:

-أنا وأنت في نفس الخَنْدَق كلانا ضحايا، وعلينا البحث عن طريقٍ للعودة..!

نساء السَّيْل ورجال الوَيْل

عُدنا إلى المُعَسْكَر بعد مغامرة عمَّان، وكأننا لم نخرج منه، لم يسألنا أحد عن غيابنا، ولا عن حضورنا، وكأن الأمرين لا معنى لهما بالنسبة لجيشٍ مهزوم، يحاول الحفاظ على ما تبقى من اسمه بتجريدة لمخيم لاجئين مؤقت، وغفارات، وحفر خنادق، وحرص القَائِد زلّوم على إظهار جانبٍ لديه غير حقيقي، فنحن عرفناه متواضعًا، مستمعًا، منصتًا، مبادرًا، ونراه يتحوّل إلى قائد عسكريّ مهتم بالشكليات، التي يعرف قبل غيره أنّه غير قادر على فرضها، ولكنَّها قد تكون آخر ما تبقت له ليُجَمِّل بها الهزيمة، وكأن الهزائم يجب أن تُجَمَّل.

انتشرت في المُعَسْكَر التهكمات على ضُبَّاط الجَيْش الكبار، وسرت إشاعة بأن الْمَلِك حُسين، لم يجد طريقة لجمع قادة جيشه المشتتين إلّا بدعوتهم إلى اجتماع في نادي الضُبَّاط في مدينة الزرقاء، وبعد أن وصلوا، أبدى استغرابه لنجاحهم جميعًا بالهروب، وقال لهم متفكهًا:

-ما دام لم يرتق أي منكم شهيدًا، فمن الطبيعي أن تذهب البلاد، وتسقط نصف مملكتي، نحمد الله على سلامة

رؤوسكم، والعوض من الله على وطنٍ فقدناه..!
الْمَلِك يعرف الكثير، ويضمر أكثر مما يفصح، ويمد حبال الوصل لرجاله من جديد، ويخبرهم بما يجب أن يعرفوه:
-الحرب جاءت مبكرة، لم نكن في جاهزية كاملة، أنتم تعلمون من مواقعكم بأننا كنّا نحتاج إلى عامين كي نحدث توازن مع قُوّات العَدُوّ، ولكن طبول الحرب قرعت، وعبد الناصر صوته الأعلى والنَّاس خلفه، ولو لم ندخل الحرب معه، ووقعت الهزيمة، وكنت أعلم بأنها واقعة، سيقال بأن عدم دخول الملك الحرب هو سبب الهزيمة..!
سكنت أنا ويُوسُف وسِتّة جنود شُبَّان من شرق الأُرْدُن في غرفةٍ واحدة، وعدنا للحفر والغفارة وتلميع البساطير والانتظار، انتظار ما نحدس أنّه سيحدث. ينتظر النّاس، كلّ النّاس، من أجل أمرٍ ما، ويعيشون لأملٍ ما، فكيف نحن الذين نعيش الطارئ والمجهول، حتَّى إننا نعيش دون أوراق ثبوتية، وبطاقات تثبت بأننا ما زلنا على قَيْد الحياة، منتمين إلى جَيْش تناثر، ووطنٍ تمزق، بين ضِفَّتين، أمَّا تلك الأراضي التي حلمنا بها، فتبدو الآن مثل كابوس ضاغط على قلوبنا، هل حقًا حلمنا بتحريرها، وسعينا إليه؟ أَمْ هي الأمنيات والآمال وأضغاث الأحلام؟

في يومٍ، عدنا تعبين، مرهقين من حفر الخنادق الممل والمتعب، دخلنا الغُرْفة لنرتاح، جلسنا على البَطّانيّات، مازلنا نلتقط أنفاسنا، بعد أن وضعنا البارودتين والفأسين، والمجرفة في الزاوية، وفي الجانب الآخر من الغُرْفة يجلس زملاؤنا يتحدثون، فالتقطنا ما بدأ يقوله شاب صغير ناعم من إربد، يحمل مرآة وملقط ويزيل الشعر من وجهه، يُحلق في عوالم من شَبَق بما يليق بشابٍ مثله، وربّما مثلنا، ولكن ليس في وقت حربٍ، وعارٍ، وهزيمةٍ، ونحجلٍ من أنفسنا.

قال الشَّابّ: «لكل حدثٍ سلبيّ، ثمة ما هو إيجابيّ، والنكسة التي يصرخ منها العَرَب، جلبت لنا الفلسطينيات، مُتاحات، وحلوات على السَّيْل، وبشلن يمكن الواحد منّا أن يأخذ أيَّة واحدة منهن، إنهن يَتَرَمَيَّن على السَّيْل، وينتظرن بائسات أي خنشور من أمثالنا».

لقي كلامه تشجيعًا من زملاء آخرين، أكدوا أن أحلى فلسطينيّة ستكون متاحة ببريزة على الأكثر، والحلوات إجمالاً سيجرهن أي واحد بشلن، وغيرهن من اللواتي جمالهن بين البينين، حرام دفع تعريفة فيهن.

أخذنا نغلي أنا ويُوسُف، نكاد لا نُصدق بأننا نسمع هذا الكلام، ولكننا في زمن الهزيمة علينا توقع أي شيء، ما

تحدثه الهزيمة، لا تحدثه أيَّة صَدْمة أخرى، ونحن هنا في معسكرنا نجتر ذواتنا المطوحة في غَوْر الأُرْدُن، لا نريد أن نرى ما تفعله الهزائم بالنساء، اللواتي وجدن أنفسهن خلال عشرين عامًا يعشن نكبتين مُدمرتين، مَن يفقد منزله مرّة يعش عمرًا حنظلاً، ومن يفقد منزله مرتين، إن عاش، فسيعش مسرنمًا.

وهم يتحدثون عن السَّيْل، بلغ سَيلنا الزُّبى..!

قال يُوسُف للشاب المنشغل بالملقط والمرآة:

-ومتى ستكون أختك على السَّيْل؟!

غضب الشَّابّ من السؤال الاستفزازي الَّذي باغته على غير توقع، وخدش كرامته، وقال وهو يحظ يُوسُف:

*مع مَن تحكي!؟؟

- أحكي معكم..!!

قلتُ محاولاً إعطاءهم فرصة للتراجع، مستفزاً شعورهم الوطنيّ:

-ألا تخجلون من أنفسكم، المقدم شويعر، الأُرْدُنِيّ النشمي، يجترح البطولات في نابلس من أجل فِلَسْطِين، وأنتم تجترحون العَيْب والشَّنَار..!

*أنت خليك بحالك، لا تتدخل، وإلا سنعصرك عصرًا،

ونرميك لكلاب الغَوْر..!

-كنت سأخاف منكم لو كنتم رجالاً، ولكنكم نساء في ثياب رجال، تتزينون مثلهن، وتزيلون الشعر الزائد بالملاقط..يا عيب الشوم عليكم..!

استنفروا واستنفرنا، ولم يكن في الغُرْفة وسيط يحجز بيننا، كان يُوسُف قويًا، وأنا أَيضًا كذلك، رغم أنّني لست بقُوَّة بطل في كمال الأجسام، غرهم عددهم سِتّة مقابل اثنين، فنهضوا وهجموا علينا، وبدا كأنّها فرصة ينتظرها يُوسُف، يستعيد بها ثقةً ما فقدها خلال الأيَّام الماضية، فأخذ يُطوِّح بهم واحدًا واحدًا، بعضلاته المفتولة، وأنا بجانبه أساعده، بدأ يُوسُف بالصراخ، وكأنَّه يريد أن يُعوض بانتصاره عليهم، قليلاً من هزيمتنا وهزيمتهم التي ما زالت تنكؤنا جراحها المفتوحة.

خلع يُوسُف قميصه وظهرت عضلات صدره وذراعيه، وأخذ يحمل كلّ اثنين من المساكين المرميين على الأَرْض، يرفعهما ويضربهما بشدةٍ في بعضهما، بدأت أتنبه إلى أنّه لَا يجب أن يحدث ما يحدث الآن، نخف غضبي، وكان لَا بد أن أكون أنا يُوسُف الآخر الأعقل، فتحولت إلى الحجز بين الطرفين، وكأنني طرف ثالث، أصبحت وجه يُوسُف

الآخر، العاقل الطيب الحكيم، في لحظةٍ مسروقةٍ من حفلة الغضب هذه.

رأيتُ أحدهم يظهر من خلف يُوسُف، يحمل مجرفة يستعد لضربه، حذرت يُوسُف، الَّذي ابتعد، عدتُ من موقف التعقل إلى المَعْرَكَة بسرعة، وحملت مجرفة وضربت المسكين، نزلت الدِّماء، وفُتحت الجروح، ومن شدة ما ضُربوا، لم يعد أيّ منهم يستطيع النهوض بعد أن يقع على الأَرْض.

تعبنا نحن أَيضًا، وجلسنا، ولكننا متحفزون، مستعدون لجولات أخرى لتأديب المتطاولين على شرفنا، ألا يكفي ما دُرق منه في الأيَّام الماضية، ليس بسببنا، ولكن بسبب جيوش الأنظمة، التي لم ترد فقط أن تحارب، ولكنَّها لم ترد لنا أَيضًا أن نحارب من أجل وطننا، إذا لم نكن نحن من نقاتل من أجل وطننا فمن سيقاتل؟

عندما يُهزم المرء، تبرز السكاكين المنتظرة، لم يعد لدينا حتَّى سكاكين في مطابخنا، خلال حملات القمع التي أعقبت السَّمُّوع، جرَّد الجَيْش قواته لتفتيش منازلنا ومصادرة أيَّة أسلحة، ومن بينها أَيضًا السكاكين، أراد الجَيْش احتكار السيطرة وقرار المواجهة، وعندما حضرت، جرى ما جرى، ولم يتبقَّ لنا إلا أسناننا وأظافرنا التي يريد الْمَلِك أن نحارب

بها، ولكن أين هي الحَرْب، يا صاحب الجلالة؟ أين أرض المَعْرَكَة؟ نحن في الغَوْر، غائرون.

ذهب جرحى غضبنا إلى القَائِد زلّوم، وشكونا، فطلبنا إلى غرفته وكان حانقًا علينا، أدخلنا فرادى إلى غرفته بعد أن جعلنا ننتظر فترة ليست قصيرة، برسم محاولته استعادة بيروقراطية عسكريَّة، أو ما تبقى منها ليقنع نفسه بأنه ما زال قائدًا في بقايا جَيْش.

نادى مرافقه على اسمي وأدخلني إلى غرفة القَائِد، الَّذي ما إن رآني حتَّى بادرني بصيغة المثنى:

-نحن في همٍّ ولطمٍ، وأنتما تمارسان زعرنتكما، وعلى مَن؟ على زملائكما، بدلاً من أن تُقدما مثالاً يُحترم، وقدوة تقتدى، يا عيب الشوم عليكما، أفهم تأثركما، وغضبكما، وكرهكما، وسواد الدُّنْيَا في عيونكما، ولكن هذا أَيضًا ما جرى لكلِ واحدٍ منّا، هل تعتقدون بأنني أستطيع نوم اللَّيْل؟ لم يجافني النَّوْم فقط، ولكن كلّ شيء أراه ينهار أمامي، ولا بد من فعل شيء ما، وإلّا فإن الموتَ أشرف لنا جميعًا، علينا لملمة أنفسنا، انتظارًا للقادم الأخطر.

وعندما سمح لي برواية قصتي، وسمع من بعدي القصة من يُوسُف، وأن الأمرَ يتعلق بشرف الفلسطينيات، قرّر

مكافأتنا بإعفائنا من الغفارة، وقال بحماسةٍ:

-هكذا يكون الرجال، ولم يخب ظني بكما منذ البداية، ولكن الظرف خيب ظننا جميعًا، ما حدث مؤامرة، دَوْلَة تتآمر على جيشها، أين سبق وحدث هذا؟ وتُسلم أرضها دون قتال للعَدُوّ، ومع ذلك استشهد من جنودنا أكثر من سبعمائة قُتل معظمهم غيلة خلال انسحابهم العشوائي، وجرح وفقد سِتّة آلاف، ووقع في الأسر أكثر من خمسمائة، خسارة قاتلة لجيش يعد نحو العشرين ألفًا، وفقدنا مائة وسبعين دَبّابة، ودُمرت طائراتنا الهوكر هنتر جميعها، والملك حُسين يراقب الهجوم الإسرائيليّ الأخير على ما تبقى من طائرات رابضة من باحة القَصْر، واستشهد من إخواننا المصريين ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفًا، وفقدوا نحو خمسة آلاف، وأسر خمسة آلاف منهم، واستشهد أربعمائة وخمسون من أهلنا السوريين، وجرح نحو عشرين آلفا آخرين، وأُسر منهم ثلاثمائة وخمس وستون، وعليكم أن تعلموا بأننا لسنا فقط من تألمنا، فالعدو تألم أَيضًا وقُتل من جنوده نحو ثمانمائة قتيل. لقد خُدعنا، ولن نُخدع مرّة أخرى، لو لم تفعلون ما فعلتم وعلمت بالموضوع، لكنت جلدتكما وأمرت بضربكما ضربًا مبرحًا، ولقيدتكما في باحة المُعَسْكَر، وجعلت كلّ من يمرّ يبصق عليكما، كنتما ستموتان من البصق، ولكنتما عبرة

لمن لا يموت برصاص العَدُوّ، فسيموت لتخاذله وقلة شرفه بالبصق، لكن هذه هي الرجولة، ارفعا رأسيكما، واعتنيا بنفسيكما، هكذا أريدكما، وتريدكما فِلَسْطِين، ويريدكما أَيضًا الأُرْدُن وأمة العَرَب.

وكأن ما فعلناه أدخل أملاً إليه، فأكمل:

-الأمر لم ينتهِ بعد، كونا على استعداد، لن نهان ولن يُضحك علينا مرّة أخرى..! وأطلب منكما، ولو أن الأمرَ سيكون صعبًا عليكما وعليهم، أن تحاولا إعادة زملائكم إلى جادة الوطنية والرجولة الحقيقية، الشَّرَف لا يتجزأ، شرفكما هو شرفهم، وإن كانوا لا يعلمون..!

وأراد أن يداعب يُوسُف:

-السُريان خلايلة المسيحيّين، عقولهم جافة، ودمهم حام، خلِّ دمك دائمًا مستعرًا...!

قريبًا من الجِسْر

تحمس القَائِد زلّوم، لليوسفين، كما أصبح يصفنا، جعله يُقدم اسمينا لنلتحق بالجيش رسميًا، وليس فقط مجرد متدربين لحربٍ لم يحاربا فيها.

وعنى ذلك من ضمن ما عنى، تكليفنا بكمائن في اللَّيْل، قريبًا من النَّهر، في الأسبوع كنّا نخرج ليلاً مرتين أو ثلاث، نمشي إلى موقع قرب النَّهر، وننصب الكمين، انتظارًا للإسرائيليّين الذين قد لا يكتفون بنصرهم، فيخططون لملاحقتنا وقتل المزيد منّا، ليؤكدوا نصرهم الحاسم والنهائي علينا.

نغادر معسكرنا السَّاعَة الثامنة مساءً، ونسير حتَّى نصل موقعًا نقرر أنّه مناسب لنفسد على العَدُوّ مفاجأته، قد يكون قريبًا من الشَّرِيعة خمسين أو ستين أو مائة متر، ونجلس أنا ويُوسُف، نتحاور في وضعنا الَّذي وجدنا نفسينا فيه، دون توقع أو تخطيط، ونتفكر في كيف جرت الأمور، نُستدعى للتدريب، فتلوح نُذُر الحَرْب، لنهرب مجللين بالعار إلى هذه المِنْطَقَة الرمادية، وماذا بعد؟ كنّا نعرف بأن ما نحن عليه سيكون مؤقتًا، وأن استمرارنا في جَيْشٍ مهزوم تنفرط حباته

بشكلٍ يوميّ، لن يكون خيارًا لأيٍّ منّا، كنّا ننتظر تدخل قُوَّة ما، بينما المياه تتدفق في الشَّرِيعة أمامنا، غير عابئة بنا وبغيرنا.

في تلك الليالي سمعتُ بعض حكايات يُوسُف الشخصية، وحكايات حَوْش السُريان في بَيْت لحم، وكيف فزع والده الفرّان على دراجته الهوائية، ليلبي نداءات أهالي السَّمُّوع، ولكن السَّمُّوع بعيدة، والطريق مغلقة بوحدات من الجَيْش، فانضم إلى الشبان في المظاهرات.

وشعرت بمقدار الشوق لديه لوالده وأُمّه وعائلته ورفاقه في حارة السُريان، نظر إلى الأمام، وكأنَّه يستطلع الأشجار والنباتات وقال:

«تعلم يا صديقي، بأننا نُعتبر لاجئين في بَيْت لحم، تمامًا مثل لاجئي المخيمات فيها. وجودنا في المدينة ليس قديمًا جدًا، ومع ذلك يوجد في حوشنا، أقدم نقش حجري خُطّ عليه سنة 1739م، باللغتين العربيّة والإنجليزية، يؤرخ لبناء منزل في المدينة.

لطالما وأنا طفل صعدت على الدرج لأمرر يدي على بتلات وردية محيطة بالنقش سعيدًا بها وبالحوش الَّذي يبدو كقلعة صغيرة، خُطط وبني، على نسق الأحواش والحارات

القديمة في بيّت لحم، عندما كانت متطلبات الأمن، من أولويات البناء، خاف النّاس من الاحتلالات المتلاحقة، ومن قُطّاع الطُرق، وغارات البَدْو، ومن ظلم السلطات.

غريب هذا الحَوْش، أو نظام الأحواش بشكلٍ عام، الحَوْش في بيّت لحم هو أكثر من حجارة وبناء، هو وحدة سكنية اجتماعية اقتصادية مغلقة على غير ناسها ومنفتحة على الأحواش الأخرى، يضم الحمولة وعائلاتها، بيوتها متلاصقة ومتقاربة ويفصل بينهم جدران عالية، وأغلب ممراتها وشوارعها ضيقة ومتعرجة تمر من خلال أزقة ملتوية للحماية من الحرّ والغبار. ظهرت الأحواش في مدينتنا خلال الفترة العثمانية وتباينت تبعاً لذلك أحجام الأحواش حسب عدد العائلات القاطنة فيه وحسب قدرتهم الاقتصاديّة.

كما تعلم يقع حَوْش السُريان على بعد 250 متراً شمال غرب كَنيسة المَهْد، وهو ملاصق لقوس الزرارة، المدخل القديم والتاريخي لبيت لحم، وقريبًا من شارع التراجمة، الَّذي يدخل منه البطاركة في الأعياد، ونُحَوِّله في سبت النُّور إلى ساحات فرح وغناء، كما شهدت بنفسك.

عندما وصلت الأفواج الأُولَى من السُريان قبل المجازر العثمانية، حطوا في الحَوْش الَّذي سيحمل اسمهم، وهو جزء

من حارة الحريزات، إحدى الحارات السبع في مدينة المَهْد، تعلو جدرانه الحجارة المزينة بالرسومات الدينية والنباتية، لطالما أتى الحجاج والرَحَّالة ليصورا الحَوْش، ويصورونا معه.

لدينا حَوْش يا يُوسُف قريبًا من مغارة ميلاد المَسِيح، ولكنَّها لم تكن كافية لنا ونحن نزداد عددًا وعدة منذ أن سكنت أوَّل عائلة في الحَوْش عام 1838م، حتَّى العائلات التي وصلت في أعقاب مذبحة طور عابدين، فأنشأنا عام 1922م جَمْعِيَّة مار أفرام الخيريّة، التي اشترت في عام 1927م الأبنية الآيلة للسقوط، وهدمتها وبنت كَنيسة العَذْرَاء، نحن أَيضًا يجب أن يكون لدينا كَنيسة خاصة بنا، الكنيسة ليست فقط للدين ولكنَّها تعبر عن الْهُوِيَّة أَيضًا، تُعقد فيها الاجتماعات والتعرف على زوجات المستقبل ونشوء قصص الحبّ وحل الخلافات وما أكثرها بيننا، دمنا حامٍ ماذا سنفعل هكذا خلقنا الرَّبّ، ولم نستطع تغيير ما نفخه فينا، وعندما برزت الكنيسة قَدَّمَ كِبارنا، بسرور وفخر، مسطرين نُقش عليه باللغة الآرامية التي لا أعرفها للمهندس مصمم الكنيسة جريس خليل أنسطاس».

سررتُ ببوح يُوسُف وتذكره لتفاصيل لم أكن أعرفها، وحثثته على المزيد، ولكنّه تذمر وهو يحاول النهوض قائلاً: «ماذا تريدني أن أزيد يا يُوسُف، من الجيد أنّني ما زلت

أذكر ما أذكره، بعد الأيَّام العصيبة، علني أعود مرّة أخرى للحوش، لباحاته المرتبطة ببعضها بعضًا بممرات، وإلى غرفه ومغره، ومرابط الخيل الحجرية على شكل حلقات، وإلى أقواسه، وأدراجه، وسكن الحيوانات التي نسمي الواحدة منها راوية، ومصاطبه، أخّ يا يُوسُف أخّ، يا ويلاه يا ولداه، يا نهرنا الخالد..!».

وأعقب ذلك بضحكةٍ مجلجلة، لا بد سيسمعها العَدُوّ المتربص، إذا كان متربصًا، وسيكتشف الكمين بكل سهولة..!

ضحكت وأنا أقلده: «يا ويلاه..يا ولداه، ضاع العمر يا ولدي قبل أن يبدأ، وقبل أن نكحل أعيننا برؤية البلاد التي ضاعت هكذا، برمشة عَيْن وقبل إغماضها..!!».

سألني يوسف عن زوجتي، وقصة حبنا، ورغم أنّه علم بأنني لا أحب التحدث بشأنها، محتفظا لنفسي بذكرها وتذكرها، إلا أنّه ألحَّ، فأخبرته بأننا لم نعش قِصّة حب، خُلقنا وكأن واحدنا للآخر، هكذا كان الأمر، لا يوجد حُبّ في إرطاس، سجلت حليمة حكايات المتزوجين والمتزوجات، وذكرت شهوات الرجال، وخوف النساء الدائم. لم تذكر شيئا عن قصص حُبّ، ربما سيعيش أبناؤنا تلك القصص،

وهم يعيشون زمنا آخر، غير زمننا، أتخيل بأنني لست إلا فقرة في كتابٍ لم يغلق، فُتح منذ مئات الأعوام.

غريبان في لَيْل الجِسْر

حاولتُ مرّةً الاقتراب أكثر جهة الجِسْر لأرى آثار النسف، ولكن يُوسُف منعني، خَشْيَة أن يُطلق علينا الإسرائيليّون النَّار، أو نقع في كمينٍ لهم.

بدأ تفكيري يلحّ، في زوجتي ومَن في بطنها، فالسبب الَّذي جعلني أتركهما، لم يعد موجودًا، ووجودهما ومستقبلهما مسؤوليتي، وجَدَّتي لن تعيش لهما طول العمر، وأتساءل متى سأقطع الشَّرِيعة، وأصل إليهما، عليَّ أن أكون معهما وبجانب جَدَّتي، بَيْت بلا رَجُل في إرطاس، يعني بَيْت دون أعمدة، فكيف سيكون الأمر بعد أن أصبحوا تحت حكم الإسرائيليّين. خرجت لأبعد عنهم خطر الإسرائيليّين، وسأعود لأعيش معهم تحت الخطر الَّذي أضحى واقعًا، وأعرف الآن من مكاني هنا، بأنه لن يزول بسرعةٍ.

في لَيْلَة، من ليالي الحوار والانتظار والغفارة المملة، رأينا شخصين بين شجر البرتقال والبُوص، وعلينا أن نتوقع أنهما من الأعداء، كانا يحملان أشياءً على كتفيهما، اعتقدنا أنّها بنادق، وإذا كانا من الجَيْش فعليهما أن ينطقا بكلمة السِّرّ

التي تتغير كلّ لَيْلَة، اقتربنا منهما مستعدين متحفزين متمنين أن يكونا من الأعداء حتَّى نريهما ما يجب أن يُرى من جنديين يتوقان إلى إفراغ سلاحهما في أجساد الأعداء بكل غلٍ وحقدٍ وكره، انتظرنا كلمة السِّرّ لنرد عليهما، ولكنهما ألقيا التحية، وعندما سألناهما عن هويتيهما، قالا بأنهما مزارعان، وفي هذه اللَّيْلَة نوبتهم في الحصول على المياه، ولا يمكن تأجيل ذلك لأن المياه موزعة على المزارعين ضمن نظام السَّاعَة، وهو نظام معمول به بين مزارعي الأغوار لتقسيم للمياه يقترب من العدالة.

جلسنا معًا على الأَرْض، ولم يمضِ وقت حتَّى شدَّنا إليهما أنا ويُوسُف، أسلوب حديثهما، خصوصًا وأن الحديث تشعب بعيدًا عن الزِّراعة، ليشمل أوضاعنا، ومصير شعوبنا وأمتنا العربيّة، بعد صَدْمة الهزيمة، التي تبنى الإعلام العربيّ كلمة نكسة اسمًا لها، اجترحها الصحافيّ مُحَمَّد حسنين هيكل، وهو ما لم يكن مقنعًا لنا، ما حدث ليس فقط نكسة، وإنما كما شهدناها مؤامرة وكارثة.

أحببت هيكل عندما كان صوت عبد النَّاصِر المدوي، وأقرأ مقالته «بصراحة» في الأهرام، كلما تيسر وصولها لنا، ولكن الآن، ورغم أنّه ظَلّ صوتًا لعبد النَّاصِر، إلّا أنّني لم أعد أحبه، أيَّة نكسة يا هيكل؟ أنا الَّذي أعرف ما الَّذي

جرى، إنّه موات يعلم الله وحده كم سيستمر.
والد يُوسُف سمى ولدًا له: ناصرًا، على اسم الرَّئيس الثائر، وولدًا آخر: خالدًا، على اسم ابن الرَّئيس الَّذي يحمل كنيته، وأحتفظُ أنا باسم خالد لابني المنتظر.
سألني أحدهما عن قريتي، فقلت له بأنني من إرطاس، قريبًا من بَيْت لحم، وعندما رأيت في عينيه حيرة وتساؤلاً، تحمست، وفتحت شهيتي للكلام وكأن صوت خرير الماء في النَّهر، يشكل خلفية موسيقية تمدني بالنشوى:
«أنا من قَرية كنعانية قديمة، تقع جنوبي بَيْت لحم، وتبعد عنها أقلّ من كيلو متر واحد. تنتشر مساكنها على الجانب الشمالي لوادٍ خصب، يُروى من عَيْن القَرْيَة الشهيرة، وعيون أخرى، وهو أحد أودية الهَضْبَة الكنعانيّة الوسطى الواقعة غرب البَحْر المَيِّت، وشرق السهل الساحلي للبحر الأبيض المتوسط.
وهذه القَرْيَة الكنعانيّة القديمة، كانت بسبب موقعها، موعودة بالدماء والحزن والمجد، وتعرض أهلها لـ «سبع ذبحات» على أيدي الغزاة، وقبائل وسُكَّان بلدات فلسطينيّة، وهام بها عدد من بحاثة الفرنجة حبًا، وكتبوا فيها القصائد وسطروا الكتب، وكل ذلك بسبب عبقرية المكان، الَّذي

وجدت إرطاس نفسها فيه، والتي كانت حتَّى وقت قريب تسيطر على قنوات المياه التي تزود القُدْس، ومن كان يفكّر باحتلال القُدْس، عليه أولاً أن يعرف كيف يسيطر على هذه القَرْيَة الصغيرة.

اختيار سكّان إرطاس، لموقع قريتهم لم يكن اعتباطًا، ففيها كلّ الركائز الأساسية للقرى الكنعانيّة، مثل توفّر العامل الدفاعي الأمني للصمود أمام بطش أي غاز مسلح، وكذلك العامل الاقتصادي، وكثرة الينابيع فيها جعلت من واديها، جَنّة خضراء.

ومن مميزات موقعها، وقوعها على الطَّريق الجبلي الَّذي يربط بين جنوب فِلَسْطِين وشمالها، من غزة إلى القُدْس، مرورًا بإرطاس. آه إرطاس؛ هي كلمة يونانيّة تعني الجنَّة المقفلة، حازت شهرة عالمية، ليس بسبب عبقرية المكان، ودورها في أمن القُدْس المائي فقط، ولكن لأنها شكلت عامل جذب للمستشرقين والبعثات التبشيرية، والذين ساهم بعضهم في تدوين تاريخ إرطاس بشكل علمي وترك مجموعة تضم مئات الصُّور لها ولمعالمها وناسها، وتدوين حكاياتها الشعبيّة، وإحصاء نباتاتها، وكتب فيها عددٌ من الشعراء الإيطاليين قصائد مؤثرة.

واستوطن فيها العديد من العلماء الفرنسيين والألمان والإنجليز وعاشوا فيها سنوات عديدة، وأدخلوا إليها أنواعًا نادرة من الفواكه آنذاك، وما تزال بعض المناطق في القَرْيَة تعرف بأسمائهم.

ولكن أهمّ هؤلاء على الإطلاق هي حَلِيمَة التي يمكن أن نطلق عليها (درويشة إرطاس المتيمة)، من الصعب وصف الحبّ الَّذي حملته حَلِيمَة لسكان القَرْيَة. إنّها بطلتي».

تدّخل يُوسُف وقد رأى بأن شهيتي المفتوحة للكلام لن تشبع بسهولة، ليقول يكفي الآن يا يُوسُف، لقد كفيّت ووفيّت..!

من سألني عن قريتي، سأل يُوسُف فقال له إنّه من بَيْت لحم، وعندما استفسر منه السائل:

-من أين من بَيْت لحم؟

أجابه يُوسُف:

*حارة السُريان..!

وعندما انتظر من يُوسُف أن يستفيض في الحكي مثلما فعلت، قال له يُوسُف:

-في وقتٍ لاحق، إن كتب لنا الله اللقاء مرّة أخرى، يكفي ما دوشنا به يُوسُف عن إرطاس وحبيبتها وحبيبته حَلِيمَة.

في اللَّيْلَة التَّالِيَة، جاءا، أصبح بيننا وبينهم، ثقة ما، قدرنا بأنهما ليسا مزارعين، وهما قدرا فينا ما كنّا نبحث عنه، ولا نعرفه تمامًا.

مجانين الغَوْر

أتيا في اللَّيْلَة الثَّانية، مع فجرِ يومٍ جديد رطب في الأغوار، شعرا بأن لدينا شيئًا، وشعرنا بأن لديهما أشياء، سَرت الثقة بيننا وبينهما بسرعة، وسَرى الحديث بيننا دون مُقدمات ولا تكلف.

تحدثا عن العُرُوبَة وفِلَسْطين والخذلان، وتساءلا إذا كان وضعنا الحالي يمكن أن يُرضي أحدًا سوى الأعداء؟ إلى أيّ مدى جميعنا مدركون لما آل إليه وضعنا؟ ما هو واجبنا؟ وما هو دور الشَّباب؟ عبد النَّاصِر فهمها مبكرًا: «ما أُخذ بالقوة لَا يُسترد إلّا بالقوة»، والفلسطينيون قوميون بالفطرة، ويا إخْوان ليس لها غير البارود، النَّصْر سيأتي من فُوَّهات بنادقنا، وليس من مدافع الجيوش الرسميّة العاجزة والمتآمرة، لقد وثقنا بهذه الجيوش، رغم أنّها هي نفسها، التي خذلت آباءنا وأجدادنا في النَّكْبَة، ولكننا لم نأخذ الحِكْمَة الشعبيّة على محمل الجد «اللي بجرب المجرب، عقله مخرب»، والتي تتماثل مع قول الرَّسُول العربي: «لا يُلدغ المؤمن من جحرٍ مرتين».

وهكذا سرى الحديث متقاطعًا، ومتماسكًا، ومحلقًا، وآملاً..!

في اللَّيْلَة الثالثة انتظرناهما، ومع بزوغ الفَجْر على الماء، جاءا. جلسنا بمحاذاة الشَّرِيعة، وكأننا أردنا النَّهر، شاهدًا على لحظاتنا، شربنا الشَّاي والقَهْوة، يقتلنا الانتظار، انتظار الكلام والبوح، ولكنهما شرّقا وغرّبا بحكايات عن غرب الجِسْر وشرقه، وعن العَرَب شرقهم وغربهم، وعن المروءة والشجاعة والهزيمة، وأخيرًا قالا:

-هل يمكن أن نتقابل غدًا السَّاعَة العاشرة في الشونة الشَّمالية.

في أطراف الشونة الشَّمالية، من الشمال، وُجدت بعض المنازل الفارغة من السُّكَّان، كانت أسفل التَلّة التي حفرنا فيها خنادقنا الجديدة شرق الجِسْر.

قلنا لهم:

-نعرف المِنْطَقَة، ولكن أين سنلتقي تحديدًا؟

*هل تعرفان البيت الَّذي تنتصب أمامه شجرة التِّين؟

في طريق عودتنا، مع بزوغ شمس الأغوار، أخذ يُوسُف يدندن:

«بحب الانجاص وأكل الانجاص

وبنات إرطاس حلوين يمّه

بحب الرُّمّان وأكل الرُّمّان

وبنات السُريان حلوين يمّه»

انتقلت عدوى مزاجه إليّ:

«..ومن وين بنجيب الرُّمّان؟

من سلوان

وبنات سلوان حلوين يمّه»

وفجأة صرخ فرحًا:

«شُجَّاع، شُجَّاع»، وعمد إلى الثمار الصفراء الناضجة، والتي نسميها شُجّاع، وقطف حَبّة وناولني إياها وقطف لنفسه حَبّة قائلاً:

-نريد أن نصبح مجانين، لا بد من الجنون في غَوْرنا المجنون هذا..!

كان الواحد فينا، يمسك حَبّة الشُجَّاع يفركها، يشمّها، يقرِّبها إلى أنفه، لتفحص قُوَّة نفاذ الرائحة التي لديها قدرة على إغراء الصغار لتناولها ليجنوا، ويمكن أن يضع لسانه عليها، ليشعر رفاقه بأنه سيأكلها، ولكنّه لا يفعل، فلا يحتاج أمثالنا ممن نسيتهم الدُّنْيَا، لمزيدٍ من جنون الثمرة الصفراء التي تسمى تُفّاح المجانين، ولكننا تناولناها نريد أن نأكل من كلّ ثمار الجنون، تأسيًا بسِتّنا راحيل، التي أقام لها أهلنا مقامًا بين بَيْت لحم والقُدْس، أُسيلت على جوانبه دماء أهلنا في

الاحتلال الأخير، قد تسدّ حاجة كلّ الآلهة للقرابين.
سِتّنا راحيل؛ تعاطت الشُجّاع، ودفعت من أجله ثمنًا، لا يُقدره إلا ضُرة مثلها. من أجل الشجّاع، أو تُفّاح المجانين، أو اللُّفَّاح، تنازلت سِتّنا راحيل، عن حقها بليلة سيدنا يعقوب، فمنحتها لأختها اللدودة سِتّنا لائقة.
سِتّنا لائقة، التي عاد ابنها سيدنا روبين من الحقل، حاملاً لُفَّاحًا، قالت لسِتّنا راحيل، عندما طلبت اللُّفَّاح:
* أقليل أنك أخذت رَجلي فتأخذين لُفّاح ابني أَيضًا؟
- إذًا يضطجع معك اللَّيْلَة عوضًا عن لُفّاح ابنك..!
فلما أتى سيّدنا يعقوب من الحقل في المساء، خرجت لائقة لملاقاته وقالت بما يشبه الأمر: إليّ تجيء لأني قد استأجرتك بلُفّاح ابني. فاضطجع معها تلك اللَّيْلَة، أمَّا الرَّبّ، فسمع: «للائقة فحبلت وولدت ليعقوب ابنًا خامسًا».
يهزج يُوسُف جذلاً:
«لاعبونا ع التُّفَّاح
وع اللُّفَّاح
يا قلايد يا ملاح»
نظر إليّ يُوسُف وقال بأن مثلي من نشأ قرب النبع المختوم، عليه أن يسمع هذا المقطع من نشيد الإنشاد: «اللُّفَّاح يفوح

رائحة وعند أبوابنا كلّ النفائس من جديدة وقديمة ذخرتها لك يا حبيبي».

يا سلام عليك يا نبينا وملكنا سُلَيْمان، يا للمزاج الرائق، يا لحب الطبيعة، والأشجار والينابيع، وبنات أورشليم..!

استغربت ظهور تُفّاح المجانين، أو بيض الجن، أو اللُّفَّاح في هذا الوَقْت، بالنسبة لنا كان ميعادنا معه في الربيع، وهذا الربيع لم نشهد ربيعًا، ولم أكن بحاجة إلّا لسماع يُوسُف يشير لها، حتَّى تراخت أساريري. نفذت رائحتها إلى جسدي، وتذوقها خدره وأسكرني.

تعود جَدَّتي لتحتل مشهدي، وحكاياتها عن تُفّاح المجانين لا تُقاوم، مرّة طلبت السِتّ لويزة من امرأة في إرطاس، أن تقلع جَذْر النبتة، وعندما عادت الفلّاحة بغنيمتها بجذرٍ بدا فيه التشعب، فجذر تُفّاح المجانين مجنون، يتشعب كأنه ماء متسرب، لا يمكن توقع أين يذهب، وهو يفعل ذلك يجنن الكثيرين الذين يسعون للحصول على الجَذْر كاملاً، ولكن غالبًا دون نجاح.

قالت الفلّاحة بشبه اعتذار: «عندما كنت أحفر، جاء ابن عمي، وعندما علم ما أفعله جُنَّ علي، واستكبر حفري متتبعًا الجَذْر وأخبرني بأنه يوجد رجل أسود صغير يعيش مع

الجَذْر وإذا سحبته حتَّى قدميه فإنّني سأمرض وأُرمى في فراش المرض أيَّامًا لا تُعد، ولكن لأن الله رحيم انقطع الجَذْر في يدي، وكفاني مغبة الرجل الأسود والمرض، وها أنا أجلب لك ما تمكَّنت من جلبه، آسفة لأنّه قصير، وسأذهب بسرعة لا أريد أيَّة علاقة لي به».

تُفّاح المجانين، تقول جَدَّتي كانت في الأصل إنسانًا تحوّل إلى نبتة، جننته الحياة وتعقيداتها، وكان على الفلّاحة ألّا تحفر على الجَذْر بنفسها، بل تربط كلبًا ليسحب الجَذْر.

تدخل يُوسُف وهو يضحك:

«هل تعلم، أن هذا ما فعله سيدنا وسيدكم روبين، ربط حماره في تُفّاح المجانين، حتَّى لا يهرب وانشغل في فلاحة أرضه وعندما جاء في المساء ليفكه ويركبه، وجده ميتًا، وبجانبه جَذْر التُّفَّاح، يبدو أن المسكين وهو يتحرك محاولاً فك نفسه، سحب جَذْر التُّفَّاح، ولم يكن يعلم بأن في ذلك مماته، ولكن لم يكن ذلك دون فائدة، فروبين أعطى والدته لبئة الجَذْر التي أعطتها لأختها المحبوبة العاقر راحيل، إنّها رقية للخصب».

الكلب، لسببٍ قدَّره الخالق، ولا نعرفه، هو المرشح لسحب الجَذْر، أمَّا الإنسان فإنه سيموت، إذا جرَّب أخذ ما قُدِّر

للكلب أن يضطلع به.

كانت جَدَّتي صغيرة عندما ذهبت مع السِتّ لويزة وخالتها العمياء، وعمتها الطرشاء، إلى وادي الصليب في القُدْس الجديدة في نزهة، عندما كلفت السِتّ لويزة رجالاً لسحب جَذْر تُفّاح المجانين، وهي تدرك صعوبة الحصول عليه كاملاً. تسلَّح الرجال بالمجارف والمعاول والسكاكين، ورسم هؤلاء الخبراء ثلاث دوائر حول النبتة بسيفٍ، وبدأوا الحفر، في حين أزاح الجميع، حتَّى العمياء، وجوههم نحو الغرب، كي لا يروا ما يحدث.

ومع حفر الحفرة الثانية، شبكت النسوة أيديهن معًا، وبدأن بالرقص كالمجنونات، وهن يغنين لعل ذلك يساعد في مهمة سحب الجَذْر، ولكن الأمر لم يُجدِ، طلب الحفارون منهن المساعدة، فاخترن أصغر فرع ظهر في إحدى الحفر، وأخذن في الكشف عن جذوره، وبعد ثلاث ساعات من العمل الجاد والتناوب بين الطَّرَش والْعَمَى والست لويزة والغناء استطعن اقتلاع جَذْر صغير يبدو أنّه لم يتشعب كثيرًا، ورأين كيف توحي الجذور بأشكالٍ بشرية.

في ذلك الوَقْت، كما تخبرني جَدَّتي، عرض علماء نبات مبلغًا من الجنيهات الفلسطينيّة نظير جَذْر كامل غير مقطوع،

ولكن لم ينجح أحد في الحصول على الجذور التي تتفرع في الأَرْض كأنّها أفاعٍ.

أنتِ هناك يا جَدَّتي..وأنا هنا، وبيننا الكثير من الجنون، جنون الأَرْض، والنَّهر، والدول الظالمة.

شبكنا أيدينا، أنا ويوسف، ورقصنا كالمجانين حول تُفّاح المجانين، ولم يكن في نيتنا البحث عن جذوره، أو عن أي جَذْر، أردنا تفريغ شحنات التأثر في انتظار موعد منزل التِّينة.

بَيْت التِّينة

عشنا لحظات الجَمْر، في انتظار أن يصبح الصَّبَاح وتدقّ العاشرة، لم نفكر في جيشنا ولا معسكرنا، لم يكن الانضباط العَسْكَريّ مُحكمًا لدى الجَيْش المهزوم، رغم محاولات القَائِد زلّوم الفاشلة؛ يوميًا يغادر جنود السَّرِيّة ولا يعودون، يرمون ملابسهم العسكريَّة، وينطلقون، ليأتي رئيس القلم مُحَمَّد الأسود ليجمعها، ويضعها في المخزن، باعتبارها عُهدة سيحاسب عليها، أمَّا عهود الجَيْش الكبرى في الصمود، والتَّحْرِير، وطرد العَدُوّ، فستبقى دون محاسبة.

في العادة نكون نحن في مثل هذا الوَقْت عائدين من الكمائن، فنرتاح وننتظر الغداء، أيّ أن الواحدَ منّا يكون حرًا غير ملتزمٍ بمهامٍ أو ترتيبات عسكريَّة، نقصد قناة الغَوْر الشرقيّة التي تصل إلى مُثَلَّث العارضة، لنستحم، أو نغسل ملابسنا، نرمي وسخنا الجسديّ في المياه التي تصلنا من نهر اليرموك صانع أمجاد العَرَب الماضية، وما نشعر بها من أدران استوطنت تحت مسامات الجلد، في مياه القَنَاة الشاهدة على خيبتنا الحاضرة.

في هذا الوَقْت الحُرّ، الَّذي لَا يسأل فيه الواحد عن الآخر في السَّرِيّة، قصدنا بَيْت التِّينة، وجدناهم بانتظارنا، ثلاثة وليس اثنين، مرتدين الحطات المرقطة بالأسود والأبيض، وجوههم مخفية عنّا. الاثنان اللذان نعرفهما هما مَن تحدثا بعد أن كشفا وجهيهما، بدأا بمقدمةٍ طويلةٍ، خلناها لن تنتهي: «شعرنا بأنكم من النّاس المخلصين، وبأنكم من الفلسطينيّين الحقيقيين، المستعدين للتضحية، وهذا ما جعلنا نثق بكما، وبعد أن درسنا الوضع مع قيادتنا من جوانبه المختلفة، نعرض عليكم الآن أن تكونوا في صفوف المناضلين الثُوّار معنا، في حركتنا فتح».

في ذلك الوَقْت لم نكن نعرف الكثير عن الفروق بين فصيل فلسطينيّ وآخر، مثل الجَبْهَة الشعبيّة أو فتح، أو أيّ تنظيم آخر، وإنما سمعنا عن الفدائيين الذين يضحون بأنفسهم من أجل الوطن، واسم فتح كان يتردد ويجد له مستقراً في آذاننا، ولكنّه اسم يحيطه الغموض والسريّة. قبل الحَرْب، التنظيمات السائدة والمغضوب عليها من الحكومة، كانت للشيوعيين، والبعثيين، والقوميين، والناصريين، ونشطاء هذه الأحزاب هم الذين ينظمون الاحتجاجات والمظاهرات، أمَّا الحديث عن تنظيمات فدائية في شهر تَمُّوز الحار من عام النكسة، فكان وقعه مؤثرًا علينا، صحيح بأننا سمعنا عن

الفدائيين وحاولنا مقابلتهم، إلا أن الجلوس معهم وتلقي عرضهم هو أمر آخر تمامًا، شعور مختلف يدغدغ أجسادنا وأرواحنا.

فرحنا؛ أنا لم أصدق ما يقولونه، وشعرت بأنني مقبل على حياةٍ جديدة، فكرت بابني الآتي من ضباب الغيب، إلى ضباب الوضع الفلسطينيّ، ولاح مِن بعيد وجه زوجتي، التي غادرتها لأساهم في التَّحرير، وعندما فشلت سأعود إليها فدائيًا، وتراءت لي تقاطيع جبين جَدَّتي التي حفرها الزمن. نظرتُ إلى يُوسُف، فحضنني وقال:

-على بَركة الله..!

الجروح داخلنا عميقة، هربنا، وقطعنا الجِسْر، وبكينا كالنساء، كنّا ننتظر هذه اللَّحْظَة، الدواء الَّذي نبحث عنه، قلت:

-نحن مستعدون للموت، لقد شفيتمونا يا إخْوان..!

أخرج الرجل الثَّالِث نشرات، وأراد أن يقدمها لنا، إلّا أنّه تلكأ بعد أن نظر إليه أحدهما:

-أنتما منذ الآن أصبحتما عضوين في حركة التَّحرير الوطنيّ الفلسطينيّ (فتح)..!

فتح؛ يا يُوسُف هي فتح الاسم الغامض يأتي على مهلٍ

وبشكل مفاجىء، لم يكن مهمًا بالنسبة لي في تلك اللحظات المصيرية المغلفة بالسرية، أن معلوماتي قليلة عن فتح، المهم أنّني وصلتهم، ووصلوني.

أضاف:

-أنت يا يُوسُف اسمك الحركي منذ الآن (أَبو النُّجوم)، وأنت يا يُوسُف ستكون (أَبو الكواكب)..!

فرحت بأبي النُّجوم، فرحت كثيرًا، وأقسمت على المُصْحَف، بينما أقسم يُوسُف على الإنجيل، معاهدين الله، بأن نخلص للوطن، وأن نبقي أمرنا سرّيًا، وأن ننفذ ما نُؤمر به من أجل فِلَسْطِين.

أصبح لكلمة فِلَسْطِين معنى آخر، فِلَسْطِين الآن بعدما أصبحت أَبو النُّجوم، هي غيرها قبل ذلك.

سلمنا الرجل الثَّالِث بيان حركة فتح التأسيسي، وقرأ من نسخته:

«البيان الأوَّل لقُوّات العاصفة

حركة التَّحرير الوطنيّ الفلسطينيّ

(فتـــــح)

بلاغ عسكري رقم 1

صادر عن القيادة العامة لقُوّات العاصفة

اتكالاً منّا على الله، وإيماناً منّا بحق شعبنا في الكفاح لاسترداد وطنه المغتصب، وإيماناً منّا بواجب الجهاد الْمُقَدَّس، وإيماناً منّا بموقف العربي الثائر من المحيط إلى الخليج، وإيماناً منّا بمؤازرة أحرار وشرفاء العالم؛ لذلك فقد تحركت أجنحة من القوات الضاربة في ليلة الجمعة 1964/12/31م وقامت بتنفيذ العمليات المطلوبة منها كاملة ضمن الأرض المحتلة، وعادت جميعها إلى معسكراتها سالمة.

وإننا لنحذر العَدُوّ من القيام بأية إجراءات ضد المدنيين الآمنين العَرَب أينما كانوا، لأن قواتنا سترد على الاعتداء باعتداءات مماثلة، وسنعتبر هذه الإجراءات من جرائم الحرب، كما وأننا نحذر جميع الدول من التدخل لصالح العَدُوّ بأي شكل كان، لأن قواتنا سترد على هذا العمل بتعريض مصالح الدول للدمار أينما كانت.

عاشت وحدة شعبنا وعاش نضاله لاستعادة كرامته ووطنه

القيادة العامة لقوات العاصفة

التاريخ 1965/1/1م

القيادة العامة لقُوّات العاصفة».

تبادلت النظرات مع يُوسُف، وكأننا نتفق على ألّا نبوحَ بما عرفناه الآن، لقد كان الرجل الثَّالِث الملثم رفيقنا ربحي،

الَّذي تخلف عن موعد سينما رغدان، وينقل الآن موعده معنا هنا.

شرح لنا رفيقانا مكشوفا الوجه، عن العاصفة، كجناحٍ عسكري، وفتح الأُم، للأجنحة كلّها، ونبذا لنا نُبْذة تاريخيّة عن العَمَلِيَّة التي نفذها الشهيد الأوَّل للحركة أحمد موسى.

وعندما هممنا بالتحرك، ووقفنا، تقدم منّا الرجل الملثم، وحضن يُوسُف، ثُمَّ حضنني، وشعرت بثقل في جيب بنطالي، حاول جلجامش العائد، بأكبر قدرٍ من دفء الأحضان، أن يوصل محبته ووصيته لنا.

شهيد الثَّوْرَة الأوَّل

عندما أبديت اهتمامًا بالشهيد أحمد موسى، رتب الأخ أَبو القاهر، أحد الرجلين اللذين نُظمنا أنا ويُوسُف على يديهما في حركة فتح، لقاءً مع قايض ابن الشهيد، الَّذي انتمى للثورة، سائرًا على دَرْب والده.

انتظرت أنا ويُوسُف، قايضًا في بَيْت التِّينة، ولم يطل انتظارنا، وبعد أن تبادلنا كلمة السِّرّ، انطلق يحدثنا عن والده: «والدي الشهيد أحمد موسى الدلكي، الَّذي لقي وجه ربه شهيدًا مقبلاً غير مدبر في الفاتح من كانون الثَّانِي عام 1965م، كأوَّل شهيد للثورة الفلسطينيّة المعاصرة، المنتصرة بإذن الله، وسواعد الشَّباب ودمائهم، كان عمري خمسة عشر عامًا، وكنت شاهدًا على التحضير لتنفيذ العَمَلِيَّة. نحن من قَرية ناصر الدين قرب طبريا، اكتسبت قريتنا اسمها من اسم القَائِد المغوار صلاح الدين الأيوبي أَبي السَّيْف البتار، ورغم أنّني ولدت في عام 1950م، إلّا أنّني سمعت من أهلي، بأن والدي هو من قاد ثوّار القَرْيَة الذين تصدوا للعصابات الصِّهْيَوْنيّة خلال محاولتها دخول القَرْيَة، وعندما

تمكَّنت من احتلال القَرْيَة رغم الجهود الجهيدة التي بذلها المجاهدون دفاعًا عن القَرْيَة وناسها، ارتُكبت مذبحة، وتشردنا إلى قَرية القطاف هنا في الأغوار، بالقرب من الشونة الشَّمالية.

أصبح والدي وجهًا مألوفًا في مسكنه الجديد، وزعيم قبيلته التي تشردت من ناصر الدين، وعاش حياة شقاء وبؤس مثل باقي اللاجئين، وهو يضطلع بدور المصلح الاجتماعي وسطهم، وتعرف في وقتٍ لاحق على المجموعات الفدائيّة التي ستعرف باسم حركة فتح، للتخطيط لنسف مشروع نفق عيلبون الَّذي أراد الصهيونيون من خلاله تحويل مجرى نهر الأُرْدُن.

في أيلول عام 1964م، أذكر بأن والدي الَّذي كنت لا أفارقه باعتباري ابنه الأكبر، قاد دوريّة استطلاع لنفق عيلبون مع مجموعة من رفاقه، واصطدمت مع دوريّة إسرائيليّة، وأصيب في الاشتباك ابن عم أحمد موسى، حُسين إبراهيم في ساقه، واستطاع أفراد الْمَجْمُوعَة نقله إلى شرقي النَّهر، وإسعافه، وتوجهوا لاحقًا إلى سوريا لدراسة إمكانية تنفيذ العَمَلِيَّة في الموقع، مع قادة فتح السرّيين.

وعندما حان وقت تنفيذ العَمَلِيَّة المكلف بها من حركة فتح

التي لم تولد بعد رسميًا، اجتمع والدي مع أفراد الْمَجْمُوعَة التي ستنفذ المَهَمّة، وهم أربعة من أبناء عمومته، بالإضافة إلى ثلاثة آخرين لا أعرفهم، وذهبتُ مع والدي إلى مكانٍ يبعد نصف كيلو متر عن منزلنا، وخبأنا السلاح الزائد عن حاجة العَمَلِيَّة، وكم كنت فخورًا بثقة والدي بي.

السلاح كان نادرًا، والحركة لم يكن معها مال. اشترت أسلحة خفيفة من سوق السلاح وبكميات ضئيلة ونوعيات سيئة الجودة.

حاولت والدتي، ثني زوجها عن تنفيذ العَمَلِيَّة، فقال لها رحمه الله: «الأَرْض ما بفلحها إلّا عجولها يا أُمْ قايض»، واختلى بي، وأوصاني بأخوتي وأُمّي، وكأنَّه كان يتوقع مصيره.

في مساء يوم الخميس 28 كانون أوَّل 1964م، تحركت الْمَجْمُوعَة الفدائيّة بقيادة والدي، من منزلنا، ومن الراديو كان صوت وديع الصافي يلعلع:

«راجع راجع ع بلادي ع بلادي الخير
بشّر أهلي وولادي يا الله يا طير
طير الطـاير مِـن عنّا مِن عـند الأهل
كيف الزرع بموطنا كيف حال السهل

خبرني يا طير»

فلعلع صوت والدي:

«راجعين يا أرضنا راجعين»

ساعدتُ في تحضير التموين والطعام للمجموعة التي انطلقت السَّاعَة السادسة مساءً متجهين أفرادها نحو النَّهر فوجدوه في حالة فيضان فلم يتمكنوا من اجتيازه، فعادوا إلينا، وانطلقوا يوم الجُمُعَة مساءً، وحددوا موعدًا الخامسة والنِّصْف قبيل استلام الدَّوْرِيَّات الليلية المتحركة نوباتها، وعاد ثلاثة من الْمَجْمُوعَة لعدم تمكّنهم من السِّبَاحَة، وتمكّن الخمسة الباقون من اجتياز النَّهر قاصدين شمال طبريا، سيرًا على الأقدام، ووصل أفرادها إلى نفق عيلبون، حيث يجري العمل بمشروع تحويل نهر الأُرْدُن، ووقتوا تفجير النَّفق فجر الرابعة من صباح 1 كانون ثاني 1965م، وضمت الْمَجْمُوعَة إضافة إلى أحمد موسى كلّ من: حُسين إبراهيم، وحسن حميدي، ومُحَمَّد عبد الله، وحسن ذيب، وإذا كانوا قطعوا في مغامرة الذهاب المسافة في ثلاثة أيَّام، فإنهم عائدين، قطعوها ركضًا في ثماني ساعات، ولدى وصولهم إلى شرقي النَّهر، سمعت ووالدتي صوت إطلاق النَّار من منزلنا القريب من النَّهر، وبعد فترة وصل أحد أفراد الْمَجْمُوعَة إلى المَنْزِل،

وسأل إذا كان الوالد عاد إلى المَنْزِل أَمْ لا؟ وتبين فيما بعد بأن الْمَجْمُوعَة انسحبت مساء الأحد، ووصلوا النَّهر في الرابعة فجرًا، وعندما اجتازوه، فوجئوا بإحدى الدَّوْرِيَّات التي أطلقت النَّار عليهم دون تحذير فاستشهد والدي بنيران الجَيْش الأُرْدُنِيّ، شكل ذلك صَدْمة كبيرة لنا، وتحوَّل نهر الأُرْدُن بالنسبة لنا نهرًا من الدُّمُوع، والألم.

في السابعةِ صباحًا، حضرت قُوّات الأمن وجمعت كلّ أفراد عشيرتنا ووضعوهم في السِّجْن، وخفروا والدتي إلى مَرْكَز الشُّرْطَة، وهناك أبلغوها باستشهاد زوجها، واعتقلوا كلّ أفراد الْمَجْمُوعَة.

وصدر بيان حركة فتح في الفاتح من كانون ثاني عام 1965م، يعلن عن تنفيذ العَمَلِيَّة، واستشهاد والدي، وانطلاق الثَّوْرَة الفلسطينيّة. دماء والدي سطرت البيان الأوَّل لحركة فتح التي انطلقت في ليل الظلام العربيّ.

دُفن والدي في جنازةٍ كبيرة إلى مثواه الأخير في مقبرة الصحابي معاذ بن جبل في الشونة الشَّمالية، وبعد أن استوعبنا صَدْمة استشهاده، دفنت في الأَرْض الأسلحة التي تركها والدي خلفه، وأسلحة أخرى له».

تنهد قايض، وهو يكمل:

«خلال هذه الحَرْب، النكسة، الهزيمة، تسللت وحدات من جَيْش الاحتلال شرق النَّهر، إلى قَرية القطاف، وطوقوا منزل (أَبو فائق)، ثُمَّ نسفوه، واستشهد من فيه، ظنًا منهم أنّه منزل (أَبو قايض)، لقد أخطأوا، لم يميز جيشهم الَّذي أصبحوا يسمونه الجَيْش الَّذي لا يقهر بعد أن قهرنا، بين قايض، وفائق، واستشهد في العَمَلِيَّة ابن عم لوالدي وابنته.

بعد هذا الهجوم الغادر، أخرجت الأسلحة من تحت الأَرْض، ووزعتها على الأهالي ليدافعوا عن أنفسهم، لم يعد هناك جَيْش يستطيع ردّ عُدوان العَدُوّ، ولكن قُوّات الجَيْش الَّذي لم يحارب، صادرت الأسلحة، فأعطاني القَائِد أَبو علي إياد رشاشًا، لأننا توقعنا أن يعيد العَدُوّ الكرة من جديد، فهو لم ينس وجعه من أحمد موسى، ويريد أن ينتقم من المدنيين».

الذكريات نهر مليء بالنضال، وقايض يتمثل والده وكأَنَّه يعيش معه، تأثرت بحكاية الشهيد أحمد موسى، وبمعنويات قايض، وفي الواقع، أي شيء عن النضال، والكفاح، أصبح يؤثر فيّ، كفدائيّ مُستجد.

وأكبرت كثيرًا قايضًا ووالده وعائلته وأبناء العمومة، قال قايض باعتزاز: «سار على دَرْب والدي كثيرون من أبناء

عمومته، واستشهد منهم في العمليات أكثر من سبعة عشر شهيدًا، يا نهر الأُرْدُن اطلب ونحن لن نبخل على أرضنا وشعبنا».

وأنا أَيضًا سأردد مثل قايض:

« هبت النَّار والبارودِ غنى

اطلب شباب يا وطن واتمنى».

القَائِد السياسيّ

بعد أسبوع التقينا الاثنين في نفس البيت، دون ربحي الملثم، يبدو أن مَهَمَته انتهت بالتعريف بنا وبتزكيتنا على الأرجح، لنتلقى المهام الموكلة لنا، شرحت لهما وضعي العائليّ، كزوجٍ جديد وأب منتظر، وأنني لَا بد أن أعود إلى الأراضي الْمُحْتَلَّة، ومن هناك سأنفذ ما أُكلف به، أمَّا يُوسُف فاختار أن يبقى معهم، في «جامعة الجِسْر» كما وصف أحدهم معسكرات الفدائيين في المِنْطَقَة، حيث يتلقى الفِدَائيّ التثقيف السياسيّ والوطنيّ والتدريب، وتنفيذ العمليات داخل الأراضي الْمُحْتَلَّة.

قال أحدهم:

-الخيار يبقى لكل واحد منكما، إذا رغبتما أن تلتحقا بقواعدنا في الأغوار، أو أن تعودا للأرض الْمُحْتَلَّة. نحن في الثَّوْرَة نترك الخيار لكما، في كلّ موقع يمكن للمناضل أن يكون له مكان في حرب التَّحرير الشعبيّة طويلة الأمد أسلوبًا ومنهجًا، والتي ستحقق أهدافنا وندحر الاحتلال الغاشم بأسرع وقت وأقل التكاليف.

أكّدت على مسألة عودتي، استحسنوا ذلك، وقالا: عُد وانتظر تعليماتنا، ورُسُلنا، ورسائلنا المشفرة عبر إذاعة الثَّوْرَة يا (أَبو النُّجوم)، لَا تنس هذا الاسم أبدًا أنت الآن بالنسبة لنا (أَبو النُّجوم).

وبعد نِصْف ساعة حضر شخص ملثم، قدماه لنا باسم (أَبو إياد)، ورغم أننا لم نرَ وجهه، إلّا أن حضوره بدا طاغيًا، فيما أبدى له مضيفانا احترامًا كبيرًا.

مَهَمّة (أَبو إياد) هي تقديم تحليل سياسيّ لنا، وإجابة على تساؤلاتنا في السياسة والثورة والتَّحْرِير.

والأسئلة، بعد لقائنا مع قايض، كثرت، والشهية للمعرفة انفتحت، وقدرة (أَبو إياد) على أسرنا بحديثه بدت فائقة، فلم نقاطعه إلا لمامًا:

«عندما قررنا أخذ زِمام أمرنا بيدنا، كنّا ندرك بأننا نسير في حقل أشواك، في ظِلّ هيمنة منظمة التَّحرير الفلسطينيّة بقيادة الشُقيري على المشهد الفلسطينيّ، وهي منظمة أسستها الدُّول العربيّة، أو الأصح جمال عبد النَّاصِر، كنّا نعد لحرب عصابات، ولكن عبد النَّاصِر والدول العربيّة، عدت ذلك توريطًا لها في حروبٍ ليست مستعدة لها، لم يكن لدينا المال اللازم، والحصول على السلاح لم يكن سهلاً، ومع ذلك

تمكَّنت فتح من شراء أسلحة خفيفة من السوق السوداء، وبكميات ضئيلة، ولكن أين يمكن أن ندرب الفدائيين المتعطشين للكفاح الذين نظمناهم في خلايا سرِّيَّة وزادوا عن المائة؟

في عام 1964م، النظام العربي الوحيد الَّذي فهمنا هو نظام الرَّئيس بن بلا في الجزائر، الثائر يفهم على الثوار، فسمح لنا بفتح مكتب في الجزائر المحررة من استعمار فرنسيّ طويل، ولكن بن بلا وثيق الصلة بعبد النَّاصِر الداعم لمنظمة الشُقيري، لم يمدنا بأي دعم مالي، رغم حبه لنا، لم يكن يريد أن يخدش التوازنات، وحدثت تطورات لافتة بعد تسلم خليفته بومدين الحكم، وبفضل حافظ الأسد قائد سلاح الجوّ السوريّ، واللواء أحمد السويداني رئيس الاستخبارات العسكريَّة الَّذي أصبح لاحقًا رئيسًا للأركان العامة، فُتح لنا أوَّل مُعَسْكَر تدريب في سوريا عام 1964م، قبل الإعلان عن انطلاقة الحركة، وتسلمنا أوَّل شحنة سلاح عام 1965م.

وكان هناك فدائيون انخرطوا في جَيْش التَّحرير الفلسطينيّ، الَّذي أسسته منظمة الشُقيري، ولم يكن لدينا قناعة بأنه تم تأسيس هذا الجَيْش لمحاربة العَدُوّ الصهيونيّ، وإنما لاستيعاب الغضب الفلسطينيّ وخصوصًا من جيل الشَّباب، والحيلولة

دون خوض الكفاح المسلح الَّذي كنّا نخطط له في فتح.
في بداية خريف 1964م، عقدت قيادة فتح اجتماعًا في الكويت، وانقسمنا إلى فريقين، فيما يتعلق بانطلاق الكفاح المسلح، القسم الأوَّل رفضوا إعلان الكفاح المسلح، لاعتقادهم بأن الظروف الوطنية، والإقليمية، والدوليّة لمثل هذا العمل العظيم الَّذي سيشكل مفصلاً في تاريخ هذه المِنْطَقَة غير مواتية أبدًا، ولكن القسم الثَّانِي وكان يمثل الثقل في قيادة الحركة، كما تبين فيما بعد قرّر خوض الكفاح المسلح، ومن رموزه الأخ (أَبو عمّار)، وأُطلق على هؤلاء لقب المجانين، الذين يريدون إشعال المِنْطَقَة.
وفي تشرين الأوَّل عام 1964م، عُقد اجتماع آخر في دمشق لكوادر فتح القيادية في دول الطَّوْق المحاذية للعَدُوّ، حضره ممثلو الضَّفَّة الغربيّة وقطاع غزة، وانقسم المجتمعون فيما يتعلق بالكفاح المسلح إلى قسمين: الواقعيين، والمغامرين..!
حصل تطور من الجنون إلى المغامرة..!
نقاشات طويلة جرت، وتحليلات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وعسكريّة، وغيرها، أدت في النهاية إلى الإجماع على توجه المغامرين، وبعد ذلك بأيَّام حددت أوَّل عَمَلِيَّة سننفذها في قلب العَدُوّ (31 كانون الأوَّل 1964م).

وحسب الخُطَّة، ستنطلق مجموعات من الفدائيين عبر الحدود لتنفيذ عمليات على عدة مواقع عسكريَّة واقتصاديّة للعَدُوّ الصهيونيّ، وخاصة منشآت تحويل مياه نهر الأُرْدُن إلى دَوْلَة العَدُوّ.

وهذا ما حدث: في غزة أوقف الأمن المصريّ المسيطر على القطاع الْمَجْمُوعَة، قبل موعد العَمَلِيَّة بأسبوع، لوجود اثنين ناصريين في الْمَجْمُوعَة، نقلوا ما يحدث للأمن المصريّ، وتمكّن الفدائيون الذين انطلقوا من الضَفَّتين الغربيّة والشرقيّة ولبنان من تنفيذ عشر عمليات ناجحة..!

حُضر لعمليات 31 كانون الأوَّل على مدى شهرين، وأُعطيت للفدائيين أوامر بعدم إحداث خسائر في السُّكَّان المدنيين الإسرائيليّين، وصدر البلاغ الأوَّل باسم (العاصفة) التي أصبحت اسم الجناح العَسْكَريّ لحركة فتح، ولم نعلن العَمَلِيَّة باسم فتح لأننا لم نكن نعلم بأنها ستنجح أَمْ لا، ولم نرغب بزج اسم فتح في عملٍ قد يفشل، العاصفة كان اسمًا احترازيًا، وكما تعلمون أُستشهد أحمد موسى، الَّذي قابلتما ابنه قايض وسمعتما منه عن البطولة الفلسطينيّة عندما يتاح للفلسطينيّ فرصة الكفاح والنضال».

لم يعجبنا حديث (أَبو إياد) عن مدنيين إسرائيليّين، وقلت

لا يوجد مدنيون في الكيان الصهيوني، من يأتي ليحل مكانك في أرضك ومنزلك وبيارتك، ليس مدنيًا.

ابتسم أَبو إياد وقال بنبرة رجل حكيم، وسياسي محنك:

«أيّ عمل عسكريّ يجب أن يخدم هدفًا سياسيًا، أردنا أن نوصل رسائل ليس فقط لشعبنا ولكن أَيضًا لمن يحيط بنا وللعالم، عمومًا أشعر أحيانًا بأنني أُغرد خارج السرب في حركتنا، ولكلٍ منّا مهامه، فالعسكريّ ينفذ عمله، والسياسيّ كذلك. ما حدث بعد العمليات، أن وسائل الإعلام العربيّة صمتت، لقد واجهنا مؤامرة صمت، هكذا اعتقدنا، ولكن يبدو أنّها كانت تنتظر التعليمات من فوق، فبعد أيَّام انطلق سيلٌ من القدح والذمّ والسباب، ووصفونا بالمسلحين عملاء الاستعمار، صحيفة الأنوار البيروتية الموالية لعبد النَّاصِر عنونت صفحتها الأُولَى، بأن الفدائيين عملاء لوكالة المخابرات الأميركيّة، أمَّا النظام السعوديّ فرآنا عملاءً للشيوعيّة الدوليّة، والنظام الأُرْدُنِيّ وضعنا في خانة الثوريين العروبيين، أعداء الملكية والهاشميين.

ولم يرحمنا بعض أخوتنا الفلسطينيّين، فالشُقيري أنشأ منظمات وهمية، حتَّى لا تنفرد فتح في السَّاحة، لقد فهمناه لأنّه كان أداة بيد الجامعة العربيّة التي سعت لتدميرنا.

ودليلنا على ذلك المذكرة التي وجهها الفريق علي علي عامر، قائد القُوّات العربيّة الموحدة، إلى الحكومات العربيّة، لقمع نشاط الفدائيين، مبررًا ذلك لعدم إعطاء إسرائيل ذريعة لمهاجمة الدُّول العربيّة، وكما حدث معكم، فإنهم عندما قرروا محاربة إسرائيل، هُزم الفريق عامر وقواته ودُوله.

ومنعت الأُرْدُن ولبنان الصِّحافة من ذكر اسم العاصفة، يكفي أن تتصل وزارة الإعلام بالصحف، لتستجيب الأخيرة، والواقع أن بعض المحررين في الصحف كانوا يتحايلون على الرقابة المشددة على أخبارنا، فيذكرون بيانات الناطقين الإسرائيليّين عن عمليات العاصفة.

وفي ظِلّ هذه الظروف، لم يكن غريبًا أن الشهيد أحمد موسى قد ارتقى شهيدًا برصاصٍ عربيّ، بعد تمكنه من الإفلات من رصاص العَدُوّ الصهيونيّ، وتجاوز خطوط العَدُوّ. وعندما اندلعت الحَرْب الأخيرة ولا أعرف كيف يمكن أن نسميها حربًا، وأنتما تعرفان عنها أكثر منّي، كان لدينا في السجون الأُرْدُنِيَّة نحو مائتين وخمسين يُشتبه بانتمائهم أو تعاطيهم مع العاصفة، في الواقع عانينا من قمع معظم الدُّول العربيّة.

ولكن بعد الهزيمة، التي هي هزيمة الأنظمة وليست هزيمة

الشعوب، وعليكما أن تدركا ذلك جيدًا، ها نحن ننهض من جديد، ونرتب أمورنا، ونقيم القواعد على النَّهر الخالد، وقيادتنا في الكرامة ليست بعيدة عن هنا. وأنتما أصبحتما جزءًا منّا لكما ما لنا، وعليكما وعلينا ما لفِلَسْطِين وأرضها وترابها وشعبها وهوائها».

وأفهمنا أَبو إياد بأن على كلِّ منتمٍ للحركة أن يقسم قسم الانتماء لفتح، وبأنه يعرف بأننا فعلناً ذلك، وذلك وفقًا للنظام الأساسيّ للحركة، كلّ على كتابه الْمُقَدَّس، ولكن لا بأس أن نفعله من جديد بحضور قيادات عسكريَّة وسياسيّة من فتح، كما وصف نفسه ورفيقيه، وأخرج نسخة من القرآن وأخرى من الإنجيل، وضعت يدي على كتابي الْمُقَدَّس، ووضع يُوسُف يده على كتابه الْمُقَدَّس، ورددنا خلفه قسم الفَتْح والتَّحْرِير العظيم، ومعنا الموجودون، وبصوتٍ بدا جهوريًا، كأننا أردنا أن يكون النَّهر، والأشجار، والحجارة، والتلال شاهدة علينا جميعًا:

«أُقسم بالله العظيم. أُقسم بشرفي ومعتقداتي... أُقسم أن أكون مخلصاً لفِلَسْطِين... وأن أعمل على تحريرها باذلاً كلّ ما أستطيع... وأقسم أن لا أبوح بسرية حركة فتح... وما أعرف من أمورها... هذا قَسَمٌ حر... والله على ما أقول شهيد...».

غرب الجِسْر (2)

أُسُود بيبرس

عدنا إلى المُعَسْكَر، وقصدنا مدير قلم السَّرِيّة مُحَمَّد الأسود، وسلمناه ملابسنا: السترة والبنطلون والقميص والبسطار العَسْكَرِيّ وبارودة كلّ منّا، ويبدو أنّه علم ما حدث لنا، فتمنى لنا التوفيق دون أن يسألنا عن سبب مغادرتنا، وقال بأنّنا كلنا سنسير على هذه الدَّرْب، وأن الجيوش النظامية لن تستطيع أن تفعل شيئًا لفِلَسْطين، هذا إذا أرادت ذلك حقًا، فالحرب التقليدية مع العَدُوّ معروفة النتائج منذ الآن، وأن الثَّوْرَة الفلسطينيّة هي الرد على هزيمة الجيوش، وهتف: «كلنا فدائيون».

وأضاف، بأنه سيتغاضى عمّا سنفعله، وأنه سيعتبرنا مثل الفارين من السَّرِيّة الذين يرمون متعلقاتهم ويغادرون. قلنا له ونحن نغادر: السّلام عليكم، فقال: أنتم السابقون ونحن اللاحقون.

توجهنا إلى رأس قناة الغَوْر، رأينا مجموعة من الأطفال يسبحون في المياه، ولاجئات يغطسن أطفالهن في المياه، ويفركن أجسادهم بما توفّر من صابون، تأثرت من المنظر،

وتساءلت إلى متى ستستمر معاناة النازحين؟ وإذ بتركتور يجر حاوية أنقذني من الغوص في مزاج عكر، أشّرنا له، ركب معه يُوسُف متوجهًا إلى عمَّان، إلى أشقائه، سيزورهم ويرتب أموره ليعود إلى الأغوار ولكن هذه المرّة فدائي، وليس جنديًا خائبًا لم يحارب.

إلى أين سأذهب الآن؟ بعد أن ودَّعت يُوسُف بعواطفَ حاولنا عدم إظهارها، آملين بأننا سنلتقي قريبًا، إن لم يكن فوق الأَرْض، فتحت الأَرْض شهداءً من أجلها، أوصيته بعائلتي إذا استشهدت، وهو أَيضًا طلب منّي الاهتمام بوالديه في حَوْش السُريان.

اقتربت من جِسْر دَامْيَة، وعاينت المنْطَقَة من بعيد، تأملت الجِسْر المنسوف، الملحق بالجسر الحجريّ الَّذي بناه الظاهر بيبرس، الَّذي ما زال صامدًا بأقواسه البديعة، التي تسمح بمرور الماء بحرية، ورأيت اللوحة الحجريّة التعريفية التي تُخلد بناءه، وحولها الأسدان، شعار المَلِك الظاهر، في مكانها لم تتضرر من النسف، وحلمت باليوم الَّذي سنسيطر فيه على الجِسْر، وتمر مركباتنا عبره بحرية.

الجِسْر، هزيمة أو نَصْر، الجِسْر لقاء أو فراق، موت أو حياة، سَير أو انبطاح، هروب أو إقدام، خوف أو شجاعة، عُلىً

أو انسحاق، إقدام أو إدبار، شجاعة أو جبن، مُغامرة أو مُؤامرة، اندفاع أو تَقَهْقَر، كرامة أو انخساف الذات.

تشرد سكّان دَامْيَة على ضَفَّة النَّهر الغربيّة، ومنطقة الكرنتينا القريبة، وتعرضت كلّ التجمّعات السُّكَّانية على الضَّفَّة إلى تطهيرٍ عرقي، لم يقبل المحتلون الجدد بأي وجود فلسطينيّ قريب من النَّهر، أرادوه لهم، حدودًا جديدة، قد تكون مؤقتة، فهم كل عدة سنوات على موعدٍ مع حدودٍ جديدة.

وكان على الكثيرين من السُّكَّان أن يجربوا التشرد مرتين، مرّة كلاجئين، وأخرى كنازحين، أيَّة مرّة كانت الأقل بؤسًا؟

التقيت مزارعًا نزح من أرضه قرب الجِسْر، وأقام تحت شجرة شرق الجِسْر على أمل أن تهدأ الأمور ليقرر ماذا يفعل، وقد أصبح دون بيْت ولا مأوى غرب الجِسْر، حدثني عن عمليات الطرد الواسعة للنَّاس، وهدم المنازل، وتجريف الأَرْض، وتشرد الحيوانات الداجنة، التي لا بد أصبحت وجبات شهية للضباع وبنات آوى، التي تظهر في أوقات الحَرْب والسلم، كعدو يُهاب للناس وحيواناتهم، انتصر الإسرائيليّون على المزارعين، وانتصرت عصبة الحيوانات المهابة على حيواناتهم، هزيمة هنا ونصر هنا، المهزومون

يلوذون بالأشجار، والمنتصرون يدبون على الأَرْض وعيونهم جاحظة إلى ضحايا جُدد، أو بقايا ضحايا، شق النَّصْر لا يفتر، الهزيمة وحدها الفاترة.

أخذني المزارع بعيدًا إلى عالم الحنين، حَلَّق بي إلى ماضٍ بعيد، راويًا حكاية بناء الظاهر بيبرس للجِسْر: «عندما أنهى رجال بيبرس بناء الجِسْر، اضطربت بعض أركانه فقلق السُّلْطَان الظاهر، سلطان السلاطين، ظافر الدُّنْيَا، ورُكن الدين، ولعله الآن في عليين ينظر إلينا، ويشفق على حالنا، فأمر بإصلاحه، ولكنَّ الماءَ زاد في النَّهر، وفاض، فلم يتمكّن البناؤون من إتمام إصلاحاتهم، فحدثت معجزة، لا تَحَدَّث إلّا للملوك الصالحين، وعباده الطيبين. لقد توقف جريان الماء بقدرة قادر أحد، فأتم البناؤون إصلاح الجِسْر، وعادت المياه للجريان».

ذكّرتني حكاية المزارع، بحكاية بني إسرائيل عن النَّهر، وتساءلت مَن نقل عمَن؟ وكيف تداخلت الحكايات وتثاقفت؟ هذا الجِسْر والمياه التي تجري تحته، تكرر الحكايات نفسها، حكايات الحروب، والكرِّ، والفرِّ، والبطولة، والأساطير، وتدخل السَّماء في شؤون الأَرْض، وفساد ناسها، ونكران جميل السَّماء، التي لا تسكت فتعرف كيف تنتقم من الحجرِ والبشرِ.

شاكست المزارع المهموم، الَّذي يبدو أنّه يريد من تذكر حكايات الماضي، التسري عن مصائب الحاضر:

-وهل تصدق أن الماءَ يمكن أن يتوقّف فجأة؟

*الله أعلم، هكذا سمعنا من الآباء الذين تناقلوا ما قاله الأجداد، وها نحن ننقله لكم..!

-تبقى هذه القصص محيرة..!

*والدي كان يتحدَّث عن سقوط صخرة كبيرة في النَّهر، فأغلقت مجراه، ليتم رجال الظاهر إصلاحه، وعندما علم السُّلْطَان بما حدث، تأكد من قُدسية ما يفعله لخير النّاس، وعلم أن عمله مبارك من الله، فأوقف الأوقاف لإصلاح أيّ عطل في الجِسْر، حتَّى يستمر في خدمة النّاس.

-أشعر أن الجِسْر خدم الغزاة أكثر من النّاس..!!

*هذه أقدار بلادنا يا ولدي، قُدِّر علينا أن نرابط فيها ليوم الدين، أعرف أن السّلام سيجافيها، حتَّى يرث الله الأَرْض ويرثنا ويرث غيرنا..! بلادنا حُلوة يا ولدي، ومطموع فيها، يأتون إلى هنا ليحتلوها، ويقضوا أوطارهم، ويحلبوها، ويغادرون تاركيها في كلّ مرّة تلملم جراحها، بلادنا مسكينة، ونحن أَيضًا مساكين، ليس لنا ولها، إلّا رَبّ اليتامى والمساكين، ليس لنا إلّا أنت يا الله، يا عالم،

ورائيّ، ولا يحدث أي أمر إلّا بتدبيرك..!
-لكننا سنغير المعادلة، بعد أن أصبح مستقبلنا في يدنا، نصنعه من فوهات البنادق، وسنكتب تاريخًا جديدًا بالدماء..!
بدا على المزارع أنّه لم يفهم ما أقصده بالضبط، إلّا أنّه قال:
*الله يوفقكم يا ولدي، أنتم ملح الأَرْض وعجولها، وما بحرث الأَرْض إلّا عجولها..!
ودعتُ المزارعَ، بعد أن استفسرت منه عن بعض التفاصيل التي تفيد المُتسلِّل إلى الأَرْض التي أضحت مُحتلة برمشةِ عَيْن جبانة، واقتربت أكثر من الحدود الجديدة، لم أرَ جنودًا للعَدُوّ، ولكنّني قدرت أنهم لَا شك يكمنون في منطقة مخفية ترصدًا لمُتسلِّلين عبر الشَّرِيعة، فحرب الأيَّام الستة كما سماها العَدُوّ، والتي كانت بالنسبةِ لي حرب الساعات الستّ، فرقت، وشتّتتْ، عائلات انقسمت، آباء على ضَفَّة، وأمهات على ضَفَّة، وأبناء وطلاب وموظفون، وجدوا أنفسهم عالقين، بعد أن تعلقوا بشعارات التَّحرير، ومناخات كنس الإسرائيليّين، ورميهم خارج البلاد، إن لم يكن في البَحْر الأبيض المتوسط.
تجولتُ في الغَوْر، وكأنني أودع المِنْطَقَة إلى أجلٍ طويل، وحاولت استذكار الأماكن التي قطعناها في رحلة الهروب

شرق الجِسْر، رأيتُ نساءً ورجالاً، وأطفالاً، ومن شككت بأنهم من الفدائيين، ينتظرون اللَّيْل ليعبروا، أردت أن أظهر الحماسة، ولكنّني تذكرت القَسَم، وضرورة السِّرِيّة، عليَّ أن أتدرب منذ الآن على إطباق الفم، والتحكم بالانفعالات، وأن أسمع وأقتصد في الكلام، أشتري ولا أبيع كما يقول ناسنا، إذا كان للجدران آذان زمن الأُرْدُن، فالآن في زمن إسرائيل، أصبح لها أَيضًا عيون تلمع، ومخالب متحفزة، وأظافر تجرح وتحفر.

بين الكتايب

في السَّاعَة الحادية عشرة ليلاً، مشيت إلى مخاضة دَيَّر علّا، المفضلة لعبور الشَّرِيعة، وصلت المِنْطَقَة مع انتصاف اللَّيْل، واكتشفت فيها حركة دؤوبة، لنازحين يريدون الْعَوْدَة، وأدلاء كثر، يعرضون خدماتهم. التزمت الصمت، ولم أتدخل فيما يجري، فلدي هدف واحد، هو الْعَوْدَة إلى الوطن والعائلة، والنضال من هناك، نزلتُ إلى المخاضة، المياه منخفضة، تصل إلى الركبتين، وصلتُ الضَّفَّة الغربيّة للنهر، أسرعت مبتعدًا إلى منطقة الكتايب، التلال الرَّملية الجافة المتناثرة وكأنّها صُبت في قوالبٍ غير متناسقة، مشيت بينها، متنبهًا حتَّى لَا أصطدم بأية دوريّة للاحتلال، شعرت بالخوف، كلما سمعت صوتًا، معتقدًا أنّه قد يكون للإسرائيليّين، الذين تعاملوا مع أيّ متسلل يقبضون عليه ببساطة استعمارية كلاسيكية، يضعون رصاصة في رأسه، وفي حالاتٍ قليلة غير مفهومة، يعيدونه إلى شرق النَّهر.

سمعتُ صوتًا مرتفعًا، فجلست على الأَرْض مختبئًا، وإذ برجلٍ ينزل ركضاً من رأس التَلّة المقابلة، شعرت بالرعب،

وقلت لنفسي بأن الموتَ دنا، وسيكون حتميًا، وبأن مغامرة النضال التي طالما رسمتها خلال الأيَّام الماضية في رأسي وكياني، وِئِدت، وبأن الله لا يريد أن أرى ابني الَّذي سيأتي من عالم غيبه إلى وطنٍ محتلٍ، ووالده غائب ولن يعود، وعليه أن يكمل الدَّرْب، دَرْب والده الَّذي لم يشهد إلا خطوات هزيمة، ويمحي العار.

رأيتُ رجلاً طويلاً يرتدي قميصًا وبنطالاً، ويلف رقبته بحطة بيضاء، قد لا تكون كذلك، وقد لا تكون حطة أصلاً، لم أعد متيقنًا بما أرى، وأنا أحاول أن أكون هادئًا في فجر السابع والعشرين من تمُّوز، في هذا المكان من قاع العالم.

عندما اقترب منّي، قال: مساء الخير، فقلت: صباح الخير، دنا من الأَرْض حيث أجلس، وتفحص وجهي دون استئذان، في الهزيمة لا يستأذن أحدٌ أحدًا، الانتهاك هو اللُّغة الوحيدة، وتمتم: أَبو عمّار؟ لذتُ بالصمت محتميًا، فقال: ليس أنت، ثُمَّ عاد ركضًا إلى حيث أتى.

بقيت جالسًا في مكاني، خائفًا، متحسبًا، ويبدو أنّني غفوت.

أخذتها معي، وتركتك لتختبر جنسك، ولتعرف لماذا قررت الرحيل، أَيُّها الرجل الَّذي لم يحارب، الَّذي ستروي قصتك

عشرات المرات، لأبنائك وأحفادك، وسَتُحوّر فيها وتُغير، حسب الأجيال التي ستسمعك، كنوعٍ من التسوية، وستكتشف أن الحياة هي مجموعة تسويات، ما أن يبدأ المرء بتسوية حتَّى تتبعها تسويات، وربّما تصل الأمور به إلى أن يعش أحلام الآخرين، سعيدًا راضيًا، أمَّا أنا يا ابني فلم يتركوا لي حتَّى بذور حلم، فقررت الرحيل، وتركك لتُجرِبّ، لم أرغب بمصادرة حقك في التَّجْرِبَة، وها أنت تجرب يا رجل لم تحارب في جَيْش الآخرين، ولكنك ستحارب في معركتك الخَاصَّة، وستمضي خمسة عشر عامًا في سجون الاحتلال الجديد، وها أنت منذ الآن ستبدأ مواجهته.

أين أنت يا ربحي؟ جلجامش عَيْن سامية، أميرة الأساطير المفقودة، أنا ربحي سأدخل الأراضي التي أصبحت محتلة فدائيًا، وليس كما خرجت منها هاربًا في جَيْش هارب، سأنزل مع مجموعة من الفدائيين ولن نقع في كمين لجيش الاحتلال، فنقتل جميعًا، وها أنا أغادر ليلك، وأنت تغادر إلى حلمك، وأتركك لأمك، ولكنك لا تراها، ترى يُوسُف السُرْيانيّ، وقايض، والقائد زلّوم يترك جنوده، ويرمي نفسه في قناة الغَوْر الشرقيّة، حتَّى يظهر بين الفدائيين.

أصحو بجوار الأستاذ شَرِيف تحت الفُلْفُلة أمام غرفة

السِتّ لويزة، وهو يدخن ويشرب العرق سرًا، ويذوي مع الضباب الَّذي يلف جبل (أَبو زيد) تاركًا خلفه المئات من الصفحات عن تاريخ القَرْيَة، وترجمات متفرقة لما كتبه الْغُرَبَاء عن قريتنا، وتسجيلات لمقابلات مع زائرات أتين للقرية على خطى حَلِيمَة، وعددًا كبير من الصُّور.

صور..صور..أين هي الصُّور؟

الخوف يُنيّم، يُغيّب عن الوعي، الصُّور؟ لا بد أنّني كنت أحلم، وها أنا أستيقظ أفرك عينيَّ، رأيت الرجل ذا الحطة البيضاء، يقود رجلاً قصيرًا بحطةٍ مُرَقَّطة تعتلي رأسه المدور، تركتهما يمضيان ويغيبان عن ناظري، تَحَسَّسْتُ الكَأْس الفِضَّية في جيب بنطالي، وَصيَّة ربحي، أرادها أن تكون في أرضها، وعندما أصل سأعطيها للأستاذ شَرِيف، سيقدرها ويحفظها، وسيكون الموت دون أن يفقدها.

رجل في غَمَامة

نهضتُ وسرتُ عائدًا إلى قريتي البعيدة، لن يكون الوصول إليها سهلاً، وخطر لي، على نحو مباغت، إذا كنّا سنحتفل في آب المقبل، بعيد السيدة العَذْرَاء في دَيَّر الجنَّة المقفلة، كما كان يحدث كلّ عام، فسأسير مع المسيرة التقليدية، التي تنطلق من العَيْن، ويشارك فيها مؤمنون من مختلف أنحاء العالم، كان بعضهم يأتي من لبنان وسوريا وشرق الأُرْدُن. هل ستظل أعيادنا كما كانت قبل الاحتلال؟ سنحتفل في تحدي وجود للاحتلال.

أربع سنوات عمل فيها المُهَنْدِس الشَّابّ مُرقص نصّار، ليحتل الدَّيْر المشهد، بحجارةٍ محلية، اقتطعها من محجر أعلى الجَبَل، لم يكن الأمر سهلاً أبدًا لمرقص الَّذي عمل بجانب شقيقه إبراهيم. وهو يقف لأوَّل مرة أمام انحدار الجَبَل الحاد، علم منذ البداية أنّه في مواجهة، لطالما خبرها غيره من مهندسين ومكتشفين ورياديين على امتداد تاريخ البَشَرِيَّة؛ الإنسان في مواجهة الطبيعة، الهدم من أجل البناء، خلق جديد في مواجهة خلق بِكر لم يخدش من

ملايين السنين. قَطع الصخر بالبارود، نزل إلى عمق ثلاثة عشر مترًا، وبنى جداراً حجرياً ضخماً من الجهة المقابلة على ارتفاع عشرة أمتار، ودعمه بثلاث ركُب حجرية غاية في الدِّقَّة والجمال أسفل كل منها قوس صغير، وبجانبها ركُب أخرى استخدمت لحمل الدَّرَج المزدوج المؤدي إلى الوادي. لقد حدد موقع البناء الَّذي سترتفع فيه الحجارة، بأيدي عدد كبير من الحجّارين، والنحاتين، والعمّال الذين جمعهم من قرى المَنْطَقَة وبلداتها. إنّه يغيِّر الموقع الَّذي لم يتغير منذ بزوغ العَذْرَاء ووليدها المسيح، وربّما قبلهما بكثير، منذ أن تَكَوَّنَت الجبال في قريتنا وحددت مسار واديها الَّذي يحمل مياه الشتاء إلى البَحْر المَيِّت، مِنطقتنا هي خَطّ تقسيم المياه التي تنهمر على الهضبة الفلسطينيّة الوسطى، منها ما يذهب إلى البَحْر الأبيض المتوسط، ومنها ما يستقر في البَحْر المَيِّت، لا نقطة مياه تذهب عدمًا، تخرج من الأرض أو البَحْر من جديد إلى السَّماء، لتستقر في ثنايا غيمة لتنهمر مرات ومرات على أرضٍ سَرْمَدِيَّة تبدو محايدة غير آبهة بمن يدبون عليها من بشرٍ، لا تعرف لماذا يتقاتلون ويختلفون ويلجؤون إليها يقتطعون حجارتها يستخدمونها سلاحًا بينهم، أو يتقربون بها إليها بتشييد الصروح عليها.

عندما كان الأستاذ شريف يأخذنا إلى الدَّيْر، نطلع في كل

مرة على شيءٍ جديدٍ، في معمار الدَّيْر الَّذي جَسَّدَ فلسفة مُرقص الهندسيّة والفنيّة، التي زاوجت بين العمارة المحليّة، والحداثة المتأثرة بالعمارة الغربية في عصره.

سحرنا الأستاذ شريف بكلامه عن الجِسْر الَّذي يربط ضفَّة الوادي الشَّمالية بالدَّيْر، هو مدخله الرَّئيس، يسير النّاس بين الدرابزين الحجريّ على حافتيه، يطؤون أرضيته المرصوفة بالحجارة، والمحمولة على القناطر الحجريّة، أقدامها مغروزة في أرض الوادي، وجعلني حديثه عن الشبابيك القوسية لا أكف عن التمعن بها وعدّها خلال مروري بالدَّيْر.

جِسْر ديرنا، غير جِسْر دامية، الذي قطعناه مهزومين، جنودًا لم يحاربوا، جِسرنا تحرسه الراهبات والفلاحين بالأنفاس وجِسر الهزيمة، قطعناه مقطوعي الأنفاس.

أجمل المشاهد التي تبعث بي لمسات حزن شفيف أحتاجها جداً، تلك عندما تقترب الغيوم نزولاً من جبل (أبو زيد) لتلامس قرميد الدَّيْر الأحمر. في أحيانٍ يغطي الغيم السطح، وفي أحيانٍ يجلله بغَمَامَة تجعل اللون الأحمر وقد تموّج إلى ألوان أخرى.

أنا الآن أشعر بأنني أسكن غَمَامة، ستمطر في قريتي..!

وكما يحدث دائمًا للأستاذ شريف أصبح مُرقص نصّار واحدًا

من الذين يعيشون معه لا يفارقونه مثل لويزة وحليمة، وسيصفه بأنه صانع أمجاد بَيْت لحم والقُدْس وغيرهما العمرانية، وبصفته هذه سيحضر دائمًا ضيفًا عندما يستقبل الأستاذ ضيوفًا، وأخذني مرة إلى قبره في مقبرة اللاتين في مدينة بَيْت لحم، ليريني قبره، الَّذي يكشف عن فنون الحجر المختلفة التي سادت في المدينة والمدن المجاورة في النِّصْف الأوَّل من القرن العشرين.

قبر المُهَنْدِس يختلف عن القبور الأخرى، بارتفاعه وشموخه، وعلى الأرجح هو من صممه، ليحمل صورته منقوشة على الحجر، وليعبر بالفنون الحجرية عن مكانته وحصوله على وسام القديس سلفسترس من رتبة قائد تقديرًا لخدمته في الهندسة وبناء الأديرة منحه إياه البابا بيوس العاشر.

سيدهش الأستاذ شريف دائمًا وسيقول دائمًا:

-حتَّى في مستقره الأخير أراد أن يقول لنا بأنه خُلق معماريًا ومات كذلك، هذا إذا مثله يموتون فعلا، من حمل شهادة في الهندسة المعماريّة وعمره أقلّ من ثمان وعشرين سنة، حفيد الأرمن الذين تعربوا، الابن الأصغر لأسرة نبغ كل أفرادها، وسيبزغ نجمه مع عَوْدة أثرياء من بَيْت لحم من المهجر، فبنى لهم قصورًا ما زالت صامدة في المدينة، وبنى

للربِّ بيوتًا طبعها بنبوغه الهندسي البشري..!
أعلى الدَّيْر وقريبًا من قِمّة الجَبَل، تنتصب دار الرّاهِب، التي تبدو لنا من أسفل الجَبَل، وكأنها بناية صغيرة خرجت من كتب الحكايات لتستقر أعلى الجَبَل، ويستقر فيها الخُورِي عيسى البندك، خوري واحد، كان مرشدًا روحيًا للراهبات وراعيًا لديرهن، وصلة القرب مع ناسنا، فلّاح من حارة العناترة في بَيْت لحم، فلح في الدين والدنيا.
وعندما كانت إرطاس تائهة في أزمتها المائية مع الجيش، اكتشف نبعا غزيرا مخفيا في بركة سليمان التحتا، وتحوّل إلى موضوع لتقارير صحافية، ذكرت أن الخُورِي الفصيح اكتشف النبع الذي أخفاه المُهَنْدِس اليهودي الذي عمل في ترميم البرك، في عهد الانتداب البريطاني، عام 1922م.
ولم يكن يحتاج الخُورِي الديناميكي، إلا لمفردات مثل اليهود، والماء، والبرك، والنبع، حتّى يجذب الانتباه، ويسوق ناس قريتنا إلى النبع الذي سمي بالفروجة، وهو من أغرب ينابيعنا، لأنه ينبع من داخل البِركة، وصمم المهندسون بناءً حجريا فاتنا، مرفقا بأدراج تؤدي إليه.
وعندما علم عارف العارف، رئيس بلدية القدس باكتشاف الخُورِي، زاره في الدَّيْر، ليسمع الحكاية التي رواها الخُورِي

الذي كان حينها قد أمضى أربعين عامًا في إرطاس، حاميًا للراهبات.

العارف مفتون بالتاريخ، والجغرافيا، والينابيع، وعندما التقى الخُورِي، بديا كأن مجنونين اجتمعا، ليحلا ألغاز البِرك. روى الخُورِي بحماسة: «لطالما، وأنا أتردد على البرك مستكشفا قنواتها ونظامها المائي، كنت مقتنعا بأنها تخفي الأسرار، وعندما نظفوا البركة التحتا من الحجارة والأتربة المتراكمة فيها منذ سنوات طويلة، وظهرت جدرانها واضحة، لاحظت وجود حجر مربع ناتئ له طبزة ظاهر في جدار البركة الشمالي الشرقي. وقلت: لا بد أن هنالك تحت هذا الحجر سرًّا خفيًا عظيمًا، فاستدعيت ناظر دائرة المياه في البِرك وطلبت منه أن يضرب بفأسه الحجر الناتئ فاقتلعه بفأسه فانكشف عن بلاطة تسد جوف بئر عميق يوازي مترين عمقًا، ويسيل إليه ماء غزير في قناة محفورة في الصخر طولها متران بعرض متر واحد، تؤدي إلى الجهة الشمالية الغربية، ومنها إلى غرفة صغيرة محفورة في حائط البركة ومتصلة بغرفة واسعة».

وعندما علم رئيس البَلَدِيّة بأن النّاس سموّا النبع المكتشف، عَيْن الفروجة، لأنها تبدو مثل فرج امرأة أتعبها الانتظار، قهقه وهو يشيد بعبقرية حِس النّاس الجمعي في تسمية المواقع في فِلَسْطِين.

وعندما ودع الحُورِي، رئيس البَلَدِيّة، قال له بحماسة منتصر: «لم يكن ذلك المُهَنْدِس اليهودي يريد أن تنتفع من مياه النبع القدسُ وبيت لحم، ويمكر اليهود، ولكن الله خير الماكرين».

حضر يومًا إلى غرفة السِتّ لويزة أكَادِيمِيّ يَساريّ من تشيلي، جاء مقتفيًا أثر السِتّ حَلِيمَة، واستمع إلى حماس الأستاذ شريف عن الدَّيْر، ولكن دون حماس، وعندما أنهى الأستاذ حديثه، سأله:

-ولمن الدَّيْر للأرثوذكس أَمْ اللاتين؟

أجابه الأستاذ شريف:

*للاتين..!

فضحك الأكاديميّ وقال وكأنه يقرّر أمرًا:

-أنتم أَيضًا احتلوكم، مثلما احتلونا..؟!

وضحك الجميع، ثُمَّ بدأ الضيف يدندن أغنية غجرية إسبانية:

تاه الطفل الإله

وأخذت أمه تبحث عنه

فوجدته على شاطىء نهر

يلعب مع الغجر

تصطف السيارات من العَيْن إلى شِعب عَوْدة، تهب من الوادي نسمات بطعم الإِجَّاص والبرقوق والعنب، وينشد المشاركون باسم سِتّنا مريم، وهم يسيرون خلف تمثال كبير لها، يظهرها كبتولٍ بريئة.

عدتُ إلى الغَوْر غرب النَّهر، كنت أعرف المِنْطَقَة جيدًا، سرت بمحاذاة شويعر، المكان الَّذي كنت فيه مستعدًا للحرب، قبل أقلّ من شهرين، وأعود إليه الآن وأنا أكثر تصميمًا على الحَرْب. حربي هذه المرّة مختلفة وسيكون فيها خلاصي ومَحْوَ عاري.

أنا طفل البلاد التي ضاعت، وضاع على ضفاف الأنهر، ولم تبحث عني أُمّي، وها أنا أمشي على التراب الذي يجب أن أمشي عليه، وسأمشي، وسأمشي وأنا أغني أغنيتي.

ملاحظات

*في فصل (القَائد السياسيّ) استفدت نسبيًا من مذكرات صلاح خلف (أَبو إياد) التي أملاها على الصحافي الفرنسي أريك رولو.

*في فصل (شهيد الثَّوْرَة الأوَّل) استفدت من لقاءاتي مع قايض الابن الأكبر لأوَّل شهيد للثورة الفلسطينيّة المعاصرة أحمد موسى، في مدينة بَيْت لحم خلال عامي 1995-1996م.

*ممتن ليوسف سند، وموسى سند، وفادي سند، والمعمرة حبسة سند، ولآخرين وأُخريات لحكاياتهم التي لا تنتهي عن قَرية إرطاس، ولترجمات الدكتور عبد اللطيف البرغوثي، وعيسى المصو، ومنى حمزة (ترجمات خاصة بناء على طلبي)، وخديجة قاسم، وإخلاص القنانوة، وجمال أبو غيدا، لبعض ما كُتب عن إرطاس.

*شكر مستحق لابنتي رؤى، التي رافقت هذا العمل بالتدقيق منذ مسوداته الأولى.

*أشكر الصديق يوسف أبو طاعة لتقديمه صورة الغلاف، وأشكر الفنان رمزي أبو صوي لتقديمه بورتريه الغلاف

الأخير.

*ممتن للصديق محمد أبو لاوي للمراجعة، وتقديم ملاحظات مهمة، وسأتذكر دائمًا تعاوننا الممتع.